عارف باشا العارف

تاريخ القدس

الطبعة الثانية

دار المعارف

يصدر هذا الكتاب فى حينه تمامًا .. وإنْ كان مؤلفه قد كتبه منذ سنوات طويلة .. لكن ما يتضمنه يجمع تاريخ القدس منذ أُنشئت عام ٣٠٠٠ ق .م على أيدى اليبرسيين .. مرورًا بمراحل مختلفة تتراوح بين الازدهار والضمور ، حتى أواخر عهد الانتداب البريطانى عام ١٩٤٧ .

وقد التزم المؤلف بأدق الأخبار والأسرار ، كما التزم الموضوعية والنظرة الشاملة .. فلم يترك بابًا إلا طرقه .. ولا معبدًا إلا ولجه .. ولا كلمة منقوشة فوق الأسوار والجدران إلا أمعن النظر فيها ، فجاء الكتاب بهذا مفيدًا ووافيًا للقارئ العادى والمتخصص .

عارف باشا العارف

تاريخ القدس

الطبعة الثانية

دار المعارف

المؤلف

هو عارف بن عارف المقدسى : مؤرخ من رجال الإدارة والسياسة . ولد فى القدس عام ١٨٩٢ .. وتعلم فيها .. وتخرج فى كلية الآداب جامعة استانبول عام ١٩١٣ ..

جند ضابطا فى الجيش العثمانى عام ١٩١٤ .. وأسره الروس حيث قضى فى روسيا ثلاث سنوات تعلم فيها الروسية والألمانية .. وعاد إلى القدس ليشارك فى إصدار جريدة (سوريا الجنوبية) عام ١٩١٩ .

بعد زوال الانتداب البريطانى عن فلسطين عُين رئيسا لبلدية القدس (١٩٥١ - ١٩٥٣) ثم تولى إدارة متحف الآثار الفلسطينى (١٩٦٧) ولم يغادر فلسطين حتى توفى عام (١٩٧٣) .. وله عدد من المؤلفات يجدها القارئ فى نهاية هذا الكتاب .

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

الإهداء

إلى أبي

« إنى رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً فى يومه ، إلا قال فى غده : لو غير هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يستحسن ، ولو قدم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر ، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر . »

العماد الأصفهانى

كلمة المؤلف

حمداً لمن جعل قصص الأولين عبرة للآخرين . وبعد فإن هذا الكتاب الذى أضعه بين يديك ، أيها القارئ الكريم ، يقص عليك أخبار هذه المدينة المقدسة بأسلوب توخيت فيه الإيجاز قدر المستطاع . وقد دعوته « الموجز فى تاريخ القدس » . أما تاريخها المفصل ، وهو الذى دأبت على جمعه وتأليفه منذ عشر سنين ، فسيأتى — إذا ما قدر لى إخراجه للناس — فى أربعة مجلدات . وفى هذا وذاك ذكر لمعظم الحوادث التى قامت فيها ومن أجلها على مر العصور ، من اليوم الذى بناها فيه اليبوسيون (سنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد) إلى يومنا هذا . وما ذكرته فى كتابى هذا مجملا ، أوردته فى كتابى ذلك مفصلا .

هذا وقد ذكرت ، فى الهوامش وفى الصفحات الأخيرة من الكتاب ، المصادر التى استقيت منها الأخبار ، حيث تجد كل حادثة من الحوادث التاريخية مسندة إلى مصدرها ، وكل قول من الأقوال المأثورة منسوباً إلى قائله .

ولقد بذلت فى هذا السبيل ما وسعنى من جهد — وإنه لجهد المقل — فلم أترك باباً إلا طرقته ؛ ولا معبداً إلا ولجته ؛ ولا كلمة منقوشة على الأسوار أو الجدران إلا أنعمت النظر فيها ؛ ولا كتاباً أو مخطوطاً صنف فى تاريخ هذه المدينة وسمعت به ، إلا رجعت إليه أنهل من معينه ؛ ولا طللا من طلولها البالية ، إلا وقفت عليه أستنطق الخبر .

وحاولت جهدى ألا أنهج فى بحوثى مناهج الرواة والمؤرخين الذين اتبعوا أهواءهم السياسية ومعتقداتهم المذهبية ، فحادوا عن محجة الصواب . إذ اكتفوا بذكر ما يرضيهم ، ويرضى عترتهم وعشيرتهم . وأما أنا فقد اعتصمت بالحيدة

ما استطعت إلى ذلك سبيلا . فذكرت جميع الأمم التى استوطنت هذه المدينة ، وما فعلته فيها من خير وشر ، وعنيت عناية خاصة بالإشارة إلى ما تركته هذه الأمم من طابع فيها . ولم أبال إن كان هذا الطابع نافعاً أو ضاراً ، وإن كان مما يرضى هذا الفريق أو يغضب ذاك : « إن يمسسكم قرح فقد مسّ القوم قرح مثله ، وتلك الأيام نداولها بين الناس . »

ومع هذا فإنى لست ممن يدعى العصمة ، ولا أزعم أننى تمكنت من الوصول إلى كبد الحقيقة . وإنما هى خطوة خطوتها على قدر ، وأمنية تركت بقية تحقيقها لمن تولاها بعدى وقدر . . . .

٣١ آب ١٩٥١ عارف العارف

الباب الأول

القدس فى عهودها الغابرة

القدس اليبوسية — القدس فى زمن الفراعنة — القدس وبنو إسرائيل — القدس وآشور — القدس وبابل — القدس فى عهد الفرس — القدس فى عهد اليونان — القدس فى عهد الرومان — القدس البيزنطية

القدس اليبوسية

(٣٠٠٠ ق. م)

اليبوسيون بناة القدس الأولون . وكانت على عهدهم تدعى : (يبوس) . إنهم بطن من بطون العرب الأوائل . نشأوا فى صميم الجزيرة العربية ، وترعرعوا فى أرجائها . ثم نزحوا عنها مع من نزح من القبائل الكنعانية . فاستوطنوا هذه الديار . وأغلب الظن أن ذلك حدث حوالى عام ٣٠٠٠ قبل الميلاد .

من ملوكهم : (ملكيصادق) . وهو أول من اختطها وبناها[١] . وكان قبل ذلك يسكن وقومه فى الكهوف . عرف بالتقوى ، فما غشى امرأة ، ولا أراق دماً ، وما أكل سوى الخبز ، وما شرب سوى الخمر . وكان محباً للسلام . حتى أطلق عليه : (ملك السلام) . ومن هنا جاء اسم المدينة : (سالم) و (شالم)[٢] .

ومن ملوكهم : (سالم اليبوسى) . فقد زاد هذا فى بنيانها . وشيد على الأكمة الجنوبية المعروفة فى يومنا هذا بجبل صهيون برجاً بقصد الدفاع عن المدينة . وراحت هذه بعدئذ تعرف باسمها الكنعانى : (أورو — سالم) أى مدينة السلام .

كان الكنعانيون فى بادئ الأمر رعاة . ولما استقر بهم المقام فى هذه البقعة من الأرض سميت باسمهم (كنعان) . فقد كانوا يومئذ متحدين . وكانوا من المنعة والقوة بحيث تمكنوا من صدّ المصريين ، عندما أراد هؤلاء أن يجتاحوا

---

(١) السير السليم فى يافا والرملة وأورشليم : للآباء الفرنسيسيين ص ٥١

(٢) سفر التكوين . الإصحاح ١٤ العدد ١٨

وما كانوا ليكترثوا لعادات القوم ودياناتهم . لا ، ولا لشؤونهم الاجتماعية الأخرى. وما كانوا ليصدوا أى فريق من السكان عن التحالف مع الفريق الآخر. بل كانوا ينجدونهم فى حروبهم مع أعدائهم . وكثيراً ما تمرد الكنعانيون ، وثاروا على المصريين ، وأبوا أن يدفعوا لهم الجزية . ويظهر أن العبرانيين استغلوا الموقف بعد ذلك ؛ فجاءوا يحاربونهم ، وتمكنوا من احتلال يبوس فى عهد داود (١٠٤٩ ق. م) . كما سنذكر ذلك فى الفصل التالى .

القدس وبنو إسرائيل
(١٠٤٩ ق . م .)

خرج بنو إسرائيل من مصر فى عهد فرعونها رعمسيس الثانى (١٢٥٠ ق م) . فاجتازوا بقيادة زعيمهم موسى صحراء سينا . وقد تاهوا فيها أربعين عاماً . حاولوا فى بادئ الأمر دخول هذه البلاد التى أسموها (أرض الميعاد) من ناحيتها الجنوبية ؛ فوجدوا فيها قوماً جبارين . ولما بدلوا طريقهم ، ووصلوا إلى جبال موآب ، شرقى الأردن ، توفى موسى . فتولى قيادتهم يشوع بن نون . فعبر هذا بهم الأردن (١١٨٩ ق. م) واحتل أريحا . فدكها دكاً . وقتل من وجده فيها ، لا فرق فى ذلك بين رجل وامرأة ، شيخ أو طفل[١] .

وكذلك فعل فى (عاى)[٢] و (الجلجال)[٣] و (شيلوح)[٤] والمدن

(١) سفر يشوع : الإصحاح ٦ عدد ٢١ — ٢٥

(٢) إنها خربة (الحيان) الواقعة على مسافة ميلين إلى الجنوب الشرقى من (بيتين) من أعمال رام الله .

(٣) إنها (تليلة الجلجولة) الواقعة على بعد ميل ونصف من أريحا إلى الشرق . وقيل إنها كانت فى الموضع المعروف فى يومنا هذا بالخان الأحمر بين أريحا والقدس .

(٤) على مسافة ثلاثة أميال من اللبن إلى الجنوب ، وميل واحد من ترمسعيا إلى الشمال الغربى .

الكنعانية الأخرى التى احتلها فى طريقه إلى يبوس . ولكنه لم يتمكن من احتلال يبوس نفسها . إذ كانت هذه محصنة تحصيناً تاماً . وقاومه اليبوسيون .

وحاول بنو إسرائيل ، بعد موت يشوع ، احتلال يبوس . وزحفوا إليها بقيادة (يهوذا) الذى تزعمهم بعد ذلك ؛ فاحتلوها ، وأشعلوا النار فيها . وقتلوا عشرة آلاف رجل من سكانها . إلا أنهم عادوا ، فأخلوها تحت ضغط اليبوسيين . وظل هؤلاء يهزأون بحملات العبرانيين عدة قرون .

ولما مسح داود ملكاً على بنى إسرائيل (١٠٤٩ ق. م .) وكان يومئذ يقيم فى (حبرون) زحف نحو يبوس بجيش قوامه ثلاثون ألف مقاتل ، يقوده ابن أخته (يوآب) . وقاومه اليبوسيون فى بادئ الأمر مقاومة عنيفة ، وصدوه عنها . إلا أنه عند ما أعاد الكرة ، وتمكن من احتلال (تل أوفل) الكائن فى جنوبها ، والمطل على قرية (سلوان)[1] ، أصبحت (عين روجل)[2] بيده . وكانت هذه هى النبع الوحيد الذى يستقى اليبوسيون منه الماء . عندئذ سقطت يبوس بطبيعة الحال (١٠٤٩ ق. م) .

كانت يبوس ، قبل احتلاله لها ، ذات حضارة . وكان فيها منازل متقنة ، حوت الكثير من أسباب الراحة والرفاهية . وكان فيها حكومة وصناعة وتجارة وديانة . فاقتبس العبرانيون[3] هذه الحضارة من يبوس ، ومن المدن الكنعانية الأخرى التى احتلوها . فغادروا الخيام . وسكنوا فى بيوت بنوها كبيوت الكنعانيين . وخلعوا عنهم الجلود التى كانوا يلبسونها ، ولبسوا بدلا منها ثياباً منسوجة بالصوف كثياب الكنعانيين .

---

(١) (سلوان) القرية الملاصقة لسور القدس من الجنوب .

(٢) هى عين الماء المعروفة اليوم بعين أم الدرج .

(٣) (تاريخ العصور القديمة)لبرستد .

ولما احتل داود يبوس ، وكانت كما قدمنا ، أحبها ؛ فاتخذها عاصمة ملكه . ولكنه ترك اسمها الكنعانى (أورو — سالم) وأسماها (مدينة داود) . وقد أحصى سكانها ، فثار عليه قومه . ثاروا بتحريض من ولده أبشالوم . فهرب منها . ثم رجع إليها بعد موت ولده .

وتمكن داود بمساعدة نجله الأكبر سليمان من إحباط مؤامرة ثانية قام بها ابنه الرابع آدونيا . ومن الأسباب التى دعت قومه للثورة أنه أحصاهم . فاعتبروه مسبباً للطاعون الذى أصابهم . فقالوا له : الله الذى خلقنا يعرفنا ، فلماذا أحصيتنا ؟

ويظهر أن داود ندم على عمله . إذ راح الشعب ينفض من حوله بعد عملية الإحصاء هذه . ولكى يرضى شعبه ، أبدى رغبته فى بناء هيكل ليكفر عن ذنبه . فابتاع من إرنان اليبوسى أرضه الواقعة على تل موريا[1] وكانت قبل ذلك بيدراً . ابتاعها بخمسين شاقلا من الفضة . وشرع فى بناء الهيكل . ولكنه مات (١٠١٥ ق. م) قبل أن تتحقق أمنيته .

ولما مات داود مسح ابنه سليمان ملكاً . وقيل أن مسحه جرى على مقربة من ماملا . ولقد اتسعت القدس فى عهده وازدهرت . فبنى فيها الدور والقصور . وأتم عمل أبيه ، فبنى الهيكل (١٠٠٧ ق. م) . واتسع ملكه من الفرات إلى تخوم مصر . وعقد معاهدات مع جيرانه . ورأى أن يكون على وفاق مع فرعون مصر ، ليأمن شره . فصاهره وتزوج ابنته . ومن آثاره البناء الكائن تحت المسجد الأقصى ، وبرك سليمان الواقعة إلى الجنوب من بيت لحم .

وفى أواخر حكمه مال إلى عبادة الأوثان . وبنى بيتاً لها على الجبل الكائن أمام الهيكل من الشرق . ويعزو بنو إسرائيل خراب ملكه بعد موته ، إلى عمله هذا .

---

(١) البقعة التى يقوم عليها الآن الحرم القدسى .

بعد موت سليمان (٩٧٥ ق . م) تولى الملك ابنه رحبعام[1] . واقتتل هذا مع أخيه يربعام[2] فانقسمت المملكة إلى شطرين : (يهوذا) وعاصمتها أورشليم . و (إسرائيل) وعاصمتها (شكيم)[3]. وراح كل منهما يفرض الضرائب على شعبه ليتغلب على خصمه . ومنع يربعام قومه من زيارة أورشليم .

استغل شيشاق فرعون مصر هذه الفرصة ، فزحف على أورشليم ، واحتلها (٩٧٠ ق. م) . وبعد أن نهب خزائنها ، رجع إلى مصر .

وقصارى القول أن أيام رحبعام كانت كلها حروباً : حرب خارجية مع مصر ، وأخرى داخلية مع أخيه يربعام .

وظلت أورشليم بعد ذلك أربعة قرون ، يحكمها اليهود . فلم تسلم أبداً ، خلال تلك القرون ، من ثورة أو مؤامرة أو شغب أو قتال .

ومن ملوكها : أبيا بن رحبعام (٩٥٨ ق. م) . آسا (٩٥٥) . يهوشافاط (٩١٤) . يهورام (٨٩٢) . آحازيا (٨٨٥) . يهوشع (٨٦٠) . أمصيا (٨٣٩) . عزيا (٧٨٠) . يوثام (٧٥٨) . آحاز (٧٤٢) .

ثم جاء حزقيا (٧٢٦ ق. م) وعلى عهده غزا الأشوريون أورشليم . وقد حصنها ، وجر الماء إليها . ومن بعده جاء ولده منسه (٦٩٨) . آمون (٦٤٣) . يوشيا (٦٤١) وقد قتل هذا من لدن نيخو فرعون مصر .

وكذلك قل عن ولده يوآحاز (٦١٠) الذى كتفه نيخو ، وغرمه ، وأقام مكانه أخاه يهوياقيم ملكاً . ثم ولده يهوياكين (٥٩٩) . وعلى عهده غزا البابليون أورشليم . فافتتحها نبوخذ نصر . وسبى جميع من فيها وأرسلهم إلى بابل .

---

(١) ابن سليمان من امرأته العمونية .

(٢) ابن سليمان من امرأته المصرية .

(٣) نابلس .

حتى الملك نفسه ، فقد أرسله إلى بابل .

أقام نبوخذ نصر على كرسى الملك عمه صدقيا (٥٩٠) . فخضع له هذا فى بادئ الأمر . ثم حاول أن يتملص من سلطته ، فحصن السور ، وبنى الأبراج . إلا أنه فشل . فأسره نبوخذ نصر . وبعد أن فقأ بصره ، أرسله وقومه إلى بابل . وهكذا انقرضت مملكة يهوذا (٥٨٦ ق. م) .

ولما تبوأ كورش عرش الفرس (٥٣٨ ق. م) أذن لمن شاء منهم أن يعود إلى أورشليم . وسمح لهم بتجديد الهيكل ، وبناء المدينة . ولكنه عاد فاسترد أمره ، تحت ضغط العمونيين والأشدوديين والعرب ، ومنعهم من تجديد بناء السور . إذ هدد هؤلاء الملك بالعصيان وقطع العلاقات الودية مع فارس ، إذا هو لم يمتثل لنصائحهم ، ولم يمنع اليهود عن عملهم ، واصفين أورشليم بالعاصية ، قائلين إن اليهود إذا حصنوا المدينة وسكنوها لا يؤدون جزية ولا خراجاً . ولم يتمكن اليهود من بناء السور إلا فى عهد دارا (٤٤٥ ق. م) . وما كان ذلك ليتم لولا حراب الفرس .

ومع ذلك فلم يتمكن اليهود بعد ذلك التاريخ من استعادة كيانهم السياسى . بل راحوا يعيشون كطائفة دينية يرأسها كاهن . وظلوا كذلك زمناً طويلا . إلى أن ظهر المكابيون ، فاستولوا على أورشليم (١٦٧ ق. م) . وقد ظهر منهم خمسة رؤساء هم : متاتياس (١٦٧ ق. م) . يهوذا بن متاتياس (١٦٦) . يوناتان أخو يهوذا (١٦٠) . سيمون أخو يهوذا (١٤٣) . جون هركانس الأول (١٣٤) . وسبعة ملوك هم : أرسطوبولس الأول بن هركانس الأول (١٠٥ ق . م) . الكسندر أخو أرسطوبولس(١٠٤) . الكسندرا امرأته (٧٧) . هركانس الثانى بن الكسندر (٦٩) . أرسطوبولس الثانى بن الكسندر (٦٧) . هركانس الثانى للمرة الثانية (٦٢) . أنتيكانس بن أرسطوبولس الثانى (٣٧ ق. م) .

ومن الحوادث الجديرة بالذكر فى عهد المكابيين أن النقد المعروف بالشاقل ضرب فى أيام سيمون . وأن القلعة الواقعة فى الزاوية الشمالية الغربية من منطقة الهيكل بنيت فى عهد جون هركانس الأول ، وكانت يومئذ تدعى بارس[١] .

وكان عهد المكابيين مليئاً بالمشاغبات الداخلية . حتى إن أرسطو بولس الأول بن هركانس سجن أمه ، وأماتها جوعاً[٢] . ثم قتل أخاه أنتيكانس خشية أن ينازعه الملك . وذاقت أورشليم على عهد أخيه الكسندر مرارة الفوضى والحروب الأهلية . وتنازع الأخوان أرسطوبولس الثانى وهركانس الثانى ، فراح كل منهما ينشد مساعدة دولة من الدول المجاورة لهما . أما هركانوس فراح يستنجد ملك العرب أريطاس (الحارث) . وأما أرسطوبولس فقد استمد القوة من روما . فكثرت الأحزاب ، وساد الفساد بين اليهود . وراح جم غفير منهم يطلبون من بومبى إمبراطور الرومان أن يريحهم من شر الاثنين ، بل من جشع الحزبين المتنافسين : الفريسيين والصدوقيين . فاهتبل بومبى هذه الفرصة ؛ وجاء ، فقضى على استقلالهم (٦٣ ق. م) . وبعمله هذا قضى على حرية الشعب اليهودى قضاء تاماً . وراح اليهود بعد ذلك يعيشون فى ظل الشعوب والأمم الأخرى .

---

(١) هو البناء الذى وسعه هيرودس بعدئذ ، وأسماه (برج أنطونيا) . والمعتقد أنه كان يقوم فى المكان الذى تقوم عليه (مدرسة الروضة) فى يومنا هذا ، إلى الشمال الغربى من سور الحرم .

(٢) "Jerusalem" by Lionel Cust p. 79

القدس وآشور

(٧٣٠ ق. م)

غزا الأشوريون أورشليم بقيادة ملكهم شلمنصر (٧٣٠ ق. م) . فسبي هذا سكانها ، وظل يحاربهم حتى سنة (٧٢١ ق. م) . غير أنه لم يتمكن من تثبيت أقدامه فيها زمناً طويلا ، فارتد عنها . وظلت هي والقسم الجنوبي من فلسطين راضخة لسلطان الفراعنة . ولم تدخل أورشليم في حكم الأشوريين إلا على عهد سنحريب . إذ أرسل إليها هذا قائده المشهور ربشاقي[١] فحاصرها (٧١٣ ق. م) . وراح يدك أسوارها ، ويضيق الخناق على سكانها . وقد نصب مخيمه في موضع إلى الشرق من بركة ماملا . ولم يقعد بنو إسرائيل عن دفع الأذى عنهم . فاتبعوا نصيحة ملكهم حزقيا الذى أمر بتحصين السور . وحفر نفقاً طوله ١٧٠٠ قدم بين عين أم الدرج في سلوان وداخل المدينة . كما أسال الماء من بركة ماملا إلى بركة سميت باسمه فيما بعد (بركة حزقيا) . وهي التي نسميها اليوم (بركة حمام البطرك) في حارة النصارى .

ولكن لا هذه المشروعات التي قام بها حزقيا ،ولا أسوار أورشليم ، حتى ولا الخطب التي ألقاها أشعيا النبي من أجل تحميس الجماهير وتحريضهم على القتال . . . كان كافياً لإنقاذ أورشليم من الأشوريين الذين جاءوا بجيش لجب يبغون احتلالها . لولا الطاعون الذى ألمّ بهم في ذلك الحين ، حتى كاد يقضي عليهم . فرجعوا إلى بلادهم .

(١) وفي رواية أخرى ربساكس .

ثم عادوا ، بعد حين ، فاحتلوها . واعتقلوا ملكها منسه . وأرسلوه إلى بابل مصفداً بالأغلال (٦٧٨ ق. م) . ولكنهم عادوا ، فأطلقوا سراحه . ورجع إلى أورشليم . فبنى سورها الثانى (٦٤٤ ق. م) .

وبعد قليل دب الفساد فى صفوف الأشوريين ، فضعفوا . وتخلوا عن هذه البلاد إلى البابليين .

فاق الأشوريون البابليين والمصريين من حيث التنظيم الإدارى . ولكنهم لم يعنوا بالشؤون الصناعية والتجارية . وكان جل اهتمامهم منصرفاً إلى سلب البلاد . فجمعوا ما فيها من ذهب وفضة . وكانت هذه المدينة على عهدهم تدعى : يورو — سالم ، أى مدينة الرب سالم . وفى بعض الآثار الأشورية ذكرت بهذا الاسم : أور — سا — لى — امو . وهذا متحدر عن اسمها باللغة الآرامية .

القدس وبابل

(٥٩٩ ق . م)

عندما تقلص ظل الأشوريين عن أورشليم ، راح البابليون من جهة ، والمصريون من الجهـــة الأخرى ، يتنازعون السيادة . وكان على سكان أورشليم ومملكة يهوذا أن يختاروا أحد الفريقين . وكان على رأس الحكم فيها يهوياقيم[١] . فخضع هذا لنبوخذ نصر ، وسلمه المدينة (٥٩٩ ق. م) ، وعاش عبداً له[٢] .

---

(١) (النهج القويم فى التاريخ القديم) لهارڤى بورتر أستاذ التاريخ فى الكلية الإنجيلية . طبع فى بيروت سنة ١٨٨٤ م .

(٢) سفر الملوك الثانى : ٢٤ — ١

بعد ثلاث سنين ، عاد فتمرد عليه . فأقاله نبوخذ نصر ، وأقام مقامه ابنه يهوياكين (٥٩٧) . ثم عاد فأقال هذا أيضاً بعد ثلاثة أشهر ؛ فنفاه مع عدد من عظماء قومه إلى بابل ، وأقام مقامه صدقيا .

تعاون صدقيا بادئ ذى بدء مع البابليين . ثم عاد ، فانتقض عليهم . عندئذ ساق نبوخذ نصر عليه قائده نبوزردان(١) . وجاء هو من ورائه فحاصر أورشليم (٥٨٧ ق. م) . وذاقت المدينة فى هذا الحصار الأمرين : جوعاً ومرضاً . إلى أن اختار اليهود جانب الهرب . فثلموا السور ، وهربوا . وكان صدقيا على رأس الهاربين . فلحق بهم الكلدانيون . وأتوا بهم إلى ملكهم نبوخذ نصر . ففقأ هذا عين صدقيا ، وأرسله إلى بابل .

بعدئذ نهب نبوخذنصر أورشليم ، ودك سورها ، ودمر الهيكل الذى بناه سليمان ، وأجلى شعبها إلى بابل . فقتل منهم من قتل ، واستعبد من لم يقتل. وهكذا انقرضت مملكة يهوذا (٥٨٦ ق. م) وراحت كلمة بابل هى العليا فى أورشليم . وكان البابليون يسمونها : أورو — سالم . وأصبحت هذه البلاد كلها ، من أدناها إلى أقصاها ، مستعمرة بابلية ، تدفع الضرائب لبابل ، وتتكاتب معها . وانتشرت اللغة البابلية . وظلت هذه لغة البلاد الرسمية حتى الفتح الفارسى . وأما اللغة التى كانت دارجة بين السكان ، فقد كانت الكنعانية .

---

(١) (تاريخ الأمم والملوك) للطبرى ج ١ ص ٣٨٢ .

القدس فى عهد الفرس

(٥٣٨ ق. م)

بعد أن تغلب كورش ملك الفرس على البابليين (٥٣٩ ق. م) ، سار فى فتوحاته قدماً حتى احتل سوريا . ثم جاء إلى أورو ــ سالم ، فاحتلها (٥٣٨) . والقائد الذى احتلها باسم الفرس هو : غوبرياس .

تنفس اليهود الصعداء فى عهد كورش . ذلك لأنه تزوج من يهودية(١) ، هى إستير أخت زربابيل بن شلائيل بن يهوياكين بن يهوياقيم ملك اليهود الذى ذكرناه فى موضع آخر من هذا الكتاب . وطلبت منه امرأته أن يأذن لقومها الذين نفاهم نبوخذ نصر إلى بابل بالعودة إلى أورو ــ سالم . فأذن لهم (٥٣٨ ق. م) . فعاد إليها فريق منهم . وآثر الآخرون البقاء حيث كانوا .

بعد كورش اعتلى عرش الفرس أرتحشستا (٥٢٢ ق. م) فأراد هذا أن يحول دون رغبات اليهود . ذلك لأن العرب والأمم المجاورة لهم فى ذلك الحين كالحوريين والعمونيين اعترضوا على ذلك . وهددوا أرتحشستا بالعصيان . فأصدر أمره بوقف حركة البناء التى أقاموها فى الهيكل . ولكن دارا ، خال كورش ، الذى خلف أرتحشستا فى الملك ، أتاح لهم ذلك (٥١٩ ق. م) . فبنوا السور ، وأتموا بناء الهيكل الثانى (٥١٥ ق. م) . وفى عهد أرتاكسركس الأول (٤٦٥ ق. م) عين نحاميا حاكماً على أورو ــ سالم (٤٤٥ ق. م) . وكان هذا من أنصار الفرس . فمنحه الملك سلطة واسعة . وسمح له أن يبنى ما تهدم من السور .

---

(١) (تاريخ مختصر الدول) لابن العبرى ص ٨١ .

ظلت أورو – سالم تابعة لملوك الفرس؛ تدفع لهم الضرائب والعوائد، وتسهل لهم سبل العبور إلى مصر حتى احتلها الفاتح المقدونى الكبير الإسكندر (٣٣٢ ق. م)(١).

كان الفرس، فى عهد كورش، متقشفين: يعيشون على الخبز والماء، وعلى شيء من البقول. وكانوا جهلاء: يتزوج الأخ أخته، والأب بنته، والابن أمه. ولكنهم كانوا فى الوقت نفسه أقوياء: لهم جيش منظم. وكان ملوكهم مطلقى الإرادة. وفى عهد دارا قيدا الملك بمجلس مهمته إسداء المشورة، وموظف لقبه (حامل التاج) ومهمته إيقاظ الملك فى كل صباح.

كانت لهم فى بادئ الأمر نقود مسكوكة من معدن الألكتروم. ولما توسعوا على عهد دارا، وأصبحوا سادة مناجم الذهب فى الهند شرعوا يضربون نقودهم من معدنى الذهب والفضة. كانوا فى بادئ الأمر أقوياء. غير أنهم عندما فتحوا الأمصار، واختلطوا بالقبائل الغريبة عنهم ارتخت عزائمهم، وتغيرت طبائعهم، وجنحوا إلى حب الملاهى ورغد العيش(٢).

(١) (مختصر التواريخ القديمة) للقس بولس رحمانى ص ١٦٩.

(٢) يحسن بك، أيها القارئ الكريم، أن تقرأ بعد هذا الفصل، ما كتبناه عن غزو الفرس للقدس فى عهد كسرى الثانى (٦١٤ بعد الميلاد).

القدس فى عهد اليونان

(٣٣٢ ق. م)

احتل الفاتح المقدونى الكبير إسكندر[١] يروشاليم عام ٣٣٢ قبل الميلاد ، وكان رجال الفرس من حاميتها قد انسحبوا منها . فدخلها دون أن يسفك دماً من أجلها . واستقبله سكانها بالرضا والارتياح . ذلك لأنهم كانوا قد سئموا الفوضى من جراء اختلافاتهم الداخلية .

عندما زحف الإسكندر صوب المدينة كان معه أربعون طبلخانة[٢] . ويقدر بعض المؤرخين هذه القوة بأربعين ألفاً . وكان ينوى تدميرها . إلا أن اليهود هرعوا لاستقباله فى ظاهر المدينة ، يتقدمهم الشيوخ والكهنة ، لابسين حللا بيضاء ، وراحوا يتضرعون إليه ، طالبين العفو . وأراه الكاهن الأكبر سفر دانيال ، وقد جاء فيه أن أحد ملوك اليونان سيتغلب على الفرس ، وسيقوض عرش الأكاسرة . . . فسكت ولم يبطش بهم . لا ، بل أقر عاداتهم التى ورثوها عن آبائهم ، وأمرهم أن ينخرطوا فى جيشه ، وأعفاهم من دفع

(١) إنه إسكندر الثالث بن فيليب الثانى ملك مقدونيا وأولمبيا . ولد عام ٣٥٦ ق م . وتعلم على يد الفيلسوف اليونانى الشهير أريسطوطاليس . إنه (ذو القرنين) الذى ورد ذكره فى القرآن الكريم : « ويسألونك عن ذى القرنين ، قل سأتلو عليكم منه ذكراً . إنا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شىء سبباً » . سورة الكهف الآية ٨٣ .

(٢) (بيت الطبل) ويشتمل على طبول متعددة معها أبواق وزمارات . وتكون معه فى الأسفار والحروب .

الجزية ، وأتاح لهم أن يسكنوا نقوداً . وكانت القدس على عهده تدعى : يروشاليم . ثم راحت تدعى : هيروسليما .

ولما مات الإسكندر (٣٢٣ ق. م) اقتسم قواده الملك : فأخذ (سلوقس) سورية ، وأسس فيها دولة السلوقيين . وأخذ (بطليموس) مصر وأسس فيها دولة البطالسة . وكانت هيروسليما من نصيب البطالسة .

حكم بطليموس اليهود رغم أنوفهم . وأرادوا مقاومته ، إلا أنهم لم يفلحوا . إذ ساق عليهم جيشه ، ففتح هيروسليما ، ودك قسما من حصونها . وبطش بسكانها . فأرسل منهم مئة ألف أسير إلى مصر (٣٢٠ ق. م) .

واستخدم بطليموس يهودياً يدعى (يوسف بن طوبياس) مديراً للمال ورئيساً للجباة . فجمع هذا الضرائب بالقوة ، وذاق الناس على يده مرّ العيش .

انتقلت هيروسليما من حكم البطالسة إلى حكم السلوقيين عند ما احتلها أنطيوخس ابيفانس (١٦٨ ق. م) . وقد هدم هذا أسوارها ، ودك حصونها ، ونهب هيكلها فنصب فوقه التماثيل ، وقتل من اليهود ثمانين ألفاً فى ثلاثة أيام ، وحظر عليهم الختان ، وأرغمهم على انتهاك حرمة السبت ، وأكل الخنزير . وكان دليله فى معظم فعاله منلاوس رئيس أحبار اليهود الذى خان قومه من أجل الوصول إلى منصبه . ولم يتمكن اليهود من مقاومته فى بادئ الأمر ، إذ كانت حامية المدينة مؤلفة من عشرين ألف جندى سلوقى .

بعد وفاة أنطيوخس الرابع تولى الملك ولده أنطيوخس الخامس (١٦٤) . ولما كان هذا صغيراً ، تولاه ليسياس الوصى على العرش (١٦٢) . وتآمر هذا مع سكان يافا على اليهود . فأغرق عدداً كبيراً منهم فى البحر ، وثار اليهود عليه . فساق عليهم جيشاً لجباً ، وحاصر هيروسليما . ولكنه ارتد عنها بسبب الثورة التى نشبت فى سوريا والتى انتهت بانتصار خصمه ديمتريوس الأول الملقب بـ (سوتير) .

أقام ديمتريوس على رأس الإدارة فى هيروسليما : (بكيديس) . وقلد (الكيمس)(١) رئاسة الأحبار . ووضع تحت تصرف الاثنين جيشاً كبيراً ليحكما به البلاد . وقامت بين الفريقين حروب ، سالت فيها دماء غزيرة .

وخلف بكيديس فى الإدارة : (نكانور) . وقامت على عهد هذا أيضاً ، حرب جديدة بين اليونانيين والمكابيين . وقتل نكانور . فأرسل ديمتريوس إلى هيروسليما الوالى السابق بكيديس ورئيس الأحبار الكيمس . فجاءا على رأس جيش كبير . وتجددت الحروب . وقتل يهوذا المكابى (١٦٠ ق م) . وألقى القبض على عدد من أبناء الزعماء وأرسلوا إلى رومة . فهدأت الثورة .

وقام بعدئذ خلاف شديد بين الحكام اليونانيين : ديمتريوس ومنافسه الإسكندر بن أنطيوخس أبيفانس . فاستغل المكابيون هذا الخلاف والتنافس ، وراحوا يبحثون عن الوسائل التى تضمن لهم النصر . أما الإسكندر فقد اعترف بيوناثان الذى قاد المكابيين بعد مقتل أخيه يهوذا ، رئيساً للأحبار . وأما ديمتريوس فقد وعد سكان هيروسليما بأن يعفيهم من الجزية ، ومن بعض الضرائب والمكوس. كما وعدهم بأن تكون مدينتهم مقدسة وحرة ، وأن يطلق سراح المعتقلين ، وأن يعفو عن المجرمين .

ولئن كانت كفة الإسكندر هى الراجحة ؛ إذ انتصر على خصمه ديمتريوس (١٥٠ ق م) ، إلا أن المكابيين كانوا فى الحقيقة هم الناجحون . إذ أنهم استغلوا ذلك التنافس ، فاستقلوا . ولكن استقلالهم لم يدم طويلا . إذ اختلفوا فيما بينهم ؛ وقامت حروب أهلية ، جعلت كل واحد من الأخوين (هركانس وأرسطوبولس) يستنجد بدولة من الدول المجاورة لهم. الأمر الذى فصلناه

---

(١) يهودي من بنى هرون الذين لا يستحقون الرئاسة . كان اسمه (يواقيم) فاستبدله بالكيمس تشبهاً باليونان . وهو الذى حرض الملك ضد المكابيين . وكان السبب فيما جرى بعدئذ من حروب .

فى موضع آخر من هذا الكتاب . فاهتبل بومبى هذه الفرصة وجاء إلى هيروسليما فاحتلها (٦٣ ق. م) .

قبل أن نختم هذا الفصل نرى لزاماً علينا أن نقول كلمة عن الطابع الذى تركه احتلال اليونان فى هذه البلاد :

(ا) انتشر العنصر اليونانى فى البلاد بكثرة ، وامتزج اليونانيون بسكان البلاد الأصليين ، وناسبوهم .

(ب) انتشرت اللغة اليونانية ، حتى أصبحت لغة البلاد الرسمية ، ولغة العلم والمدارس. وأما اللغة التى كانت يومئذ دارجة بين الناس فهى الآرامية .

(ج) اقتبس سكان البلاد الأصليون الصناعات اليونانية ، ولا سيما صناعة الفسيفساء .

(د) انتشرت الحضارة اليونانية . وقد أسس اليونان المدارس . وعن هذه الطريقة نشروا آدابهم وتقاليدهم ومعتقداتهم الدينية .

(هـ) انتشرت النقود اليونانية[1] . وكانت على عهد الإسكندر بديعة السلك والنقش .

(و) انتشرت التجارة اليونانية . واقتبس سكان البلاد عن اليونانيين كثيراً من معاملات الصرافة .

---

(١) (مجلة الآثار) للأستاذ عيسى إسكندر المعلوف ٥ — ٩ ص ٤٦٢ .

القدس فى عهد الرومان

(٦٣ ق. م)

قلنا فى آخر الفصل الذى سبق إن المكابيين الذين سيطروا على مقدرات هيروسليما زمناً عادوا فتضعضعوا . وإن بعضهم راح يدس الدسائس للبعض الآخر . وإن أرسطوبولس المكابى أخذ التاج عنوة (٧٠ ق. م) من أخيه هركانس الثانى . وأنه قامت بين الأخوين حرب أهلية كان من نتائجها أن تدخلت روما فى الأمر. فجاء بومبى ، واحتل هيروسليما (٦٣ ق. م) .

حاصر بومبى هيروساليما ، قبل فتحها ، ثلاثة شهور.

قال يوسيفوس إنه كان هناك ، بين حارة صهيون ومنطقة الهيكل ، جسر هدمه بومبى . وظل يضرب المدينة بالمنجنيقات حتى أحدث ثقوباً فى أسوارها . وهكذا تمكن من احتلالها واستباح حمى الهيكل . وقتل من السكان خلقاً كثيراً . كانت تسمى عند الفتح هيروسليما . ثم راحوا يسمونها هيروساليما .

أقام بومبى حاكماً على المدينة اسمه (أسكورس) . استقبله اليهود بادئ ذى بدء بالترحاب ، إذ أنقذهم من الفوضى. ولكنهم عادوا ،فانقلبوا عليه . فألغى مجمعهم . وهدم السور . وفرض عليهم أن يقدموا فى كل يوم ذبيحة أمام الهيكل ، تكريماً لقيصر ولروما . ففعل اليهود ذلك مكرهين . ونكل بهم الوالى الرومانى شر تنكيل .

وعلى عهد يوليوس قيصر (٤٩ ق. م) تنفس اليهود الصعداء . إذ ولى عليهم (أنتيباتر) الآدومى (٤٦ ق. م) ، وأقام من تحته هركانوس الحشمونى حاكماً عليهم . ولما مات أنتيباتر تسلم زمام الإدارة ابنه فصايل ، وراح بعد

ذلك الآدوميون من ناحية يقودهم فصايل ، والحشمونيون من الناحية الأخرى يقودهم هركانس ، يقتتلون فى شوارع المدينة . وكان النصر سجالا بينهم .

وتمكن هيرودس بعد قليل (٣٧ ق م) من إقناع روما بأنه مخلص لها . فنصبته ملكاً على اليهود . إنه آدومى الأصل . اعتنق الديانة اليهودية ثم خرج على المكابيين انتقاماً لأبيه الذى قتله هؤلاء . وأمده أنطونيوس بالجند . فقضى على المكابيين . وقتل آخر ملوكهم (أنتيكانوس بن أرسطوبولس الثانى) . وراح يدير هيروساليما باسم روما .

إنه رجل حرب وكفاح . وهو ظالم . يستسيغ كل شىء فى سبيل الوصول إلى غاياته ؛ حتى إنه قتل امرأته وثلاثة من أولاده(١) .

ورغم أنه رمم الهيكل (١٨ ق م) إلا أن اليهود كرهوه . إذ أنه استأصل شأفة المكابيين وكانوا يعتبرونه أجنبياً . حاول أن يوفق بين اليهود والرومان . ولما فشل فى مهمته شايع الرومان ضد قومه . وساعدهم على توطيد أقدامهم فى البلاد . وكان يُضحك قومه اليهود تارة ، وطوراً يبكيهم . ولقد أصاب المدينة على عهده قحط شديد . فجاع الناس . وحاول تخفيف وطأة المجاعة بالحبوب وزعها على السكان ، وبالأموال أنفقها على المشروعات العمرانية قاصداً تشغيل العمال . إنه هو الذى أجرى الماء فى القناة الكائنة بين برك سليمان وهيروساليما (٣٠ ق م) . وهو الذى بنى القلعة الكائنة بباب الخليل . وكان له على مقربة منها قصر كبير . وقد شاد الحصن المعروف بـ (أنطونيا) . كما شاد عدداً آخر من الحصون والأبراج والهياكل والتماثيل . وسكت على عهده نقود . وفى آخر سنة من سنى حكمه ولد السيد المسيح فى بيت لحم . وكان قد أمر بقتل كل طفل يولد فى بيت لحم . ولهـذا هربت به أمه إلى مصر ، خشية أن يبطش به ذلك الملك العنيد الجبار . وفى السنة التى تلتها مات هيرودس بعد

(١) (تاريخ سورية) للمطران يوسف الدبس . ج ٢ ص ٢٩٦ .

أن عاش فى دست الحكم أربعين عاماً .

ولما مات هيرودس (٤ ق م) عهد الرومان بالحكم لولده (أرشيلاوس) . وعجز هذا عن إدارة البلاد فقامت فيها قلاقل وثورات . وطغى كثيرون من رؤساء الأحزاب ، فنادوا بأنفسهم ملوكاً . واستنجد الوالى بحاكم سوريا فاروس وبالحارث ملك العرب . فأنجده كل منهما بعشرين ألف فارس . فأخمدت الثورة ، وأخذ الرومان من اليهود ألف أسير ، فقتلوهم ؛ وذاق اليهود الذل مرة أخرى . فطلبوا من روما جعل بلادهم إقليماً رومانياً . وكان لهم ما أرادوا . إذ جاء الرومان واحتلوا البلاد من جديد . ولكنهم فى هذه المرة اتخذوا (قيسارية) عاصمة بدلا من هيروساليما . وقد تم ذلك على عهد أغسطس قيصر .

راح الولاة الرومانيون بعدئذ يتعاقبون على كراسى الحكم . وإنا لذاكرون منهم : كوبونيوس (٦ — ٩ م) ماريوس أمبيفيوس (٩ — ١٢ م) إينوس روفوس (١٢ — ١٤ م) فالريوس غراتوس (١٤ - ٢٦ م) بيلاتوس بونتيوس (٢٦ — ٣٦ م) وعلى عهده صلب السيد المسيح . وكان على عرش روما يومئذ الملك طيباريوس قلوديوس .

كانت العلائق متوترة بين الرومان واليهود إلى درجة أن هؤلاء استقبلوا الوالى الرومانى بيلاتوس بوجوم . ووقعت فى هيروساليما ، بعد ذلك ، حوادث كثيرة . منها أن الكهنة رفضوا الدعوة التى وجهها إليهم بيلاتوس . ووصف هذا اليهود بقوله[١] : إنهم يضحون بكل غال ورخيص فى سبيل مصلحتهم . ووصف هيروساليما بأنها « عش الدسائس والفتن ». . .

كانت هذه يومئذ ذات شوارع ضيقة ، وطرق مرصوفة رصفاً سيئاً . موارد المياه والمجارى فيها رديئة . والأمراض منتشرة انتشاراً فظيعاً . وكان الهيكل

---

(١) رسائل بيلاتوس ص ٥١ — ٦١ .

الذى عمره هيرودس قائماً . وحول هذا الهيكل سور . وكان الرومان يحرمون على جنـــدهم أن يتخطوا السور . وكانت الحامية الرومانية فى المدينـــة ضعيفة بحيث كان بيلاتوس يضطر لاستنجاد زميله فى سوريا كلما حدثت فتنة .

ولقد أنشأ بيلاتوس طريقين ، طريقاً تربط هيروساليا بالشمال والساحل . وأخرى تربطها بأريحا وغور الأردن . وكانت أريحا يومئذ ذات أهمية تجارية . وكان أعظم عمل قام به أنه بنى قناة الماء الممتدة من برك سليمان إلى المدينة ، وأجرى فيها الماء . وكان سكانها الذين بلغ عددهم يومئذ خمسين ألفاً يقاسون ، قبل ذلك ، مر العيش. ولم يكن لهم فى المدينة سوى بضع آبار . ورفض اليهود . رغم ما كانوا يقاسونه من عذاب وعطش ، أن ينفقوا فلساً واحداً من خزائن الهيكل على مشروع الماء . وثاروا . إلا أن بيلاتوس أخمد ثورتهم ، ونهب خزائنهم ، وعمر القناة رغم أنوفهم .

تولى إدارة المدينة بعدذلك الوالى الرومانى مرشلوس (٣٧ م) وهيرودس أغريبا (٣٧ — ٤٤) حفيد هيرودس الكبير . وعلى عهده أنشئ حى (بيزيتا) المكون من الأحياء المعروفة فى يومنا هذا بباب حطة والسعدية وباب العمود . وشرع فى بناء السور الثالث . ووقعت بينه وبين الحارث ملك العرب حرب بسبب امرأته (بنت الحارث) غُلب فيها على أمره . فغضبت روما عليه ، ونفته . وفى عام ٤٤ بعد الميلاد حكم المدينة وال رومانى اسمه كسبيوس فادوس. وعلى عهده حدثت قلاقل فى البلاد . فاضطرب حبل الأمن ، وانتشرت الفوضى ، وعم الجوع ، وساد القلق . وحدثت وقائع بين اليهود وبين خصومهم العرب والآدوميين . فانتصر الوالى للعرب عند ما أيقن أنهم على حق . وأراح البلاد من المشاغبين .

ولكن يظهر أن اليهود رفعوا شكواهم إلى روما . فأقالته ، أو استقال . فخلفه في الإدارة طيباريوس إسكندر (٤٦ م) . وهو من اليهود المرتدين وكان أول عمل قام به أن قتل اثنين من زعماء اليهود ، لأنهما حرضا قومهما على الثورة .

وفي زمن خلفه فنتديوس قومانوس (٤٨ م) ثارت في هيروساليما فتنة بسبب كلمات فاه بها أحد الجنود الرومانيين ، فعدها اليهود احتقاراً . حاول قومانوس إقناع اليهود أنه لم يكن المسبب لذلك ، ونصحهم بالإخلاد للسكينة . ولما لم ينصاعوا لأمره أمر الجند أن يكونوا على أهبة الاستعداد ؛ فظن اليهود أن الجند سيهاجمونهم . فهربوا . وداس بعضهم على بعض في شوارع المدينة الضيقة ، فمات منهم كثيرون .

بعد قومانوس تولى الإدارة قلوديوس فيلكس . ووجد هذا الفوضى ضاربة أطنابها في هيروساليما ، وفيما حولها من البلدان . وكان فيها عدد غير قليل من الزعماء الطامعين : ديدنهم النهب والسلب وقطع الطرق . فساق عليهم جنده ، وشتتهم ، وقتل منهم زهاء أربعمئة شخص . وعلى عهده قامت خصومات بين الشعب اليهودى وبين كبار حاخاميهم . ووصل هؤلاء الحاخامون إلى درجة من الطمع والنفوذ نهبوا فيها البيادر ، وجمعوا الأعشار لأنفسهم ؛ حتى إنهم لم يبالوا بالفلاحين والفقراء : سواء أماتوا جوعاً أم بقوا على قيد الحياة .

بعد فيلكس تولى الإدارة فستوس (٦٠ م) . وكان هذا حازماً . فتمكن من السيطرة على اليهود والثائرين . ومن التدابير التي اتخذها أنه نصح نيرون الملك ، أن يعتقل رئيس الكهنة وخازن الهيكل وعدداً من الكهنة أنفسهم . فعمل الملك بنصحه . وأرسلهم إلى روما . وهناك احتفظ بهم رهينة . فهدأت الفتن . ولم يقم اليهود بأي نوع من أنواع الشغب طيلة وجود فستوس على رأس الحكم . ولكن حكمه لم يدم طويلا . إذ مات بعد عام (٦١ م) .

ولقد ثارت الفتن من جديد على عهد خلفه البينوس . وكان من سوء حظه — على حد قول المؤرخ بالمر — أنه صادق الحاخام الأكبر حنان . فاختطف اليهود الفوضويون ابنه (أى ابن الحاخام حنان) العازر . فوافق البينوس على إطلاق سراح عشرة من الإرهابيين المعتقلين لديه كفدية لخلاصه . وتكررت حوادث الخطف وإطلاق سراح المعتقلين . وكان أن تم يومئذ (٦٤ م) ترميم الهيكل . فوجد ثمانية عشر ألفاً من العمال أنفسهم من غير عمل . فانضم هؤلاء إلى المساجين الذين أطلق سراحهم . فامتلأت شوارع المدينة بالعمال العاطلين والعصابات المسلحة وأتباع الحاخامين المعزولين . واستخدم البينوس العدد الكبير من هؤلاء العمال العاطلين فى رصف شوارع المدينة بالحجارة ، على أمل أن يرضيهم ويلهيهم ، إلا أن الفوضى ظلت منتشرة . عندئذ غضب البينوس . فأنزل فى اليهود جميع أنواع العقاب . فساد القلق وانتشر الخوف وعمت البلوى. وكانت النتيجة أن وصف المؤرخ اليهودى المشهور يوسيفوس عمل البينوس بقوله « إنه ليس ثمة نوع من أنواع الذنوب والآثام إلا كان له دخل فيه . . . »

بعد البينوس تولى الإدارة جيسيوس فلورس (٦٥م) . وعلى عهد هذا أيضاً حدثت فى هيروساليما حوادث شغب كثيرة . واضطرابات دامية ، وسادت الفوضى معظم أنحاء البلاد . وبدأت هذه فى قيسارية بين اليهود والسوريين . فاقتتل الفريقان من أجل قطعة من الأرض يملكها أحد السوريين وأراد اليهود أن يملكوها لأنها واقعة أمام كنيسهم . وطلبوا من فلورس أن يملكها باسمهم ، واعديه برشوة قدرها ثمانية تالنت . إلا أنه رفض التدخل قائلا : الناس أحرار فيما يملكون . فاحتكم الفريقان إلى السلاح. وغلب اليهود . فانسحبوا من المدينة ، وراحوا يستعدون للثورة . ولكن فلورس تمكن من إخماد ثورتهم : فبطش بهم . وقتل منهم — على حد قول المطران دبس — ثلاثة آلاف وستماية رجل .

وحاول اليهود أن يلجأوا إلى سلاح الجمال . فأرسلوا إلى الوالى فيرونيكة أخت أغريبا . وكانت هذه من الجمال على جانب عظيم . ولكنها عبثاً حاولت أن تقنع فلورس كى يقف أعمال النهب والسلب . ذلك لأنه اختبر من حيل اليهود ومكرهم ما لم يختبره الآخرون . فرفض طلبها . وظلت أعمال النهب والسلب والقتل سائرة فى قيسارية . فقتل من اليهود عشرون ألفاً فى يوم واحد . وقامت مذابح مثلها فى المدن الأخرى .

ولم تنج هيروساليما من الثورات والاضطرابات بعد ذلك بسبب كره اليهود للرومان . وكان الرومان تارة ينزلون باليهود أشد العقاب ، وطوراً يجنحون إلى الرأفة . ولما رأوا أن هذه السياسة جعلت اليهود يطغون ، إذ ساد الشر ، وعم الفسق ، وفقد الأمن ؛ قرروا أن يقضوا عليهم قضاء تاماً . فأصدر نيرون أمره إلى قائده فلافيوس فسباسيان . وجاء هذا (٦٧ م) على رأس جيش مؤلف من ثلاثة فيالق (٦٠,٠٠٠ مقاتل) . ولكنه اضطر للرجوع قبل أن يحتل هيروساليما . إذ كان نيرون قد قضى نحبه ، وكان عليه أن يرجع إلى روما ليتولى العرش من بعده . فتولى القيادة ابنه تيطس .

حاصر تيطس المدينة (٧٠م) وكان الرومان يومئذ يسمونها (سوليموس) وكانت محاطة بالأسوار . وكان جيشه مؤلفاً من أربعة فيالق . منها ثلاثون ألفاً من الجنود النظاميين . وكان فى عداد هذه الحملة فرقة من متطوعى الأقباط (عرب) ؛ فشد الخناق على المدينة وقتل من سكانها خلقاً كثيراً . وحرق الجند الهيكل . ودكت الأسوار . وهدمت المنازل . وامتلأت الشوارع بجثث القتلى . وعانى الشيوخ والنساء والأطفال ما عانوا من جراء الخوف والجوع . وأكل الناس الكلاب والجرذان والحشرات . وذبح بعضهم أبناءهم وأكلوا لحومهم . وقدر المؤلف اليهودى يوسيفوس الذى شهد الحصار عدد القتلى بمليون نسمة . وقيل إنهم ستمئة ألف . وعند ما سقطت المدينة فى يد تيطس أسر من أهلها من أسر .

وبيع من بيع فى سوق الرقيق .

وقصارى القول : أصاب اليهود على يد تيطس ما أصابهم من ذل وهوان لم يعرف التاريخ لها مثيلا . وحقت عليهم نبوءة أرميا الذى قال : (الذين إلى الموت فإلى الموت . والذين للسيف فإلى السيف . والذين للجوع فإلى الجوع . والذين للسبى فإلى السبى .)

ولقد هجرت سوليموس بعد احتلالها من لدن تيطس . فلم يبق فيها سوى حاميتها الرومانية . وبعد قليل (٨٠ م) رجع إليها المسيحيون الذين كانوا قد نزحوا عنها ، وأما اليهود فقد حظر عليهم الرجوع إليها .

وعاد اليهود إلى أعمال الشغب فى عهد الإمبراطور تراجان (١٠٦ م) إذ تمكن يومئذ عدد كبير منهم من الرجوع إلى سوليموس بسبب ضعف الحامية فيها ، وثاروا . ولكن الحاكم الرومانى (لوقيوس كوثيوس) أخمد ثورتهم .

ولما تولى أدريانوس عرش الرومان (١١٧ – ١٣٨ م) اعتزم أن يقضى على الشعب اليهودى الذى كان لا يهدأ له بال دون أن يقوم بنوع من أنواع الشغب . فاعتزم قلب المدينة إلى مستعمرة رومانية . وأقام عليها أخا زوجته (أكيلا) . فحظر هذا على اليهود الاختتان ، وقراءة التوراة ، واحترام السبت . فثار اليهود ثورتهم المشهورة بقيادة (بارقوخيا) . وقامت فى سوليما (١٣٥ م) اضطرابات دموية لم يسبق لها مثيل . واستبدلت روما حكامها مرتين فى عام واحد . فجاء أولا (تورنوس روفوس) ثم جاء (يوليوس سيفيروس) فاحتل هذا المدينة وقهر الثوار . وذبح بارقوخيا . وقتل من اليهود يومئذ ٥٨٠,٠٠٠ نسمة بحد السيف . هذا غير الذين ماتوا جوعاً أو مرضاً أو حرقاً بالنار . ومن لم يمت منهم طرد من المدينة . وتشتت اليهود بعدئذ تحت كل كوكب . ولكى ينسى اليهود سوليما أمر أدريانوس بتدميرها . وأنشأ مكانها مدينة جديدة أسماها (إيليا كابيتولينا) . وكانت هذه يومئذ قرية صغيرة تابعة لقيسارية من جميع النواحى

الإدارية والسياسية والاقتصادية والدينية .

واضطهد أدريانوس المسيحيين أيضاً ، فأمر (١٣٥ م) بإجلائهم عن الكنيسة[١]. كما أمر بردم المكان بالتراب والحجارة وبنى فوق الجلجلة والقبر هيكلين وثنيين . ونصب فوقهما تمثالى المشترى والزهرة .

وبنى أدريانوس سوقاً فى المكان المعروف الآن بباب العمود . وأقام هناك أروقة وأعمدة كثيرة قيل إنها كانت تمتد إلى جبل صهيون . ومن هنا جاء الاسم المعروف : باب العمود .

كانت اللغات المستعملة فى إيليا ، على عهد الرومان ، الآرامية ، والعبرية ، واليونانية ، واللاتينية ، أما اللغة العبرية فقد كانت لغة اليهود ، واليونانية لغة الطوائف الأخرى . وأما اللغة اللاتينية فكانت لغة الحكومة الرسمية ، وأما اللغة الآرامية فقد كانت لغة التخاطب بوجه عام . ولقد فرض الرومان على البلاد الجزية وأنواعاً أخرى من الضرائب التى عادت على روما بالغنى وعلى البلاد بالفقر[٢] .

ولقد ترك الرومان فى إيليا وغيرها من البلدان كثيراً من آثار العمران كالمعابد والحصون والطرق والصهاريج والمجارى والسدود والأشجار والجسور . غير أن معظم هذه الآثار أصابه البلى ، بسبب الحروب والثورات . وقضى على البقية الباقية منها عند ما احتل الفرس إيليا (٦١٤ م) . وكان ذلك قبيل الفتح الإسلامى .

---

(١) (تاريخ كنيسة أورشليم الأرثوذكسية) لشحاده خورى ونقولا خورى . ص ٧

(٢) (خطط الشام) للمرحوم محمد كرد على . ج ٥ ص ٤٧ .

القدس البيزنطية

(٣٣٠ م)

عندما تولى قسطنطين عرش الأباطرة (٣١٣ م) تنفست النصرانية الصعداء وكانت قبل ذلك مضطهدة . ولم يقف هذا عند حد السماح لها بالانتشار فى مملكته ، بل تنصر هو بنفسه . وتغلب على خصمه ليسينيوس ، فأصبح القائد غير المنازع للمملكة الرومانية فى الشرق والغرب[١] وأقام على أنقاض بيزانس[٢] مدينة جديدة أسماها القسطنطينية (٣٣٠ م) . وأصبحت إيليا مدينة بيزنطية تابعة للقسطنطينية .

ولم يمض زمن طويل حتى زارت أمه الملكة هيلانة إيليا (٤٢٦ م) وبنت فيها كنيسة القيامة (٣٣٥ م) وخربت هيلانة البناء الذى كان على الصخرة ، وجعلتها مطرحاً لقمامات البلد عناداً لليهود[٣] . وفرض قسطنطين على اليهود أن يتنصروا . فتنصر فريق منهم ؛ ومن لم يتنصر قتل ، أو غادر البلاد[٤] .

ولما اعتلى جوليان الجاحد العرش (٣٦٠ م) تنفس اليهود الصعداء ، وكانوا قبل ذلك مضطهدين . فألغى هذا جميع القوانين التى صدرت ضدهم وراح اليهود ينسلون إلى المدينة من كل صوب . وأمر جوليان بإعادة بناء الهيكل . وعهد بذلك إلى أحد رجاله البينوس . ولكنهم ما كادوا يحفرون الأساس حتى

---

(١) انشقت هذه المملكة إلى قسمين ، المملكة الغربية وعاصمتها روما . والمملكة الشرقية وعاصمتها بيزانس .

(٢) إستانبول .

(٣) (صبح الأعشى) للقلقشندى . ج ٤ ص ١٠١ .

(٤) (تاريخ القدس الشريف) لسركيس . ص ١٥٦ .

اندلعت النيران من تحت الأرض . وسمع انفجار شديد فهرب العمال . ووقف العمل . فذهب الناس فى تفسير هذه الظاهرة مذاهب شتى . فمنهم من اعتبرها دليلا على غضب السماء . ومنهم من قال إن المسيحيين أعدوا النار ليحولوا دون الهيكل . ومنهم من فسر ذلك باحتراق الغاز الدفين وهو سام . ومات بعدئذ جوليان . فخلفه ثيودوسيوس . ولما توفى هذا (٣٩٥ م) اقتسم ولداه المملكة ، وجعلاها مملكتين. فراح أركاديوس يدير المملكة الشرقية . وهونوريوس الغربية . وفى (٤٥١ م) انقسمت الكنيسة أيضاً ، فأصبح هناك كنيستان ، شرقية وغربية ، وكانت إيليا يومئذ من أتباع الثانية .

وفى (٥١٣ م) أقام الملك أنسطاسيوس على إيليا حاكماً يدعى أوليمبوس . وعلى عهده ثار الرهبان . فأقاله الملك ، وولى مكانه أنسطاسيوس .

وفى (٥٢٧ م) توفى الملك يوستينوس ، وخلفه يوستنيانوس (جوستانيان) العظيم . وعلى عهده ثار اليهود والسمرة . فأطفأ ثورتهم . وشتت شملهم . وأنشأ هذا عدداً من الكنائس والأديار فى إيليا وفى ما حولها من الجبال والأودية .

وبنى ، فى موضع المسجد الأقصى الحالى ، كنيسة باسم العذراء . وقرر المجلس الكنسى الخامس الذى التأم على عهده (٥٣ م) جعل إيليا مقراً للبطريركية .

ولكن لم يمض زمن كثير حتى دب الخلاف بين رجال الدين المسيحى فراحوا يتنازعون فى مجادلات دينية . وراحت البلاد تتدهور إلى الوراء .

وتولى العرش بعد ذلك أباطرة كثيرون . إلا أن معظمهم كانوا من الضعف بدرجة أنهم لم يستطيعوا درء الشر عن بلادهم ، فاستغل الفرس الفرصة . وغزوا البلاد . وفى عهد هرقل (٦١٠ — ٦١٤ م) كان الضعف قد دب فى مملكته

إلى درجة أنه لم يستطع الوقوف فى وجه كسرى[1] الذى أرسل عليهم جيشه بقيادة (مرزية خزروية) فاحتل هذا إيلياء (٦١٤ م) وذبح من سكانها تسعين ألف مسيحى . وهدم الفرس كنيسة القيامة ، كما هدموا معظم الكنائس والأديار . وأخذوا البطرك زخريا إلى بلادهم أسيراً . ويعتقد بعض المؤرخين أن الفرس قاموا بهذه الأعمال بتحريض من اليهود، وأن هؤلاء قتلوا من المسيحيين أكثر مما قتل الفرس .

وأصاب الناس يومئذ جوع شديد . حتى قيل إنهم أكلوا الجيف وجلود البهائم .

ولكن هرقل عاد ، فجمع قواه . وانتصر على الفرس (٦٢٧ م) . ثم اصطلح الفريقان . فأعيد الأسرى إلى بلادهم . كما أعيدت الغنائم التى نهبها الفرس . ودخل هرقل إيليا (١٤ أيلول ٦٢٩ م) حاملا على كتفه خشبة الصليب التى استردها من الفرس . وانتقم من اليهود، فراح يقتلهم بالمئات . ولكن الضعف كان قد دب فى مملكته بدرجة لم يستطع معها مقاومة المسلمين الذين جاءوا بعد قليل ، فأخذوا البلاد منه .

هناك فى مادبا من أعمال شرق الأردن قطعة صغيرة من الأرض مرصوفة بالفسيفساء ، تمثل خارطة فلسطين فى ذلك العهد ، وقد عثر المنقبون على هذه القطعة بين أطلال كنيسة قديمة ، ويرى الناظر إليها موضع إيليا محاطة بسور ، يخترقها من الشمال إلى الجنوب شارع تقوم الأعمدة على طرفيه . وينتهى هذا الشارع عند الباب المعروف فى يومنا هذا بباب العمود .

(١) جاء فى كتاب (أبو بكر الصديق) للأستاذ محمد حسين هيكل ص ٢٠٨ أن المقصود من الآية الكريمة التى أنزلها الله على نبيه : « ألم . غلبت الروم فى أدنى الأرض . . . » هو هذه المعركة .

الباب الثانى

الفتح الإسلامى

القدس وعمر بن الخطاب ـ القدس وبنو أمية ـ القدس وبنو العباس
القدس وبنو طولون ـ القدس وبنو الإخشيد ـ القدس الفاطمية
القدس والأتراك السلجوقيون ـ القدس والأرتقيون

القدس وعمر بن الخطاب

(١٥ هـ — ٦٣٦ م)

ليس بمستغرب أن يفكر المسلمون فى فتح البيت المقدس ، وهو البيت الذى ورد ذكره فى قرآنهم ، وعلى لسان نبيهم ، وفى أحاديث صحابتهم وأئمتهم وأعلامهم . ولقد كانوا مدفوعين لهذا الفتح بعوامل عدة : منها ما هو دينى ومنها ما هو اقتصادى ، وإن شئت فقل حربى واستراتيجى .

فقد أسرى بالنبي المصطفى عليه الصلاة والسلام من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، وفى ذلك نزلت الآية الكريمة : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله . . . » وما كان النبي ليسرى إلى هذا البلد الأمين لولا أنه كان يعلم علم اليقين أنه عرق الجزيرة النابض وقلبها الخفاق ، وأنه لا حياة للعرب فى جزيرتهم إذا لم تكن تخومها الشمالية محمية ، ولم يكن هذا البلد فى حوزتهم . وهذا فى نظرى ، هو سر الإسراء . . .

ورد فى الحديث الشريف : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدى هذا ، والمسجد الأقصى . »

وروى عن الإمام على بن أبى طالب أنه قال : « وسط الأرضين أرض بيت المقدس . وأرفع الأرض كلها إلى السماء بيت المقدس » .

وعن أبى هريرة أنه قال : « من مات فى بيت المقدس ، فكأنما مات فى السماء » . وعنه أيضاً أن النبي قال : « أربع مدائن من الجنة ، مكة ، والمدينة ، ودمشق ، وبيت المقدس » .

لم يكتف النبي بهذا الأسلوب من التشجيع على فتح بيت المقدس . فقد أردف القول بالفعل . وراح يحث قومه على غزو الروم . فقال : لهم ، « أيها الناس، إنى أريد الروم » . ولكن المنية فاجأته ، قبل أن يدرك غايته . فأكمل أبو بكر الصديق وصيتة . وراح هذا يستفز العرب من أجل فتح الشام كلها ، وليس البيت المقدس وحده . وقد جهز لهذه الغاية أربعة جيوش عقد ألويتها لأربعة من كبار القواد ، هم :

عمرو بن العاص[1]	فلسطين
شرحبيل بن حسنة	الأردن
يزيد بن أبي سفيان	البلقاء
أبو عبيدة بن الجراح	دمشق

ولا نريد أن نذكر هنا ما الذى فعله كل واحد من هؤلاء القواد ، لأن ذلك خارج عن نطاق هذا الكتاب . وإنما نريد أن نذكر أن المسلمين بعد أن غلبوا الروم فى اليرموك وفتحوا الشام ولوا وجوههم شطر فلسطين . فتولى أبو عبيدة ابن الجراح حصار إيلياء، وراح عمرو بن العاص يفتتح المدن الفلسطينية الأخرى . وكان أبو بكر الصديق قد انتقل إلى دار البقاء وتولى الخلافة من بعده عمر بن الخطاب .

وفى قول إن عمر بن الخطاب هو الذى أوعز إلى أبي عبيدة بن الجراح أن يزحف إلى إيلياء . فلبى أبو عبيدة أمر الخليفة، واستدعى سبعة من مقاديم الجيش . فعقد لكل منهم راية ضاماً إليه خمسة آلاف مقاتل بين فارس وراجل وأمرهم بالمسير إليها .

فى اليوم الأول سار خالد بن الوليد ، وفى اليوم الثانى تبعه يزيد بن أبي سفيان . ثم شرحبيل بن حسنة . فالمرقال بن هاشم . فمسيب بن نجبة الفزارى .

(١) (فتوح الشام) للواقدى (وتاريخ ابن خلدون) ج ٢ ص ١٠٥ .

فقيس بن المرادى . فعروة بن مهلهل بن زيد الخيل . وكان جملة من سار من الشام ، إلى إيلياء سبع فرق ، مجموع أفرادها خمسة وثلاثون ألفاً . كلهم فرسان نشيطون ، ورجال ماهرون فى الفروسية . وما عرف التاريخ أصبر منهم على الجوع والعطش والمشى . . . كان مبدأهم فى الحروب .

« لن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها » . « لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون »

وجاء من وراء الجيش قائده أبو عبيدة . ولما حل ركبه فى الأردن بعث إلى أهل إيلياء الرسل مزودين بالإنذار التالى :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من أبى عبيدة بن الجراح إلى بطاركة أهل إيلياء وسكانها . سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله وبالرسول ، أما بعد : فإنا ندعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور . فإن شهدتم بذلك حرمت علينا دماؤكم وأموالكم وذراريكم ، وكنتم لنا إخواناً . وإن أبيتم فأقروا لنا بأداء الجزية عن يد وأنتم صاغرون . وإن أنتم أبيتم سرت إليكم بقوم هم أشد حباً للموت منكم لشرب الخمر وأكل لحم الخنزير . ثم لا أرجع عنكم إن شاء الله أبداً حتى أقتل مقاتليكم وأسبى ذراريكم » .

انقضت الأيام الأربعة الأولى من غير حرب . ولم يتلق المسلمون جواباً من الروم على إنذارهم . وفى اليوم الخامس اقترب يزيد بن أبى سفيان من السور ، وكلم المحاصرين ، فخيرهم بين التسليم أو دفع الجزية أو القتال . فرفضوا الشرطين الأولين واختاروا القتال . وكتب يزيد إلى أبى عبيدة مخبراً عما جرى فأصدر هذا أمره بالزحف . وكان أول من برز للقتال بنو حمير ورجال اليمن فتلقاهم الروم بالنبال . ثم جاء الآخرون . ونشبت معارك طاحنة دامت عشرة أيام . وفى اليوم الحادى عشر أشرفت راية أبى عبيدة وفى رفقته عبد الرحمن بن أبى بكر ونفر من المجاهدين الأبطال . فاستقبله المسلمون بالتهليل والتكبير . ودب الرعب

فى قلوب الروم . ودام الحصار أربعة أشهر لم ينقض يوم واحد منها دون قتال . إلى أن قنط السكان . وحل بهم الضنك والجوع . فرأوا التسليم . إلا أنهم اشترطوا ألا يسلموا المدينة إلا إلى شخص الخليفة . فوافقهم أبو عبيدة ، وأمر جنده بالكف عن القتال .

أرسل أبو عبيدة إلى الخليفة كتاباً مع رسول يخبره بما جرى . وبعد أن استشار عمر بن الخطاب أهل الحل والعقد من المسلمين فى الأمر ، غادر المدينة ميمماً بيت المقدس . ولما وصل إلى المخيم الذى كان يرابط فيه المسلمون على مقربة من السور ، وفى قول على جبل الزيتون ، استقبله المسلمون بخيلهم ورماحهم وقد اصطفوا لاستقباله فى صفوف متراصة ، راكبين خيولهم متقلدين سيوفهم شارعين رماحهم[1] يهللون ويكبرون . وكان هو على قلوص[2] لابساً سلاحه . متنكباً قوسه . ولم يكن معه سوى عبده . وبعد أن استراح قليلا قص عليه أبو عبيدة الخبر اليقين ، عما جرى مذ افترقا إلى ذلك الحين . أمر الخليفه من فوره أن يبلغوا البطريرك قدومه . ففعلوا . وجاء البطريرك بعد قليل حاملا الصليب المقدس على صدره . وجاء معه عدد من الأساقفة والقسيسين والشمامسة والرهبان حاملين الصلبان . ولما انتهوا إلى مقام الخليفة خف للقائهم . وتقبلهم بمزيد الاحتفاء والإكرام . ثم تحادثوا فى شروط التسليم . وكتب لهم وثيقة الأمان التالية وقد عرفت بالعهدة العمرية :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان :

« أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم . سقيمها وبريئها وسائر ملتها . أنه لا تسكن كنائسهم ، ولا تهدم ، ولا ينتقص منها ولا من خيرها ،

---

(١) (شذرات الذهب) لابن العماد الحنبلى ج ١ ص ٢٨ .
(٢) (الكامل فى التاريخ) لابن الأثير . ص ١٩٤ — والقلوص من الإبل صغير السن .

ولا من صلبهم ، ولا من شيء من أموالهم . ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم . ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود . وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما تعطى أهل المدائن . وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص . فمن خرج منهم فهو آمن ، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية . ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم . فمن شاء منهم قعد ، وعليهم مثل ما على أهل إيلياء من الجزية . ومن شاء سار مع الروم ، ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصدوا حصادهم .

وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية .

كتب سنة ١٥ للهجرة » .

شهد على ذلك خالد بن الوليد وعبد الرحمن بن عوف وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبى سفيان » .

وكما أن عمر بن الخطاب أعطى أهل إيلياء العهد الذى تقدم ذكره ، فقد أخذ عليهم أيضاً عهداً . ولقد جاء فى عهدهم هذا ما يلى :

« هذا كتاب لعبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين من نصارى مدينة إيلياء . . . . . إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرارينا وأموالنا وأهل ملتنا . وشرطنا لكم أن لا نحدث فى مدينتنا ولا فيما حولها ديراً ولا كنيسة ولا قلاية[1] ولا صومعة راهب .

ولا نجس منها ما كان فى خطط المسلمين ولا نمنع كنائسنا أن ينزلها أحد من المسلمين فى ليل ولا نهار . وأن توسع أبوابها للمارة وابن السبيل . وأن ننزل من مرّ من المسلمين ثلاث ليال نطعمهم ولا نوارى فى كنائسنا ولا فى منازلنا

---

(١) معناها مسكن الأسقف .

جاسوساً ولا نكتم غشا للمسلمين ولا نعلم أولادنا القرآن ، ولا نظهر مشركاً ، ولا ندعو إليه أحداً ، ولا نمنع أحداً من ذوى قرابتنا الدخول فى الإسلام إن أراده . وأن نوقر المسلمين ، ونقوم لهم من مجالسنا إذا أرادوا الجلوس ، ولا نتشبه فى شىء من لباسهم فى قلنسوة ولا عمامة ولا نعلين ولا فرق شعر . ولا نتكلم بكلامهم ولا نتكنى بكناهم ، ولا نركب السروج ، ولا نتقلد السيوف ، ولا نتخذ شيئاً من السلاح ، ولا نحمله معنا ، ولا ننقش على خواتمنا بالعربية . ولا نبيع الخمور. وأن نجز مقادم رؤوسنا ، وأن نلزم زينا حيثما كنا . وأن نشد زنانير على أوساطنا ولا نظهر الصليب على كنائسنا . ولا نظهر صلباننا ولا كتبنا فى شىء من طرق المسلمين ولا فى أسواقهم . ولا نضرب نواقيسنا فى كنائسنا إلا ضرباً خفيفاً . ولا نرفع أصواتنا مع موتانا . ولا نتخذ من الرقيق ما جرت عليه سهام المسلمين . ولا نطلع عليهم فى منازلهم » .

بعد أن تعاطى الفريقان العهود والأيمان على النمط المتقدم ذكره دخل عمر ابن الخطاب إيلياء (١٥ هـ — ٦٣٦ م) . فاستقبله صفرونيوس ودخل من ورائه المسلمون . دخلوها مكبرين مهللين . وقيل إن عدد من دخل منهم يومئذ أربعة آلاف . وقد كانوا متقلدين سيوفهم . وراية العرب ترفرف فوق رؤوسهم .

كان أول عمل قام به عمر بعد فتحه بيت المقدس أن زار كنيسة القيامة . ولما كان فى داخلها حان وقت الصلاة . فأشار عليه البطريرك صفرونيوس أن يصلى فى داخل الكنيسة قائلا (مكانك صلّ) . ولكن عمر أبى ، وخرج من الكنيسة ، وصلى فى مكان على مقربة منها ، خشية أن يتخذ المسلمون صلاته فى داخل الكنيسة ذريعة فيضعوا أيديهم عليها . فقابل النصارى عمله هذا بالشكر . وذكره المؤرخون بالتقدير .

ثم زار عمر مكان الهيكل . وكان هذا فى حالة خراب . تجمعت فيه الأقذار فأصبح عبارة عن مزبلة . فراح يحفن التراب وينحضه بكفيه وحذا الصحابة

الذين كانوا معه حذوه . فراحوا ينظفون المكان وبرزت الصخرة . وأمر عمر أن يبنى هناك مسجد . فبنى المسجد ، وكان من خشب (٦٣٧ م) .

بعد أن انتهى عمر من زيارة هذين المكانين : القيامة والصخرة راح يتجول فى شوارع المدينة ، ويغشى أسواقها . وكانت هذه لا تزال تئن من الخراب الذى أحدثه الغزو الفارسى (٦١٤ م) . فرأى بعين ثاقبة أن يبدأ بالتنظيم الإدارى والقضائى أولا ، فلم يتوان . ففرض للمسلمين الفروض ، وأعطى العطايا . ثم وضع التاريخ الهجرى ، ودون الدواوين . وقسم البلاد إلى مناطق . وعين لكل منطقة أميراً . ثم رتب البريد ليؤمن الاتصال بين هذه المناطق ، وأقام العيون (الاستخبارات) . وعين قاضياً (مفتشاً) يطوف على المأمورين . ويحقق الشكايات . وأسس الحسبة (البلدية) لمشارفة الموازين والمكاييل ومراقبتها ، ولمنع الغش ، وتنظيف الأزقة ، وشر الكنف ، والرفق بالحيوان . وهدم البناء المحدث فى وسط السوق . وحظر على الناس الازدحام فى الطرق . وحضهم على التجارة قائلا : «لا تلهكم الرياسة وحبها . ولا يغلبنكم الغرباء على التجارة. فإنها ثلث الإمارة» .

وبينما كان عمر يتفقد المدينة ويبحث شؤونها وما أصاب سكانها من حيف وضيم أثناء الفتح ، أتاه رجل من النصارى له ذمة مع المسلمين فى كرم عنب . فشكا إليه همه ، فركب معه . ولما رأى أن فريقاً من المسلمين أكلوا ما فى الكرم لشدة ما أصابهم من جوع ، أعطاهم ثمن ما أكلوه . وقد أمر رجاله بالعدل ، قائلا لهم : « متى استعبدتم الناس ، وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » .

وذكر المؤرخون أن عمر زار قبيل رحيله عن بيت المقدس أبا عبيدة بن الجراح فى بيته . فلم يجد فيه سوى لبد فرسه (وكان هذا هو فراشه وسرجه ووسادته) وكسر يابسة فى كوة بيته ، ولما دخل عمر جاء بهذه الكسر ، فوضعها على الأرض بين يديه . وأتاه بملح جريش ، وكوز من الخزف فيه ماء . فلما نظر عمر إلى ذلك بكى .

وبعد أن رتب عمر الأمور ، ووضع كل شيء فى نصابه ، اعتزم الرجوع إلى المدينة ، وقبل أن يغادر بيت المقدس ، جمع جنده ، فأثنى على عملهم . وشكر الله إذ صدق وعده ونصر جنده . وأورثهم البلاد . ومكن لهم فى الأرض . ثم نصحهم بالابتعاد عن المعاصى ، والتوبة ، وتقوى الله ، وإلا سلب الله عزهم ، وسلط عليهم عدوهم .

وأقام على بيت المقدس ، يزيد بن أبي سفيان على أن يأتمر بأوامر أبي عبيدة. وانتدب للصلاة من بعده سلامة بن قيصر . وأمر على فلسطين رجلين : فجعل (علقمة بن حكيم) على نصفها الشمالى وأنزله الرملة . و (علقمة بن مجزر) على نصفها الجنوبى وأنزله إيلياء . فنزل كل منهما فى عمله مع جنده .

ثم عاد إلى الحجاز .

القدس وبنو أمية

ضمت القدس إلى الشام (٢١ هـ – ٦٤١ م) وخضعت لحكم معاوية ابن أبي سفيان(١) مؤسس الدولة الأموية . فأقام عليها سلامة (وفى قول سلام) ابن قيصر . وكان هذا يقيم فى نفس المكان الذى كان يقوم عليه قصر هيرودس فى عهد الرومان .

---

(١) كان على عهد النبي كاتب الوحى . وكان أحد قادة الجيش الذى أرسله أبو بكر الصديق لفتح الشام . حضر فتح بيت المقدس . وكان من شهود (العهدة العمرية) التى أعطاها عمر بن الخطاب لأهل إيلياء . ولقد ولاه عمر بعد ذلك الشام . كما ولاه عثمان نفس العمل بعد مقتل عمر . ولما مات عبدالرحمن ابن علقمة الكنانى ، وكان على فلسطين ، ضم عمله إلى معاوية (٢١ هـ – ٦٤١م) ثم صار الحاكم المطلق على الشام والبلقاء والأردن وفلسطين ومصر والعراق والحجاز . وبويع بالخلافة سنة ٤١ هـ – ٦٦١م .

كان للقدس يومئذ[١] سور ، وكان على ذلك السور ٨٤ برجاً ، وله ستة أبواب ، ثلاثة منها فقط يدخل الناس منها ويخرجون : واحد غربى المدينة ، والثانى شرقيها ، والثالث فى الشمال . وكان يؤم المدينة ، فى اليوم الخامس عشر من شهر أيلول من كل سنة ، جماهير غفيرة من مختلف الأجناس والأديان بقصد التجارة . ويقضى هؤلاء فيها بضعة أيام . وكان فيها مسجد مربع الأضلاع ، بنى من حجارة وأعمدة ضخمة نقلت من الأطلال المجاورة . وهو يتسع لثلاثة آلاف من المصلين . والمعتقد أن هذا هو المسجد الذى بناه عمر ابن الخطاب . وكان جبل الزيتون مغطى بأشجار العنب والزيتون . وكان سكان بيت المقدس يومئذ يأتون بالأخشاب التى يحتاجون إليها من أجل البناء والوقود ، تنقل على الجمال من غابة كثيفة واقعة على بعد ثلاثة أميال من الخليل إلى الشمال .

وقد اعتلى منصة الحكم بعد وفاة معاوية ابنه يزيد (٦٨١ م) . ثم معاوية ابن يزيد (٦٨٤ م) . وفى عهده بايع أهل الحجاز عبد الله بن الزبير بالخلافة . وانضم إليهم بعد قليل سكان مصر . ولما تولى خلافة الشام مروان بن الحكم (٦٨٤ م) . احترب الفريقان . وانقسمت البلاد إلى قسمين : قيس ويمن . وكاد نائل بن قيس الجذامى بفلسطين يميل إلى الزبير ، لولا أن أسرع مروان إلى محاربته . وتغلب عليه . وتمكن مروان بعد قليل من تثبيت حكمه فى مصر والشام .

ثم تولى الحكم عبد الملك بن مروان (٦٥ هـ — ٦٨٤ م) . وكان والياً على فلسطين ، فى عهده ، رجل يدعى منصور .

---

(١) The Pilgrimage of Arculfus by Rev. Jamee Rose Macperson B.D.

وفى زمن عبد الملك بن مروان بنى المسجدان[١] : الصخرة والأقصى . وهما من أعظم آثار بنى أمية فى فلسطين . لا ، بل إنهما من مفاخر العرب فى الشرق كله . ويقول المؤرخون[٢] إن عبد الملك أراد أن يصرف الناس عن التفكير بالسفر إلى الحجاز (وكان ابن الزبير قد ثار ضده فيها وأعلن استقلاله) وأن يشغلهم عن الكعبة ببناء هذا الأثر العظيم .

ومن آثاره أنه عبد فى هذه البلاد طرقاً عديدة منها : طريق القدس ـ الشام ، وطريق القدس ـ الرملة . ووضع فى مواضع معينة حجارة نقش عليها اسم الذى أمر بتعمير الطريق ، والمسافة بين ذلك الموضع ودمشق مقر الخلافة . وكانت هذه تقاس بالأميال .

قال مجير الدين فى كتابه (الأنس الجليل فى تاريخ القدس والخليل) إن عبد الملك كان يثق بالنصارى ، إلى درجة أنه استخدمهم فى المسجد الأقصى وسمح لهم بتوارث الخدمة فيه .

بعد عبد الملك بويع بالخلافة ابنه الوليد (٧٠٥ م) وعلى عهده تم بناء المسجد الأقصى . حتى لقد قيل إنه هو الذى بناه . وبلغ بنو أمية على عهده أقصى درجات العز . وشمل ملكه بلاد الترك والروم والهند . وفتح موسى بن نصير باسمه الأندلس .

ولقد أحب الوليد بيت المقدس . وقيل إنه تقبل مبايعة الناس وهو على سطح الصخرة . وكان ينوى أن يتخذها مقراً للخلافة . بيد أنه عامل المسيحيين معاملة

---

(١) اقرأ ما كتبناه عن هذين المسجدين فى موضع آخر من هذا الكتاب وفى كتابنا (تاريخ الحرم القدسى) . طبع فى مطبعة دار الأيتام الإسلامية بالقدس عام ١٩٤٧ م ، وفى الترجمة الإنكليزية التى نشرناها بعنوان The Dome of the Rock وقد طبعت فى المطبعة التجارية بالقدس عام ١٩٥١ .

(٢) أول من قال هذا القول هو الكاتب العباسى المعروف باليعقوبى (٨٧٤ م) وتبعه كثيرون منهم المرحوم محمد كردعلى فى كتابه (خطط الشام) ج ١ ص ١٤٩ .

قاسية[١] . لأنهم لم يوافقوه فى خطته التى اختطها لمهاجمة القسطنطينية .

بعد وفاة الوليد تولى الملك أخوه سليمان (٧١٤ م) . ولقد أحب هذا فلسطين وخاصة الرملة . وكان والياً عليها عند ما جاءه الخبر بوفاة أخيه الوليد . وقد بايعه الناس وهو على سطح الصخرة . وكان يحب الجلوس فى قبة السلسلة . ومن حوله الناس على الكراسى والوسائد وإلى جانبه الأموال وكتاب الدواوين . وقيل إنه كان ينوى أن يتخذ القدس أو الرملة عاصمة لملكه .

ومن بعده تولى الملك ابن عمه عمر بن عبد العزيز (٧١٧ م) . ومن أعماله أنه لما أحس بنية اليهود ببيت المقدس أخرجهم منها .

ولم يجر فى القدس أو فى فلسطين ما يستحق الذكر على عهد يزيد بن عبد الملك (٧٢٠ م) وأخيه هشام (٧٢٤ م) والوليد بن يزيد (٧٤٣ م) ويزيد بن الوليد (٧٤٤ م) وإبراهيم بن الوليد (٧٤٤ م) ومروان بن محمد (٧٤٤ م) سوى أن أهل فلسطين تآمروا فى زمن يزيد بن الوليد على أميرهم ، فقتلوه .

وفى زمن مروان بن محمد ، وهو آخر الخلفاء الأمويين ، ساءت أحوال الدولة وانتشر الفساد فى جميع أنحاء البلاد . وثار على الحكم الأموى الحكم ابن ضبعان بن روح بن زنباع زعيم فلسطين فى ذلك الحين .

وثار أيضاً أبو العباس الهاشمى . فبايعه أهل العراق وخراسان . فاشتد ساعده . وجمع جيشاً حارب به جيش مروان . فتغلب عليه . وهرب مروان إلى مصر ، فلحقه ، وقتله[٢] . وبهذا قضى على الدولة الأموية قضاء تاماً (١٣٢ هـ — ٧٥٠ م) .

---

(١) (تاريخ الكنيسة الرسولية الأورشليمية) لخليل إبراهيم قزاقيا ص ٥٨ .
(٢) كتاب (التنبيه والأشراف) للمسعودى . ص ٣٢٩ .

القدس وبنو العباس

(٧٥٠ م)

أعلن الحكم بن ضبعان بن روح بن زنباع خضوع فلسطين لحكم العباسيين (٧٥٠ م) . فجاء إليها القائد العباسى صالح بن على عم السفاح فى خمسين ألف مقاتل ، واحتلها ؛ وألقى القبض على من كان فيها من زعماء الأمويين ، وخيارهم ، وعددهم ثلاثة وثمانون ؛ وأرسلهم إلى ابن أخيه السفاح ، فقتلهم[1] .

بعد السفاح (أبو العباس عبد الله بن محمد) تولى الخلافة أبو جعفر المنصور (٧٥٤ م) وأمر هذا محمداً بن الأشعث أن يخرج عمال صالح بن على من الأردن والبلقاء وفلسطين . فأخرجهم منها . وهبط أبو جعفر المنصور بعد ذلك بيت المقدس ، وكان المسجد الأقصى قد أصيب بخراب شديد إثر زلزال حدث عام ٧٤٧ م . ولم يكن لديه من المال ما يكفى لتعميره ، فأمر بنزع صفائح الذهب والفضة التى على الأبواب ، فضربت دنانير . وأنفقت على تعمير المسجد الأقصى . فتمت عمارته عام ٧٧١ م .

وبعد ثلاث سنين حدث زلزال آخر (٧٧٤ م) أضر بالمسجد من جديد . وكان الضرر فى هذه المرة بالغاً . وكان على كرسى الخلافة محمد المهدى بن المنصور (٧٧٥ م) . وعند ما زار المهدى القدس عام ٧٨٠ م . أمر بتعمير ما خربه الزلزال . ولم يكن فى خزانة الدولة من المال ما يكفى لذلك . فكتب المهدى إلى عماله فى جميع أنحاء المملكة ، فلبى هؤلاء نداءه ، وعمر المسجد .

ومما تم على عهده أنه أمر بإبعاد البطريرك الأورشليمى إلياس الثالث إلى

---

(١) خطط الشام لمحمد كردعلى ج ١ ص ١٧٥ .

بلاد الفرس ، وأمر بأن يسكن المسيحيون فى حى واحد من أحياء القدس ، وأن تحصل منهم فدية .

لم تذكر القدس فى زمن الخليفة العباسى موسى الهادى (٧٨٥ م) . وإنما ذكرت كثيراً فى عهد أخيه هارون الرشيد (٧٨٦ م) . ولا بدع فقد بلغت دولة العرب فى أيامه أوج العز والمجد ، وقد عامل النصارى أحسن معاملة . فسمح للإمبراطور شارلمان بترميم الكنائس وبناء كنيسة العذراء حيث تقوم على آثارها كنيسة الدباغة . وفى سنة ٧٩٦ م أهدى شارلمان ساعة وفيلا وأقمشة نفيسة . وأخذ على نفسه حماية الحجاج المسيحيين الذين يفدون لزيارة بيت المقدس وقابله شارلمان بالمثل . فراح يرسل ، فى كل عام ، وفداً إلى القدس يحمل الهدايا إلى الخليفة والأموال لفقراء المسلمين . وعاد الوفد مرة حاملا معه مفاتيح القيامة والقبر المقدس .

واعتلى كرسى الخلافة بعد الرشيد ولده الأمين (٨٠٩ م) ثم جاء المأمون (٨١٣ م) فجدد هذا عمارة الصخرة . وعلى عهده زار الإمام محمد بن إدريس الشافعى بيت المقدس . كما زاره عدد كبير من العلماء وأهل الفضل . واتسعت مملكته . وبسبب هذا الاتساع أصبح الناس لا يعبأون إلا قليلا بالأوامر التى تصدر إليهم من بغداد ، وتمرد العمال .

وما كاد المأمون ينتقل إلى دار البقاء (٨٣٣ م) حتى دب الانقسام فى مملكته المترامية الأطراف .

وفى عهد أخيه المعتصم بالله بن الرشيد بدأ تقهقر الدولة العباسية . إذ كان المعتصم أمياً ، وكان جاهلا . وهو أول من جند الأتراك واستعان بهم فى الحرب . وقطع العطاء عن العرب . وراح بنو العباس من بعده يرقون مواليهم من حارس ووصيف إلى قائد وأمير . ولم ينقض على ذلك وقت طويل حتى أصبحوا هم (أى الخلفاء) آلات بأيدى مواليهم .

وبلغ الخصام بين قيس ويمن الذروة على عهد الواثق بالله هارون أبي جعفر (٨٤٢ م). وثار المبرقع (تميم اللخمى) من زعماء فلسطين، فخرج على العباسيين. ودعا لنفسه، فتبعه خلق كثير. ولكن القائد العباسى عاد، فتغلب عليه.

ولما توفى الواثق بالله بويع أخوه جعفر بن المعتصم (٨٤٧ م) ولقب بالمتوكل على الله. وقسم هذا مملكته، على عهده، بين أولاده: فكانت فلسطين والأردن وحمص ودمشق من نصيب ولده المؤيد، وخراسان وطبرستان وفارس وأرمينيا وأذربيجان من نصيب ولده المعتز، وأفريقية والمغرب وسوريا وما بين النهرين والحجاز واليمن وحضرموت والبحرين من نصيب ولده المنتصر.

لم تذكر القدس فى عهد المنتصر بن المتوكل على الله (٨٦١ م). والمستعين بالله (٨٦٢ م). والمعتز بالله (٨٦٦ م).

وكل ما يجدر بنا ذكره عن ذلك العهد أن دسائس الأتراك كثرت فى بغداد مقر الخلافة إلى درجة أنهم أوعزوا إلى المعتز أن يتنازل عن الخلافة. ففعل، وأودعوه السجن، ثم قطعوا عنه الغذاء، فمات جوعاً.

وفى عهده استولى عيسى بن الشيخ بن سليل الشيبانى على الرملة. ثم استولى على فلسطين جميعها. وتغلب على دمشق وأعمالها. وامتنع عن حمل المال إلى العراق.

وفى عهد ابن عمه المهتدى بالله بن الواثق (٨٦٩ م) اضطربت الأمور ببغداد، وساد فى فلسطين أحمد بن عيسى بن الشيخ الشيبانى(١)، فتقلد جندى فلسطين والأردن.

ومات المهتدى بالله ذبحاً. فبويع بالخلافة من بعده المعتمد على الله بن المتوكل الثالث (٨٧٠ م). وقد بايعه الجميع، إلا ابن شيخ زعيم فلسطين.

---

(١) (تاريخ مصر الحديث) لجرجى زيدان. ج ١

فإنه لم يدع إليه ، ولم يبايعه . فبعث إليه بتقليد أرمينيا فوق ما معه من بلاد الشام. فدعا له وبايعه . ولكن الفريقين عادا فاقتتلا . وحرض الخليفة العباسى قائد القوات المصرية أحمد بن طولون — وكانت مصر تدين بالطاعة يومئذ إلى بغداد — على ابن شيخ . فساق عليه جيشاً كبيراً . وقبل أن يصل ابن طولون إلى فلسطين ، استبدله الخليفة بـ (أماجور التركى) . وأتم هذا مهمة سلفه . فقاتل ابن شيخ وقومه ، وتغلب عليهم . ولحق ابن شيخ بأرمينيا ، وتقلد أماجور أعمال الشام كلها .

لم تذكر القدس فى عهد المعتضد بالله (٨٩٢ م) . لا ولا فى عهد ابنه المكتفى بالله (٩٠٤ م) . واستعاد هذا سلطة أجداده العباسيين ، فسادت كلمتهم فى مصر والشام .

بعد المكتفى بويع أخوه جعفر المقتدر بالله (٩٠٨ م) .

ولما قتل المقتدر بويع أخوه القاهر بالله (٩٣٢ م) . فولى هذا على مصر أبا بكر محمد بن طغج . ومن هذا نشأت دولة حكمت مصر والشام مدة من الزمن وعرفت (الدولة الإخشيدية) .

وقبع الخلفاء العباسيون بعد ذلك التاريخ فى قصورهم . واقتصرت سلطتهم على الشؤون الدينية . ومكثوا على تلك الحال إلى أن زحف هولاكو على بغداد (١٢٥٧م) وقضى على الخلافة العباسية . فغادروها إلى مصر . حيث عاش منهم خمسة عشر خليفة ، كان آخرهم محمد المتوكل على الله الذى تنازل عن الخلافة الدينية إلى السلطان سليم العثمانى (١٥١٧) .

زار القدس ، خلال السنين الأخيرة من العهد العباسى العالم المعروف (برنارد الحكيم) . زارها بعد أن نال رضى البابا فى رومة . ووصفها فقال :

« إن المسلمين والمسيحيين فيها على تفاهم تام . وإن الأمن العام مستتب للغاية حتى إن المسافر ليلا يفرض عليه أن تكون بيده وثيقة تثبت هويته . وإلا

زج فى السجن حتى يحقق فى أمره . وإذا سافرت من بلد إلى بلد ونفق جملى أو حمارى وتركت أمتعتى مكانها ، وذهبت لاكتراء دابة من البلدة المجاورة عدت فوجدت كل شىء على حاله لم تمسه يد » .

ووصف برنارد الحكيم النزل الذى نزل فيه ، وهو معد للحجاج الذين يتكلمون اللغة الرومانية . فقال إنه النزل الذى أسسه الملك شارلمان . وبجانبه سوق يترتب على الشخص الذى يعمل فيه أن ينقد المحتسب الذى يناظره قطعتين من الذهب كل سنة .

ذلك كان فى عام ٨٧٠ للميلاد .

القدس وبنو طولون

(٨٧٨م)

دخلت القدس فى حكم ابن طولون[١] عام ٨٧٨ للميلاد . فوطد فى ذلك العام سلطانه فى الشام ، بعد أن كان قد وطد سلطانه فى مصر . وكان قبل ذلك قائداً عاماً للجيوش المصرية ، يأتمر بأوامر الخلفاء العباسيين ببغداد .

لا نعلم عن أعمال ابن طولون فى القدس سوى أن النصارى قاسوا على عهده ، وأنه حظر عليهم أن يلبسوا الدرع إلا مرفوعاً من قبل ومن خلف ، وأنه حرم عليهم ركوب الخيل .

(١) ينتمى إلى إحدى القبائل التى تتألف منها تركستان . أسره ابن أسد الصامى فى إحدى الغزوات التى قام بها . وأرسله إلى بلاط الخليفة ببغداد . فأعجب به المأمون وألحقه بحاشيته . وراح يرقيه إلى أن جعله رئيس حرسه . واستفاد ابن طولون من الضعف الذى دب بعدئذ فى صفوف العباسيين . فتولى قيادة الجيش . وسيطر على البلاد . فأسس الدولة الطولونية . (جرجى زيدان ج ١ ص ٦٤٣) .

واقتتل بنو لخم وبنو جذام من القبائل الفلسطينية على عهده قتالا شديداً .

ولما مات ابن طولون تولى الحكم ولده خمارويه (٨٨٣ م) . وعمل هذا على توطيد صلاته بالخليفة فى بغداد ، فأرسل إليه وفداً يحمل الهدايا ، والخراج ،

ولما قتل خمارويه تولى ابنه (جيش) الملقب بأبى العساكر . ولكن ، لا الشام قبلته ، ولا مصر . بل ثار الجميع عليه ، وقتلوه . وأقام الثوار من بعده أخاه (هارون) ٨٩٦ م . وثبته الخليفة المعتضد على مصر .

وهارون أيضاً مات قتلا (٩٠٤ م) . فتسلم الأمر من بعده محمد بن سليمان الذى أرسله الخليفة المكتفى بالله إلى الشام على رأس جيش ليتملكها . وقد امتلكها وامتلك مصر من بعدها . وأعاد إلى الخليفة العباسى سلطته السابقة .

وهكذا انتهى حكم الدولة الطولونية لا فى القدس وحدها ، بل وفى مصر والشام . (٩٠٥ م) .

لم تكن القدس فى عهد هذه الدولة من الأهمية بمكان . فلم تذكر إلا قليلا . وما كان الناس ليقصدوها إلا لغايات دينية .

القدس وبنو الإخشيد

(٩٣٨ م)

دخلت القدس فى حكم الدولة الإخشيدية عندما أقام الخليفة العباسى القاهر بالله ابن المعتضد ، محمد بن طغج[1] ، فولاه الحكم فى مصر والشام ،

(١) إنه محمد بن طغج بن جف بن بلتكين بن فورى بن خاقان . نزل جده جف هذه البلاد على عهد المعتصم بالله بن هارون الرشيد . ودخل أبوه طغج فى خدمة خمارويه بن أحمد بن طولون . فولاه دمشق وتولى هو (أى محمد بن طغج) مصر من لدن الخليفة العباسى القاهر بالله (٩٣٢ م) . ثم ولاه — كما قلنا — مصر والشام (٩٣٨م) .

ولقب هذا بالإخشيد (٣٢٧ هـ — ٩٣٨ م) .

وقامت ، بعد ذلك بعام واحد ، حرب بين الإخشيديين وبين الأمير محمد بن رائق صاحب فلسطين . انتهت بالصلح على أن تكون البلاد من الرملة إلى التخوم المصرية للإخشيديين وباقى الشام لأمير الأمراء محمد بن رائق(١) ، وأن يحمل الإخشيد إلى ابن رائق فى كل سنة مئة وأربعين ألف دينار تعويضاً عن الرملة .

ولما قتل محمد بن رائق(٢) سنة ٣٣٠ هـ — ٩٤١ م . استرجع محمد الإخشيد البلاد التى كان قد تنازل عنها لابن رائق . وبعد ذلك بسنتين تولى إمارة الحجاز فسادت كلمته فى مصر والشام وفلسطين والأردن والحجاز .

مات الإخشيد فى دمشق ، ودفن فى القدس (٣٣٤ هـ — ٩٤٥ م) . وتولى الأمر من بعده أبو القاسم محمد الملقب بـ (أنوجور) وعلى عهده زار القدس السائح الفارسى المشهور ، ناصرى خسرو . ووصفها فى كتابه (سفر نامة)(٣)

ومما جاء فيها : « أنه كان فى القدس يومئذ عشرون ألف نسمة . وأن فيها أسواقاً جميلة وعالية . وأن أرضها مرصوفة بالحجارة . وأنه يوجد على حافة سهل معروف بالساهرة قرافة عظيمة فيها مقابر كثير من الصالحين » .

ولما مات أنوجور بن الإخشيد (٩٦٠ م) حمل الى القدس ، ودفن بها عند أبيه .

وتولى الملك من بعده أخوه على الملقب بأبى الحسن . وكان أمره بيد كافور مدير مملكته . ولما مات (٩٦٥ م) حمل إلى القدس ، ودفن فيها إلى جانب أبيه الإخشيد وأخيه أنوجور .

---

(١) جرجى زيدان ج ١ ص ١٨٥ .

(٢) قتله الحمدانيون بالموصل .

(٣) رحلة وقعت حوادثها بين ٩٥٨ و ١٠٥٢ م .

وبهذا انفرد كافور بالحكم ، ولقب بالإخشيدى ، وخطب له على منابر مصر والشام والحجاز والثغور .

ولما توفى كافور (٩٦٦ م) دفن فى القدس[١] . ووقع الخلاف ، إثر وفاته ، بين الإخشيديين . إذ راح كل واحد منهم يدعى الإمارة لنفسه . فاستولى جوهر الصقلى على البلاد ، وراح يخطب فيها باسم المعز القائد الفاطمى .

لم تذكر القدس على عهد الإخشيديين إلا قليلا . ولم تكن يومئذ ذات أهمية : لا من الناحية التجارية ، ولا من الناحية الحربية . وما كانت تقصد إلا لغايات دينية . وكانت القدس يومئذ دون الرملة من حيث الحجم والأهمية .

كان فى القدس يومئذ مسجد ليس فى الإسلام أكبر منه[٢]. ولم يكن فيها ماء جار سوى عيون لا تتسع للزروع . ويزرع فى جبالها وسهولها أشجار الزيتون والتين والجميز والعنب وسائر الفواكه . . .

وكان على القدس ، فى عهد كافور ، وال يعرف بمحمد بن إسماعيل الصنهاجى . ويذكر عنه أن أتباعه أحرقوا كنيسة القيامة ، فسقطت قبتها . ونهبوا كنيسة صهيون وأحرقوها . وقال ابن بطريق إن لليهود أصابع فى هذه الحوادث وإنهم هدموا وخربوا أكثر مما هدم الوالى وأتباعه وخربوا .

القدس الفاطمية

(٩٦٦ م)

استولى جوهر الصقلى ، قائد المعز الفاطمى ، على هذه البلاد (٩٦٦ م)

---

(١) (النجوم الزاهرة) ج ٤ ص ١٠ .

(٢) (مسالك الممالك) ص ٥٦ (طبع ليدن ١٨٧٠) .

إثر الخلاف الذى دب فى صفوف الإخشيديين بعد موت كافور ، ثم أقام الخطبة للمعز ، وأصبحت القدس فاطمية (٩٦٩ م) وكان فيها يومئذ عشرون ألفاً من السكان جلهم من الشيعة . وكانت مشهورة بخصب تربتها ، وبزيتها وزيتونها وصابونها وتينها وقطنها وعنبها وزبيبها ، وتفاحها وخروبها . وأما من حيث الأهمية السياسية فكانت بالدرجة الثانية بعد الرملة .

وإليك أسماء الخلفاء الفاطميين الذين كان لهم شأن فيها :

العزيز بن المعز (٩٧٥ م) . وعلى عهده . قامت حروب بين المغاربة والقرامطة ، وبينهم وبين طى وسائر عرب فلسطين . وكان هؤلاء بقيادة (مفرج ابن الجراح) أمير بنى طيئ ولكن الغلبة كانت للفاطميين . وكان قائدهم تركياً يدعى (بلتكين) .

وأقام العزيز على ولاية فلسطين وزيراً قبطياً[١] هو الشيخ أبو اليمن قزمان ابن مينا الكاتب . وسكن هذا فى دير السلطان من أملاك القبط . ولما اقتتلت جيوش الشام ومصر هرب قزمان آخذاً معه أموال الدولة ، وقد بلغت يومئذ مئتى ألف دينار .

المنصور بن عبد العزيز الملقب الحاكم بأمر الله (٩٦٦ م) . فقد احترم هذا فى بادئ الأمر النصارى . ثم راح يحتقرهم . وأمر بهدم كنيستهم (القيامة). وأرغمهم على لبس السواد . ومنعهم من الاحتفال بعيد الشعانين . ثم رجع يحترمهم . فسمح لهم بتعمير الكنيسة . لا ، بل قيل إنه عمرها على نفقته . وقد رد إليهم أديرتهم وكنائسهم . وأما اليهود فقد اضطهدهم . وظل يضطهدهم إلى أن مات .

---

(١) (تاريخ الكرسى الأورشليمى للأقباط الأرثوذكس) للشماس كامل صالح نخلة الإسكندرى وهو مخطوط .

(٢) (النجوم الزاهرة) ج ٥ ص ٨١ .

وفى زمنه ثار المفرج الطائى فى فلسطين (٩٦٦ م) . ولكن الحاكم بأمر الله تغلب عليه . وقام بعدئذ حسان بن المفرج طالباً ثأر أبيه . فامتلك الرملة . إلا أنه عاد فاستكان . وخضع لسلطان الفاطميين .

الظاهر لإعزاز دين الله (١٠٢٠ م) . إنه ابن الحاكم . تنفس النصارى الصعداء على عهده . وسمح للذين غيروا معتقدهم على عهد أبيه أن يرجعوا إلى حظيرة دينهم القديم . وأعيد بناء الكنيسة المهدمة . وشرع فى بناء سور القدس . وحدث زلزال كبير على عهده ، كاد يودى بقبة المسجد الأقصى . لولا أنه أى (الظاهر) ركض لتعميرها . فجاءت أحسن مما كانت عليه من قبل .

المستنصر بالله (١٠٣٦ م) . إنه ابن الظاهر . على عهده اتسع سلطان الفاطميين . فامتد من المغرب إلى خراسان وفارس . وعلى عهده أيضاً انثلم سور القدس . وانشقت الصخرة .

وقويت شوكة الأتراك ، وراحت البلاد نهباً مقسماً بينهم وبين العبيد بسبب ضعفه .

ومن الأمراء الذين علت كلمتهم فى عهده الأمير بدر الدين الجمالى . والأمير آتسز بن أوق الخوارزمى . وقد استولى هذا على بيت المقدس (١٠٧٠ م) وباستيلائه دالت دولة الفاطميين عن هذه البلاد .

من المؤسسات الفاطمية فى بيت المقدس (البيمارستان) وهو أول مستشفى أسس فيها . وكان ينفق عليه مبالغ طائلة تأتى عن طريق البر والإحسان . وأطباؤه يتقاضون راتباً مقطوعاً . و (دار العلم)[١] وهى فرع لدار الحكمة التى أسست فى مصر عام ١٠٠٤ للميلاد .

إن أحسن وصف للقدس فى العهد الفاطمى نجده فيما كتبه المقدسى[٢].

---

(١) (المعاهد المصرية فى بيت المقدس) لأحمد سامح الخالدى ص ٤ .

(٢) (أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم) ص ١٦٥ .

وإنّا لنقتطف منه الأوصاف التالية :

« بيت المقدس . ليس فى مدائن الكور أكبر منها . . . ليست شديدة البرد ، وليس بها حر ، وقلما يقع بها ثلج . . . تلك صفة الجنة . . . بنيانها حجر ، لا ترى أحسن منه . ولا أتقن من بنائها . . . ولا أعف من أهلها . . . ولا أطيب من العيش بها . . . ولا أنظف من أسواقها . . . ولا أكبر من مسجدها . . . ولا أكثر من مشاهدها .

عنبها خطير . . . وليس لمعتقها نظير . . . وفيها كل حاذق وطبيب . . . وإليها قلب كل لبيب . . . ولا تخلو كل يوم من غريب . . . »

« إنها أطيب من مصر . . . وأجل . . . وأفضل . . . وأكبر . . . جمعت الدنيا والآخرة . . . ومع ذلك فإن لها عيوباً عدة . منها ما جاء عنها فى التوراة : إنها طشت من ذهب ، ملىء بالعقارب . » حماماتها قذرة . . . قليلة العلماء . . . كثيرة النصارى وفيهم جفاء . . . ضرائب ثقال على ما يباع . . . ليس للمظلوم فيها أنصار . . . والمستور فيها مهموم والغنى محسود . . . والفقيه مهجور . . . والأديب غير مشهود . . . »

وهناك وصف آخر لمدينة القدس فى زمن الفاطميين . نجده فى (سفرنامة) للسائح المشهور (ناصرى خسرو) . فقد هبطها هذا عام ١٠٤٧ م . ووصفها وصفاً مسهباً نكتفى منه باقتباس الكلمات التالية :

« يحج السوريون وسكان البلاد المجاورة للقدس عند ما لا تتيسر لهم وسائط الحج إلى مكة ، ويشبعون فيها رغباتهم الدينية . فيضحون فيها الضحايا ، ويصلون ، ويتقربون إلى الله بجميع أنواع الصلاة والعبادة . ويصل عدد الحجيج فى بعض الأعوام إلى عشرين ألفاً . وكثيراً ما يأتى هؤلاء معهم بأطفالهم ليختنوهم بين جدرانها وبالقرب من مساجدها .

« مزروعة زرعاً جيداً . ينبت فيها القمح والتين والزيتون . كما ينبت فيها أنواع كثيرة من الأشجار .

أسعارها معتدلة ، زيتها كثير ، كثير من رؤسائها يملك الواحد منهم خمسين ألف من (يقابل ٤٢٠٠ تنكة) من زيت الزيتون . يحفظ الزيت فى الآبار والأحواض . ويصدر إلى خارج البلاد . ويستعملون القار المجموع من مياه البحر الميت فى طلاء الأجزاء السفلى من الأشجار لحفظها من الديدان . ويستعمله الصيادلة من أجل صيانة العقاقير من الحشرات .

« يحيط بالمدينة سور منيع ، مبنى بالحجارة . . . وللسور أبواب من حديد . . يقطن فيها عشرون ألفاً من السكان ، بينهم صناع كثيرون . ولكل صنعة سوق خاصة بها . . . »

القدس والأتراك السلجوقيون

(١٠٧٢ م)

استولى (ألب آرسلان)[١] على بيت المقدس فى ١٠٧٢ م . أخذها من الفاطميين . وبهذا دخلت القدس فى حوزة الأتراك السلجوقيين . وكان ملكهم يومئذ يمتد من الصين شرقاً إلى أقصى اليمن فى الجنوب .

ولما مات ألب آرسلان تولى الملك ولده (محمد ملك شاه) ، ولقب

---

(١) ألب أرسلان محمد بن جغرى بن ميكائيل بن سلجوق . والسلجوقيون أخلاط من الترك . أول من دخل منهم بغداد طغرل بك أخو جغرى بك (١٠٥٥ م) . وكان ذلك على عهد الخليفة العباسى القائم بأمر الله . وهو (أى طغرل بك) الذى أزال دولة بنى بويه . ولما توفى تولى الملك من بعده ابن أخيه محمد ألب أرسلان .

بالسلطان العادل . وعلى عهده ثار المقدسيون على حاكمهم (١٠٧٧ م) . فأرسل عليهم جيشاً بقيادة قائده (آتسز بن أوق) الخوارزمى . فحاصر هذا المدينة ، وكان فيها عساكر مصر ففتحها عنوة ، ونهبها ، وقتل أهلها ، فلم ينج منهم أحد . لا ، ولا الذين احتموا بالمسجد الأقصى . . . وفى قول آخر[١] إنه قتل من سكانها ثلاثة آلاف نسمة ، وإنه سبي النساء واستعبد الأحرار . . . وساد الجوع فى المدينة . وانتشر الغلاء . فبيعت غرارة القمح بادئ ذى بدء بعشرين ديناراً ، ثم صعدت إلى مئتى دينار .

ومن عمال ملك شاه الذين تولوا إدارة بيت المقدس الأمير (أرتق بن أكسك)[٢] التركمانى . فقد استولى هذا على بيت المقدس بحد السيف ، وأسس فيها دولة عرفت بدولة الأرتقيين[٣] (١٠٧٧ م) .

القدس فى عهد الأرتقيين

(١٠٧٧ م)

قلنا فى نهاية الفصل السابق إن الأمير (أرتق بن أكسك[٤]) التركمانى استولى على بيت المقدس بحد السيف (١٠٧٧ م) ، وأنه أسس فيها دولة عرفت بدولة الأرتقيين .

---

(١) (تاريخ غزة) للمؤلف

(٢) (دائرة معارف وجدى) ج ١ ص ١٤٦

(٣) (تاريخ مصر الحديث) لجرجى زيدان ج ١ ص ٢٣٣ .

(٤) كان زعيماً للقبائل التركمانية التى أخرجها السلجوقيون من ضواحى بحر قزوين وساقوهم إلى سوريا ، فانتشروا فيها وفى فلسطين .

وفى سنة ١٠٩١ م توفى أرتق عن ولدين : (إيلغازى) و (سقمان) . فحكما معاً فى بيت المقدس وسائر فلسطين . وبعد ذلك بأربع سنين (١٠٩٥ م) جاء الأفضل أمير الجيوش من مصر إلى القدس يبغى تخليصها من الأرتقيين . فحاصرها ونصب عليها المنجانيق ، وقاتلهم فيها أربعين يوماً .

وتواطأ سكان بيت المقدس مع الأفضل بعد أن أمنهم . ففتحوا له أحد الأبواب (١٠٩٦ م) . فدخل منه . وخرج سقمان وأخوه إيلغازى من باب آخر . وأظهر المقدسيون بعدئذ الطاعة لمصر . وكانت هذه خاضعة لسلطان الأتراك السلجوقيين .

وفيما كان النزاع قائماً بين السلجوقيين والفاطميين ، إذ كان الأولون متمسكين بالخلافة العباسية وكان الآخرون يتشيعون للخلافة العلوية ، كان الصليبيون يعدون العدة للزحف صوب القدس . فأخذوها من المسلمين .

الباب الثالث

الفتح الصليبي وصلاح الدين

القدس وحملات الصليبيين — القدس وصلاح الدين — القدس وحفدة صلاح الدين — القدس فى عهد المماليك .

القدس وحملات الصليبيين

احتل الصليبيون القدس عام ١٠٩٩ للميلاد . وقد حثهم على احتلالها البابا (أوربانوس الثانى) . وكان الراهب الفرنسى (بطرس الناسك) قد زار القدس قبل ذلك ببضع سنين ، ونقل إليه أخباراً جعلته يعتقد أنه لا بد من إنقاذ المسيحيين فى الأرض المقدسة ، وإنقاذ ضريح السيد المسيح من يد المسلمين الذين وصفهم بالكفرة ، واعداً أولئك الذين يشتركون فى الحملة الصليبية بأن يغفر لهم ذنوبهم ، ما تقدم منها وما تأخر .

ويقول المؤرخون الذين بحثوا وضع القدس فى ذلك الحين إنه كان هنالك أسباب للحملة الصليبية غير تلك التى ذكرها البابا فى رسالته . وإن المسيحيين[١] كانوا يومئذ يعيشون مع المسلمين إخوانهم فى الوطنية واللغة فى سلام وصفاء ، وإن الأسباب الحقيقية تتلخص فى :

١ — حب التخلص من الثقافة والفلسفة العربية ؛ تلك الثقافة التى تناقض الإنجيل[٢] ، وكانت منتشرة فى ذلك الحين .

٢ — الحيلولة دون اصطدام الأمراء الإقطاعيين فى أوربا وتقاتلهم ؛ وشغلهم بمقاتلة أعدائهم المسلمين[٣] .

---

(١) (مجلة الراعى الصالح) للأستاذ رئيف ميخائيل الساعاتى . ج٧ ص ١٣٣ .
و (تاريخ العرب والتمدن الإسلامى) للأستاذ سيد أمير على العضو فى مجلس شورى الملك بإنكلترا ص ٢٧٦ و (أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم) للمقدسى .
و Description of Syria including Palestine by Guy Le Strange

(٢) (المستشرقون) لنجيب العقيقى ص ٤٢ — ٤٥ .

(٣) A Pilgrimage to Palestine by H. E. Fosstick B. 255

٣ — جعل الأرض المقدسة لاتينية وملاشاة الأرثوذكسية منها[١] .

وقال آخرون إن الغاية الحقيقية لا هذه ولا تلك . وإنما هي غاية تجارية بحت .

ومهما تكن الأسباب فإن الحملة الصليبية الأولى كانت مؤلفة من ثلاثمئة ألف مقاتل[٢] ، ينتمون إلى مختلف الشعوب والأقوام الأوربية من فرنسيين وألمان ونمسويين ومجر وبولونيين وغير ذلك . واقترف هؤلاء في طريقهم إلى الأرض المقدسة ألوان الفظائع والآثام . وذلك مما حدا بالأمم التي لاقوها في طريقهم إلى مقاتلتهم . فقتل عدد كبير منهم . وعاد عدد آخر إلى بلاده قبل أن يصل إلى هدفه .

ولما وقفوا أمام أسوار بيت المقدس كان عددهم قد هبط إلى خمسين ألفاً .

حاصر الصليبيون القدس من جهاتها الأربع ، ولا سيما من ناحيتها الشمالية ، وكان على رأسهم غودفرى دو بويون أمير مقاطعة اللورين من أعمال فرنسا ، والكونت روبرت أوف نورمندى أمير مقاطعة نورمنديا ، والكونت روبرت أوف فلاندرس أمير مقاطعة فلاندرة ، والكونت تنكريد ريموند أمير مقاطعة طولوز ، والكونت سان جيل ، وريكاردوس أمير سالارنوس ، وكليرمونت ، وجرارد ، وبلدوين ، وغيرهم . . .

بدأ الحصار في ٧ حزيران سنة ١٠٩٩ م وكان في المدينة يومئذ (افتخار الدولة) يديرها باسم الخليفة الفاطمي المستعلي بالله ؛ وكان عدد سكانها عشرين ألفاً . ولم تكن البلاد في الحقيقة قادرة على صد تيار الصليبيين بسبب تضعضع الحكم السلجوقي بعد مقتل (نظام الملك) ١٠٩٢ والتنافس القائم بين الرقباء

---

(١) (تاريخ الكنيسة الرسولية الأورشليمية) لخليل إبراهيم قزاقيا ص ٧١ — ٧٢

(٢) (تاريخ الحروب المقدسة) للمؤرخ الفرنسي مكسيموس موند ترجمة مكسيموس مظلوم بطريرك أنطاكيا والإسكندرية وأورشليم وسائر المشرق . ص ٢٩ .

الطامعين فى العرش ، وكانت قوة الدفاع عن المدينة مؤلفة من أربعين ألف مقاتل . ولم يترك أحد الفريقين وسيلة من وسائل التغلب على خصمه إلا لجأ إليها . وكثيراً ما كانوا يتقابلون فى ساحات الوغى وجهاً إلى وجه فيقتتلون بالسلاح الأبيض .

ومضوا على تلك الحال فمن كر وفر أربعين يوماً إلى أن نفد ما لدى المسلمين من أعتدة ومؤن ، فانهارت مقاومتهم وتغلب الصليبيون عليهم . فدخلوا المدينة فى تمام الساعة الثالثة من بعد ظهر الجمعة الموافق ١٥ تموز ١٠٩٩ م .

وما كادوا يدخلونها حتى حكموا على كل مسلم بقى فيها بالموت . وشرعوا من فورهم فى تنفيذ الحكم . فقتلوا سبعين ألفاً . ولم يجد المسلمين توسلهم ؛ لا ، ولا التجاؤهم إلى المسجد الأقصى . ولم يختلف اثنان من المؤرخين ، لا من الفرنجة ولا من المسلمين ، فى استفظاع المنكرات التى اقترفها الصليبيون . تلك المنكرات التى أقل ما قيل فيها إنه يندى لها جبين الدهر ، وإنها مناقضة لتعاليم السيد المسيح الذى زعموا أنهم إنما جاءوا لنصرته[١] . . . .

أرسل الصليبيون ، بعد انتهائهم من هذه المجزرة البشرية ، إلى البابا رسالة أخبروه فيها بما جرى ؛ قائلين له : إن القدس فتحت على يدهم ، وإنهم قتلوا عدداً لا يحصى من المسلمين ، وإن خيولهم فى إيوان سليمان كانت تخوض فى بحر من دماء المسلمين حتى ركبها . . . .

ثم راحوا يديرون المدينة كما يشاءون . فاستولوا على معظم المبانى والممتلكات

---

(١) (تاريخ الحروب المقدسة) للبطريرك مكسيموس مظلوم ص ١٧٤ (تاريخ القدس) لخليل طوطح وبولس شحادة ص ٢٨ .

(تاريخ كنيسة أورشليم الأرثوذكسية) لشحادة خورى ونقولا خورى ص ٧٠

A pilgrimage to Palestine , by H. E. Fosstick. P. 256

(مرآة الزمان) لسبط ابن الجوزى .

(النجوم الزاهرة) لابن تغرى الأتابكى ج ٥ ص ١٤٨ .

التى كانت فيها ، سواء فى ذلك ممتلكات المسلمين ، أو المسيحيين المنتمين إلى الكنيسة الشرقية . ولقدحولوا قبة الصخرة إلى كنيسة وسموها Tempelum Domini واستعملوا المسجد الأقصى لمصالحهم وكانوا يسمونه Palatium Tempelum Solomones فأنقصوا من حجمه كثيراً وقسموه إلى أقسام : فاتخذوا قسماً منه كنيسة وقسماً آخر مسكناً لفرسان الهيكل ، والباقى استعملوه مستودعاً لذخائرهم ، واتخذوا السراديب التى تحت المسجد الحالى إسطبلا لحيواناتهم .

وأسس الصليبيون من القدس والبلاد المجاورة لها مملكة لاتينية ، جعلوا مقرها القدس ؛ وأقاموا عليهم أميراً هو غودفرى دو بويون . فأخذوه إلى كنيسة القيامة وتوجوه ، ولما مات دفنوه فى داخل الكنيسة .

وفى زمن خلفه وأخيه (بلدوين الأول) ١١٠٠ — ١١١٨ م أصبحت القدس عاصمة مملكة تمتد من بيروت إلى العقبة . وكان لها فى ميناء العقبة أسطول . وكانت تجبى الضرائب من القوافل التى تسير بين سوريا ومصر والحجاز .

غير أن الأمن كان مفقوداً . ولا سيما على الطريق التى تصل أريحا بالقدس فقد كان يرابط فى هذه الطريق عدد كبير من الأشخاص وإن أسماهم الراهب الروسى دانيال ، الذى زار القدس فى عام ١١٠٦ م ، بقطاع الطرق ؛ إلا أنهم هم الذين نجوا من المذابح ، فراحوا يتكتلون ، ويتحينون الفرص للانقضاض على الصليبيين .

وتعاقب بعد ذلك ملوك الصليبيين على كرسى الحكم : فجاء بلدوين الثانى (١١١٨ م) فمليسنده وفولك أنجو (١١٣١ م) ومليسنده وبلدوين الثالث (١١٤٤ م) وبلدوين الثالث وحده (١١٥٢ م) وآمورى الأول (١١٦٢ م) وابتدأت مملكة القدس على عهده بالاضمحلال . ثم جاء بلدوين الرابع (١١٧٣ م) وبلدوين الخامس (١١٨٥ م) وسيبل وغاى دولوسينيان (١١٨٦م) وعلى عهد هذا الأخير احتل صلاح الدين بيت المقدس . وكان الشرق يومئذ

قد أفاق من غفلته ، وصحح أغلاطه ، فاتحد . وكان أمراء الصليبيين فى القدس والكرك وفى عكا وكل مكان من الاختلاف على جانب عظيم .

وقبل أن نختم هذا الفصل نرى لزاماً علينا أن نذكر بوجه الإيجاز ما كانت عليه القدس تحت ظل المملكة اللاتينية فنقول :

كانت القدس والمدن الكائنة حولها ذات أهمية من النواحى السياسية والدينية والتجارية ، إذ كانت تسيطر على طرق القوافل التجارية التى تربط الشام بمصر. ولكنها لم تنعم بالراحة وهناء البال من ناحية الأمن لوقوعها بين أصقاع آهلة بالمسلمين ، وما تخلى هؤلاء عن غزو الصليبيين وإقلاقهم لهجماتهم المتكررة . وكذلك قل عن الأخلاق فقد انحطت يومئذ إلى درجة لا تطاق (١) . والضرائب والرسوم التى فُرضت على السكان والمسافرين كانت باهظة . وما كان هناك نظام مالى ولا طرق منظمة لجباية تلك الضرائب والرسوم .

وأما الحكم فقد كان يومئذ قائماً على أساس (الإقطاع) . وكان أمراء الإقطاع من الاستقلال بدرجة أنهم ما كانوا يقيمون للملك الجالس على العرش فى القدس وزناً . لا ، بل كان بعض هؤلاء الأمراء يحارب البعض الآخر . ونسوا الغاية التى جاءوا هذه البلاد وفتحوا القدس من أجلها .

وتكونت فى القدس فرقتان : فرقة أسموها Templiers أى فرسان الهيكل وكانت عند المسلمين تعرف بـ (الداوية) . وأخرى Hospitaliers أى فرسان المستشفى وكان المسلمون يلقبونها بـ (الاسبتارية) . أما رجال الفرقة الأولى فقد حبسوا أنفسهم لمكافحة المسلمين. وأما رجال الفرقة الثانية فكان اهتمامهم فى بادىء الأمر منصرفاً إلى العناية بالحجيج والمرضى من المسيحيين .

ثم تحولت الفرقتان إلى هيئة حربية ، واتخذتا المسجد الأقصى مقرا لأعمالها ، وجعلتاه مستودعاً لأسلحتهما .

---

(١) (كتاب الاعتبار) لأسامة بن منقذ الكنانى . ص ٩٩ .

ولم تؤثر الحملة الصليبية على البلاد من حيث اللغة ، إذ ظل سكانها عرباً ، ويتكلمون اللغة العربية .

ومن آثار الصليبيين فى القدس : — كنيسة القديسة حنة الكائنة بين باب الأسباط وباب حطة ، وهى التى يسمونها فى يومنا هذا بالكنيسة الصلاحية . وكنيسة القديسة مريم الكبرى التى بنى الألمان على أنقاضها كنيسة المخلص فى الدباغة ، وكنيسة القديسة مريم اللاتينية على مقربة من أختها التى سبق ذكرها عند مدخل سوق الدباغة . وكنيسة الداوية قبلى كنيسة القيامة . ويعتقد المسيحيون أنها كانت فى المكان الذى يقوم عليه الآن المسجد العمرى . وكانت كنيسة القيامة مجزأة فجمعوا أجزاءها تحت سقف واحد ، وبنوا القبة المعروفة الآن بكنيسة (نصف الدنيا) .

ومن آثارهم أيضاً المستشفى المعروف بالمارستان فإن هذا المستشفى الذى بنى فى زمن الفاطميين ، وسع على عهد الصليبيين توسعاً كبيراً . ومنها أيضاً النزل الذى أقاموه إلى جانب هذا المستشفى ، ومن بقاياه السوق المعروف بسوق البيزار ، وفيها تباع الخضر فى يومنا هذا .

القدس وصلاح الدين
(١١٨٧ م)

لم ينقطع المسلمون عن مناوأة الصليبيين منذ احتل هؤلاء القدس وأخذوها من الأفضل عام ١٠٩٩ للميلاد . وكان أكثر المسلمين اهتماماً بها الأمير نور الدين . إذ ما كاد هذا يملك الشام (١١٥٤ م) حتى راح يبث الأرصاد ،

ويرسل الفدائيين إلى بيت المقدس ، ليجوسوا خلال الديار ، ويأتوه بالأخبار ، ليعرف كيف ومن أين يستطيع مهاجمتها وردها إلى حظيرة المسلمين . ولقد عثر المنقبون[١] على مغارة فى أسفل جبل الزيتون ، عند مفترق وادى الجوز وقدرون حفرت على جدرانها بعض الكلمات والأسماء العربية . ولدى دراستها علموا أنها من آثار منتصف القرن السادس للهجرة. وأن هذه الأسماء التى قال بعض المستشرقين عنها إنها لطائفة من الدراويش والمتصوفين وقال آخرون إنها لبعض الخوارج وقطاع الطرق الذين كانوا يكمنون فى المغاور والكهوف ليتصيدوا المسافرين ، إنما هى فى الحقيقة أبطال كان يبعث بهم نور الدين ليأتوا إليه بالخبر اليقين . ولكن الأجل عاجله فمات قبل أن يدرك بغيته ؛ فقام بتلك المهمة ربيبه وخليفته صلاح الدين .

ما كاد ينتهى صلاح الدين من معركة حطين[٢] ، تلك المعركة التى انتصر فيها على الصليبيين (فى ٢٥ ربيع الثانى ٥٨٣ هـ — ١١٨٧ م) ، حتى راح يفكر فى الاستيلاء على بيت المقدس . وقد سار إليها من فوره ، يتبعه جيش مزيج من العرب والترك والكرد . وعند ما وصل إليها ، حاصرها أولا من الناحية الغربية . ولكنه سرعان ما رأى أن تلك الناحية لا تصلح للهجوم ، فنقل جيشه إلى الناحية الشمالية وعسكر فى البطحاء التى تقوم عليها الأحياء المعروفة فى يومنا هذا بالمسكوبيه وباب العمود وباب الساهرة . وقضى هناك عشرين يوماً قبل أن يتمكن من فتح المدينة ، قضاها فى تركيب آلات الحصار ، وفى تهيئة وسائل القتال . وكانت قوة الدفاع فى داخل المدينة مؤلفة يومئذ من ستين

---

(١) منهم الأستاذ مكاليستر . وقد أشار إلى ذلك الأستاذ عادل جبر فى العدد ١٤ — ٩٩٣ من مجلة (صوت الشعب) .

(٢) (كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين) لأبى شامة ص ٢٦٠ .

ألف مقاتل[١] ، وكانت محاطة من جهاتها الأربع بسور منيع .

وبعد أن أتم ترتيباته ، وأصبح قادراً على اقتحام الأسوار ؛ أنذر السكان طالباً إليهم الاستسلام ولما أبوا راح يضربهم بالمنجنيق . فنشب قتال عنيف ، أبلى فيه الفريقان بلاء حسناً . وقتل منهما خلق كثير . وتمكن المسلمون من خرق جانب من السور من ناحيته الشرقية . فيئس الصليبيون . وأرسلوا رسلهم عارضين الاستسلام . ولقد تردد صلاح الدين ، فى بادىء الأمر . ولكنه عاد فرضى . ولا سيما عند ما قال له الرسول باليان[٢] إنه إذا ما أصر على دخول المدينة عنوة فإن الصليبيين معتزمون أن يقتلوا المسلمين من الأسرى الذين كانوا فى المدينة ، وعددهم خمسة آلاف . أضف إلى ذلك أنهم (أى الصليبيين) سيقتلون نساءهم لئلا يقعن فى أيدى المسلمين وسوف يهدمون الصخرة والأقصى .

وبعد أن استشار صلاح الدين قواده منح الصليبيين ما يطلبون . فأتاح لهم مغادرة المدينة لقاء الجزية ، على أن تدفع هذه خلال أربعين يوماً . وأقام على أبواب المدينة أمناء ليجبوا الجزية . فدفعها الصليبيون عشرة دنانير شامية عن كل رجل ، وخمسة عن كل امرأة ، ودينارا واحدا عن كل طفل ؛ وغادروا المدينة دون أن يصابوا بأذى . وعفا عن كثيرين مفتدياً هو وحده عشرة آلاف شخص ، وأخوه سيف الدين الملقب بالملك العادل سبعة آلاف شخص

وهكذا تم لصلاح الدين فتح بيت المقدس ، وتم ذلك فى يوم الجمعة الموافق ٢٧ رجب سنة ٥٨٣ هـ — ٢ أكتوبر ١١٨٧ م .

خشى الصليبيون أن يقابلهم صلاح الدين بمثل ما فعلوه يوم احتلوا المدينة ؛ إذ قتلوا يومئذ — كما سبق وقلنا — تسعين ألفاً من المسلمين . ولكن صلاح الدين أظهر من التسامح والعفو ما جعل المؤرخين يذكرونه بالثناء والتقدير .

---

(١) (النوادر السلطانية فى المحاسن اليوسفية) للقاضى بهاء الدين أبى المحاسن . وابن الجوزى ج ٨ ص ٢٥٤

(٢) (الكامل فى التاريخ) لابن الأثير ج ١١ ص ٢٠٧ والنجوم الزاهرة ج ٦ ص ١١٠

بعد احتلال القدس انتشر جنود صلاح الدين فى شوارع المدينة وأحيائها يحفظون الأمن والنظام ؛ فلم يقع فى المدينة حادث واحد من حوادث السرقة والنهب التى تلازم الفتح عادة . وراحت الأعلام الإسلامية تخفق على الأسوار .

وبعد أن وزع الهبات والعطايا على قواد جيشه وأمرائه ، وانتهى من قبول تهانى المهنئين ، شرع فى تنظيم الشؤون . فذهب قبل كل شىء إلى مسجدى الصخرة والأقصى ، وأزال ما بهما من آثار نصرانية . ثم عمرهما تعميراً يتناسب والغاية التى أنشئا من أجلها . ونقل إلى المسجد الأقصى المنبر الذى كان فى حلب ، وكان قد صنع قبل ذلك بعشر سنين وبأمر من نور الدين ليؤتى به إلى القدس عند فتحها .

وأمر صلاح الدين بإغلاق كنيسة القيامة ريثما ينتهى القتال ، ولما انتهى هذا أمر بفتحها . وفتح للمسيحيين مجال التعبد فيها بحرية .

ومن الأعمال التى قام بها أنه أتى بعدد من القبائل العربية كبنى حارث وبنى مرة وبنى سعد وبنى زيد والحرامنة ، فأقطعها بعض أجزاء المدينة ، ليستوطنوها . إنه هو الذى رتب الأعياد والمواسم المعروفة فى بلادنا كموسم النبى موسى فى القدس ، والمواسم الأخرى فى المدن الفلسطينية الأخرى . وإن قال آخرون إن هذه المواسم من وضع الملك الظاهر بيبرس . والوقت الذى اختير لإقامة هذه المواسم هو الوقت نفسه المخصص لعيد الفصح . ذلك العيد الذى يفد فيه إلى القدس عدد كبير من المسيحيين ، ولا سيما الأوربيين ، كزائرين ، فخشى المسلمون أن ينقلب الزائرون إلى جند فى نهاية الأمر فيحتلوا المدينة .

غادر صلاح الدين القدس لخمس بقين من شعبان . ثم عاد فزارها فى السنة التالية (٥٨٤ هـ — ١١٨٨ م) . وقد نزل فى هذه المرة فى دار القسوس المجاورة لكنيسة القيامة من الشمال والغرب ، وانتعشت الحركة التجارية فى المدينة إثر الفتح الصلاحى ؛ فكثرت المواد التى كانت تصدرها إلى الخارج ،

ومنها الجبن والقطين والزبيب والزيتون والتفاح وقضم قريش والمرايا وقدور القناديل والإبر والألبان .

ومن آثار صلاح الدين فى القدس (البيمارستان)[١] ؛ أنشأه فى البقعة التى تقوم عليها سوق البيزار وكنيسة الألمان فى الدباغة وشطر من سوق أفتيموس ، وفى قول إن هذا المستشفى كان هناك فى زمن الصليبيين وإنه هو الذى أسسه الفاطميون . وإن صلاح الدين وسعه فجعله من أعظم المستشفيات فى الإسلام . وكان يداوى فيه الجرحى والمرضى من الجنود والأهلين من غير أجر ولا عوض .

و (الخانقاه الصلاحية) أنشأها فى جانب من منزل البطريرك الملاصق لكنيسة القيامة من الشمال والغرب ، ذلك المنزل الذى قلنا إنه نزل فيه عندما زار القدس للمرة الثانية : وقد اتخذها مسجداً ورباطاً للصلحاء الصوفيين .

واهتم صلاح الدين بسور المدينة ؛ فعمره وجدد ما تهدم منه ، وأنشأ عدداً من الأبراج الحربية فى الجزء الواقع بين باب العمود وباب الخليل ، وحفر حول السور الخنادق لئلا يسهل على الصليبيين الدنو من المدينة ؛ وكثيراً ما رآه الناس وهو يشارك العمال فى نقل الحجارة وأعمال البناء . وكذلك قل عن أولاده وأمرائه وعن أخيه العادل .

ومن آثاره (قبة يوسف) القائمة على الطرف القبلى من فناء الصخرة . و (جامع الجبل) الكائن على جبل الطور ، إلى الشرق من المدينة . و (مقبرة الساهرة) وكانت على عهده تدعى مقبرة المجاهدين . ومن آثاره :

(المدرسة الختنية) بجوار المسجد الأقصى من القبلة ، خلف المنبر وقفها عام ٥٨٧ هـ — ١١٩١ م) .

---

(١) (تاريخ البيمارستانات فى الإسلام) للدكتور أحمد عيسى ص ٢٣٠ و (عقد الجمان) للعينى .

و (المدرسة الصلاحية) على بعد بضعة أمتار من السور الشرقى عند باب الأسباط . كانت فيما مضى مدرسة للروم . بنيت فى المكان الذى كان فيه بيت حنة والدة مريم البتول وبعلها يواكيم . وكان فيها على عهد الصليبيين كنيسة يسمونها كنيسة القديسة حنة ؛ فجعلها صلاح الدين مدرسة ، ووقفها للفقهاء الشافعية ، ورباطاً للمتصوفين . وكان ذلك بتاريخ ٥٨٨ هـ — ١١٩٢ م . وطار صيت هذه المدرسة فى ذلك العهد وفى العهود الإسلامية التى تلته . وبقيت فى حوزة المسلمين حتى القرن التاسع عشر للميلاد ، فتنازل عنها الأتراك للفرنسيين بعد حرب القرم . لأنهم (أى الفرنسيين) وقفوا إلى جانب الأتراك وخاصموا الروس فى الحرب المذكورة . وأعطاها الفرنسيون إلى الآباء البيض ، فاتخذوها مدرسة إكليركية . وبقيت كذلك حتى الحرب الكونية الأولى (١٩١٤ م) . إذ جعلها الأتراك كلية باسم (الصلاحية) . ولما سقطت القدس فى يد الإنكليز أعادها هؤلاء إلى الآباء البيض . فأعادوها مدرسة وفيها متحف وكنيسة .

و (المدرسة الميمونية) على بعد مئتى متر من السور الشمالى وعلى مقربة من باب الساهرة . وقفها الأمير فارس الدين أبو سعيد ميمون بن عبد الله القصرى خازن الملك صلاح الدين (٥٩٣ هـ — ١١٩٦ م) .واندثرت مع الزمن ، فاتخذ جانب منها فاخورة والجانب الآخر مزبلة ، وظلت كذلك حتى أواخر القرن التاسع عشر . فعمرها الأتراك (١٣١٠ هـ — ١٨٩٢ م) واتخذوها مدرسة أسموها (قدس شريف مكتب أعداديس) . وسميت خطأ (المأمونية) نسبة للخليفة العباسى المأمون . ولقد تعلم فيها الكثيرون من أبناء بيت المقدس ، ومنهم مؤلف هذا الكتاب .

وقلبها الإنجليز ، عند احتلالهم المدينة (١٩١٧) إلى مدرسة للبنات .

هذا ما تيسر نقله عن الآثار التى تمت فى القدس على عهد صلاح الدين .

ولما مات صلاح الدين (٥٨٩ هـ – ١١٩٣ م) ودفن فى دمشق ، بكاه الناس . ذلك لأنه حررهم من ربقة الاستعمار والذل، وقادهم الى المجد ، وراحت كلمة الإسلام هى العليا فى هذه الديار . وظلت كذلك زهاء سبعة قرون .

القدس وحفدة صلاح الدين
(١١٩٣ م)

انقسمت إمبراطورية صلاح الدين ، بعد وفاته ، إلى عدة ممالك ؛ فصارت الشام وفلسطين لابنه على الملقب بالملك الأفضل ، ومصر لابنه عثمان الملقب بالملك العزيز ، وحلب لابنه غازى الملقب بالملك الظاهر ، والكرك وقسم من الجزيرة وما بين النهرين لأخيه الملك العادل ، واليمن لأخيه الثانى طغتكين بن أيوب ، وحمص لابن عمه أسد الدين شركوه .

وكانت القدس مضافة للأفضل؛ وهو الذى أنشأ فيها (المدرسة الأفضلية) أنشأها بحارة المغاربة ، وكانت على عهده تعرف بالقبة ، ووقف معها حارة المغاربة . وكان ذلك فى سنة ٥٨٩ هـ – ١١٩٣ م . ومن آثاره (المسجد العمرى) الكائن إلى الجنوب من ساحة كنيسة القيامة .

تنازل الملك الأفضل بعد قليل عن القدس(١) لأخيه الملك العزيز ، مفضلا ضمها إلى مصر . ذلك لأنها ، على قول وزيره ابن الأثير ، كانت فى حاجة إلى المال والرجال لدفع عادية الفرنج عنها . فتقبلها العزيز ، وأرسل إلى متوليها الأمير جرديك بن عبد الله النورى عشرة آلاف دينار لينفقها فى عسكر القدس

---

(١) (السلوك لمعرفة دول الملوك) للمقريزى ج ١ ص ١١٥

ثم أرسل إليها جنداً آخرين ، خشية أن يعود الفرنج لاحتلالها ، فخطب له فيها .

ثم عاد الأخوان ، فتنافرا (١١٩٤ م) . كل منهما يريد ضمها إلى رقعته : الملك الأفضل فى الشام ، والملك العزيز فى مصر . وراح عمهما الملك العادل يتدخل بينهما ، فيزيد النار ضراماً ، وأيد العزيز على الأفضل ، فتمكن العزيز من نشر كلمته فى مصر والشام معاً ، ونزل القدس فى رمضان ٥٩٢ هـ — ١١٩٥ م ، فأقال نائبها أبا الهيجاء السمين ، وأقام مكانه الأمير شمس الدين سنقر الكبير .

وألغيت على عهده بعض الضرائب والرسوم ومنع استخدام أهل الذمة فى وظائف الدولة .

ولما توفى الملك العزيز (١١٩٨ م) تولى الملك ولده محمد ، ولقب بالسلطان الملك المنصور ناصر الدين ، ولما كان هذا صغيراً ، أقيم الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدى أتابكاً (أى وصيا) عليه . وحدثت فى القدس على عهده مؤامرة اشترك فيها عدد كبير من الأمراء ، ومنهم نائب القدس الأمير صارم الدين صالح . فكاتب هؤلاء الملك العادل ، وكان يومئذ فى دمشق ، ليأتى ويدير القدس . إلا أن الملك الأفضل الذى اطلع على هذه المؤامرة أحبطها ، وسار إلى مصر ؛ فاستولى على أمور الدولة . وعادت البلاد ، فانقسمت إلى قسمين : قسم يؤيد الملك المنصور بوصاية الملك الأفضل فى مصر ، وقسم يؤيد الملك العادل فى الشام . وفى هذه الغمرة من الحروب الأهلية راحت القدس تتلظى على جمر الجوع والغلاء ، وظلت الأزمة فيها قائمة إلى أن تغلب العادل على ابن أخيه الأفضل ، فدخل مصر ، وأصبح الآمر الناهى فيها وفى الشام معاً . ولقب بالسلطان الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب . وعلى عهده بنيت المدرسة الجراحية الكائنة على طريق نابلس بالحى المعروف بالشيخ جراح . وقفها الأمير حسام الدين حسين شرف الدين يحيى الجراحى (٥٩٨ هـ — ١٢٠١ م) ومن آثار الملك العادل فى القدس سقاية الحرم والمطهرة ١٢٠٢ م .

ولما مات ترك فى خزانته سبعمائة ألف دينار . استولى عليها ابنه الملك المعظم شرف الدين عيسى . وكانت القدس من أعماله . وكان يديرها بالنيابة عنه الأمير عز الدين عمر بن يغمور المعظمى وكان يلقب بالمتولى(١) . ثم أدارها الأمير بدر الدين الهكارى .

ولقد اقتفى أهل القدس أثر مليكهم المعظم شرف الدين عيسى ، فراحوا يلبسون على عهده الكلوتة الصفراء بلا شاش ، وكانوا يرخون ذوائب شعورهم من تحتها . وقيل إن الملك المعظم عيسى كان يحب القدس وكثيراً ما كان يزورها متفقداً أحوالها . وله فيها آثار جمة ، نذكر منها :

(المدرسة المعظمية) التى بناها فى ٦١٠ هـ — ١٢١٣ م . وإنا نرى بقاياها بين باب حطة والباب العتم شمالى الطريق المؤدية إلى باب الأسباط .

و (المدرسة البدرية) فى الحى المعروف بحى الواد ، وعلى مقربة من ضريح القرمى . بناها فى السنة ذاتها . وقفها بدر الدين محمد بن أبى القاسم الهكارى أحد أمراء الملك المعظم عيسى (٦١٠ هـ — ١٢١٣ م) .

و (سبيل شعلان) بناه بعد ذلك بثلاث سنين (١٢١٦ م) .

والرواق الشمالى الذى نراه فى مدخل المسجد الأقصى ، والمؤلف من سبعة عقود كبيرة . وكذلك الأبواب الخشبية التى نجدها عند مدخل الأقصى فى الشمال . فقد أنشأ ذلك كله عام ١٢١٧ م .

ولكن هذا الملك الذى أحب القدس وعمرها عاد فأمر بتخريبها سنة ١٢١٩م خشية أن يستولى الفرنج عليها . وذلك قد حدا بالسكان لذمه فمات مهموماً سنة (١٢٢٦ م) .

تولى الملك بعد المعظم عيسى ولده الملك الناصر صلاح الدين داود . ولما

---

(١) (صبح الأعشى) للقلقشندى . ج ٤ ص ٢٢ .

كان هذا صغيراً وعاجزاً عن تدبير شؤون الملك ، هاجمه عمه الملك الكامل ؛ فأخذ منه معظم البلاد ، ومنها القدس (١٢٢٧ م) . وعلى عهده عقد المسلمون مع الصليبيين (١٢٢٨ م) هدنة مدتها عشر سنوات وخمسة أشهر وأربعون يوماً . وقد نصت هذه الهدنة التى وقع عليها كل من الملك الكامل والإمبراطور فريدريك على أن يأخذ الفرنج القدس من المسلمين فيبقوها على ما هى عليه من خراب ، خلا الحرم القدسى وما فيه من مساجد كالصخرة والأقصى ، فإنه يبقى بيد المسلمين ، لا يدخله الفرنج إلا للزيارة . وتكون سائر قرى القدس للمسلمين لا حكم فيها للفرنج . وأما القرى الواقعة بين يافا وعكا وبين اللد والقدس فإنها تعطى للفرنج .

فأنكر المسلمون على الملك الكامل عمله هذا ، وراحوا يشتمونه فى جميع الأقطار . وحاصر الكامل بعدئذ دمشق ، فاستولى عليها وتحالف مع ابن أخيه الملك الناصر فأعطاه بدلا من دمشق الكرك والبلقاء ونابلس والقدس . وانفرد هو بالحكم فى مصر وباقى بلاد الشام .

ولما مات الكامل تولى الملك من بعده ولده الملك الصالح نجم الدين أيوب (١٢٣٨ م) . واستولى هذا على معظم البلاد التى كانت بيد الناصر ، ومنها أعمال القدس . ولكن الناصر عاد فتغلب عليه واستردها منه .

وفيما كان ملوك بنى أيوب يقتتلون ، كان الفرنج يستعدون لقتالهم ؛ وقد حصنوا القدس تحصيناً تاماً ، ولا سيما السور الذى خربه الملك المعظم عيسى ، فقد عمروه . ولما بلغ الملك الناصر داود عملهم هذا ، سار إليهم . وبعد أن حاصر القدس واحداً وعشرين يوماً أخذها منهم عنوة (١٢٣٩ م) وأفرج بعدئذ عن الملك الصالح نجم الدين فاجتمعا معاً فى القدس وتحالفا : على أن تكون ديار مصر للصالح ، والشام للناصر ؛ وأن يعطى الصالح للناصر مئتى ألف دينار .

ولكنهما عادا فاختلفا ، فاستغل الفرنج خلافهما واستولوا على القدس .

وراح أهل مصر والشام يقتتلون. واستنجد الأولون بالخوارزمة. فجاء هؤلاء فى عشرة آلاف فارس ، وراحوا يقاتلون أهل الشام والفرنج ، واحتلوا القدس ، وأعملوا سيوفهم فى رقاب من كان فيها من النصارى ، وأتوا فيها وفى غيرها من البلدان بأعمال تقشعر لها الأبدان . وقتل من الفرنج ومن أهل الشام فى هذه المعارك ثلاثون ألفاً أو يزيد . وعادت القدس فصارت من أملاك الملك الصالح نجم الدين (١٢٤٥) ونزلها الملك بعد ذلك بقليل (١٢٤٦ م) فتصدق على فقرائها بألفى دينار وأمر بعمارة السور .

قام الصليبيون بعد ذلك بحملة جديدة لتخليص القدس من يد المسلمين — وهى التى أسموها بالحملة السابعة (١٢٤٨ م) . وتبادل زعيم هذه الحملة لويس التاسع والملك الصالح نجم الدين — قبل أن يشرعا فى القتال — رسائل التهديد والإنذار . ثم التقيا فى ميادين القتال . ودارت بين الفريقين معارك دامية . وكان أن مات الملك الصالح (١٢٤٩ م) قبل أن تنتهى تلك المعارك إلى نتيجة حاسمة .

فتولى الملك بعده ولده الملك المعظم غياث الدين تورانشاه .

ولما لم يحسن هذا إدارة الملك ، نفرت قلوب المماليك البحرية منه ، فتآمروا عليه وقتلوه (١٢٥٠ م) . وبمقتله انقرضت دولة بنى أيوب .

القدس فى عهد المماليك

(١٢٥٠)

اجتمع أمراء المماليك ، إثر مقتل الملك المعظم غياث الدين تورانشاه (١٢٥٠ م) وأقاموا عليهم (شجرة الدر) . فأصبحت هذه سيدة البلاد . كما أقاموا الأمير (عز الدين أيبك) التركمانى على رأس جيشها . ثم اقترنت هذه بالأمير عز الدين ، وتنازلت له عن الملك ، فأصبح ملكاً ، وأسس العائلة المملوكية الأولى ، فلقب بالملك المعز عزالدين أيبك الجاشنكير التركمانى . وكانت القدس من أعماله .

وقتل المعز بعد ذلك بسبع سنين . فتولى الملك ابنه الملك المنصور على (١٢٥٧ م) . وكان هذا صغيراً ، وضعيفاً ، فاستغل أهل الشام ضعفه . واستولوا على القدس . وخطبوا فيها للملك المغيث بن العادل بن الكامل بن العادل بن أيوب . ثم عاد المصريون ، فتغلبوا على خصومهم . واحتلوا القدس . وخلعوا ملكهم . وأقاموا مكانه الأمير سيف الدين قُطز المعزى ولقبوه بالملك المظفر (١٢٥٩ م) .

ولما قتل قُطز أقام الأمراء بدلا منه الشخص الذى قتله وهو الأمير ركن الدين بيبرس (١٢٦٠ م) . ولقب هذا بالملك الظاهر بيبرس .

زار الملك الظاهر بيبرس القدس مرتين : مرة فى عام ١٢٦٢ م وأخرى فى عام ١٢٦٥ م . ومن المنشآت التى تمت على عهده :

(دار الحديث) بجوار التربة الجالقية على طريق باب السلسلة . وقفها

الأمير شرف الدين عيسى بن بدر الدين محمد بن أبى القاسم الهكاوى (٦٦٦هـ — ١٢٦٧ م) .

(المدرسة الأباصيرية) تجاه الرباط المنصورى بجوار باب الناظر . وقفها الأمير علاء الدين آيدوغدى (٦٦٦ هـ — ١٢٦٧ م) وهو مدفون فيها .

ولقد جدد الملك الظاهر بيبرس ما كان قد تهدم من مسجد الصخرة[1] . كما جدد قبة السلسلة وزخرفها . وأنشأ خاناً . ووقف بعض القرى لينفق ريعها على مصالح المسجد فى كل عام .

وإن الفصوص التى على الرخام فى مسجد الصخرة من الظاهر من آثار الملك الظاهر (١٢٧٠ م) . وهو الذى بنى على قبر موسى عليه السلام عند الكثيب الأحمر قبلى أريحا قبة ومسجداً (١٢٦٩ م[2]) .

ولما مات الملك الظاهر بيبرس تولى الملك ابنه الملك السعيد ناصر الدين محمد (١٢٧٧ م) . ثم ابنه الثانى الملك العادل بدر الدين سلامش (١٢٧٩ م) . ثم الملك المنصور سيف الدين قلاون (١٢٨٠ م) . وعلى عهده قامت بالقدس منشآت عديدة ، نذكر منها :

(رباط قلاون) ويسمى أيضاً الرباط المنصورى . أنشأه عام ١٢٨٢ م . ووقفه على الفقراء من زوار القدس . إنه واقع قبلى الطريق المؤدية إلى الحرم من الغرب عند باب الناظر .

(المسجد القلندرى) واقع فى طريق دير اللاتين . أنشأه عام ١٢٨٧ م .

(الكبكية) ويسميها الناس القبقبية إنها قبة جميلة واقعة فى تربة ماملا وإلى الشمال الشرقى من البركة فيها ضريح الأمير علاء الدين آيد وغدى بن عبد الله الكبكى (١٢٨٩ م) .

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٩٤ .

(٢) (الأنس الجليل فى تاريخ القدس والخليل) لمجد الدين ص ٣٩٤ وص ٦٠٥ .

ومن الحوادث الهامة التى جرت فى عهده أنه أصدر مرسوماً يقضى بألا يستخدم فى خدمات الدولة أحد من أهل الذمة — اليهود والنصارى — فصرفوا عنها (١٢٨٥ م) .

وعقدت بين السلطان والفرنج فى عكا هدنة (١٢٨٣ م) . مدتها عشر سنين وعشرة اشهر وعشرة أيام وعشر ساعات ، على أن يكون للسلطان جميع الديار المصرية والحجازية ومعظم بلاد الشام والأردن وفلسطين بما فى ذلك القدس[١] .

وبعد وفاته تولى الملك ابنه السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل (١٢٩٠ م) . ثم ابنه الثانى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون (١٢٩٣ م). فالسلطان الملك العادل زين الدين كتبغا (١٢٩٤ م) . فالسلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين (١٢٩٦ م) . فالسلطان الملك الناصر محمد بن قلاون للمرة الثانية (١٢٩٨ م) فالسلطان الملك المظفر ركن الدين بيبرس (١٣٠٨ م) فالسلطان الملك الناصر محمد بن قلاون للمرة الثالثة (١٣٠٩ م) . ودامت سلطنته فى هذه المرة حتى سنة ١٣٤١ م .

وقامت فى القدس على عهد الملك الناصر محمد بن الملك المنصور سيف الدين قلاون المنشآت التالية[٢] :

(رباط الكرد) أمام المدرسة الأرغونية بباب الحديد . أنشأه المقر السيفى كرد سنة (٦٩٣ هـ — ١٢٩٣ م) .

(المدرسة الدوادارية) فى مدخل الباب المعروف بباب الدوادارية .

(الباب العتم) من أبواب الحرم الشمالية . وقفها الأمير علم الدين أبو موسى

---

(١) (تاريخ الدول والملوك) ج ١٤ ص ١٨٨ . و (دولة ابن قلاوون فى مصر) للدكتور محمد جمال الدين سرور ص ٢٣٣ .

(٢) (الأنس الجليل فى تاريخ القدس والخليل) للقاضى مجير الدين .

سنجر بن عبد الله الدوادار الصالحي النجمي سنة ٦٩٥ هـ — ١٢٩٥ م .

(المدرسة السلامية) بباب شرف الأنبياء تجاه المعظمية وإلى الشمال من المدرسة الدوادارية . وقفها الخواجا مجد الدين أبو الفدا إسماعيل السلامي سنة ٧٠٠ هـ — ١٣٠٠ م .

(المدرسة الوجيهية) بخط درج المولى عند باب الغوانمة . وقفها الشيخ وجيه الدين محمد بن عثمان بن أسعد النجا الحنبلي المتوفى سنة ٧٠١ هـ — ١٣٠١ م .

(المدرسة الموصلية) بباب شرف الأنبياء . وقفها الخواجا فخر الدين الموصلي .

(المدرسة الجالقية) على مئتي متر من الحرم إلى الغرب عند ملتقى طريق باب السلسلة بطريق الواد . أنشأها الأمير ركن الدين بيبرس الجالق الصالحي سنة ٧٠٧ هـ — ١٣٠٧ م .

(المدرسة الجاولية) قريبة من درج الغوانمة عند زاوية الحرم الشمالية . وقفها الأمير علم الدين سنجر الجاولي نائب غزة والقدس في ٧١٥ هـ — ١٣٠٥ م. جعلها مدرسة . واتخذها شاهين الذباح داراً للنيابة سنة ٨٠٠ هـ — ١٤٠٠ م . كانت على عهد المكابيين قلعة . ووسعها هيرودس فأضاف إليها برجاً أسماه (برج أنطونيا) . واتخذت فيما بعد مقراً لولاة الرومان. وفيها أقام الوالي الروماني بيلاطس الذي حاكم المسيح ، وهناك حكم عليه بالصلب . وفي عهد المماليك صارت مدرسة ، وداراً للنيابة كما قدمنا . وقد اتخذها الأتراك في نهاية القرن السادس عشر قشلاقاً وداراً للحكم . ووضع المجلس الإسلامي يده عليها في ١٩٢٢م كجزء من أملاكه الموقوفة . واتخذها مدرسة . وعرفت بعد ذلك بالروضة (روضة المعارف الوطنية) . وفي أثناء الثورة الفلسطينية (١٩٣٦ — ١٩٣٨) اتخذها الإنجليز داراً للشرطة . وفي الحرب الفلسطينية (١٩٤٧ — ١٩٤٩) اتخذت مقراً لفرق المناضلين المنتمين إلى الجهاد المقدس، ثم مقراً للكتيبة السادسة من كتائب الجيش العربي .

(المدرسة الكريمية) بباب حطة . وقفها الصاحب كريم الدين عبد الكريم ابن المعلم هبة الله بن مكانس ناظر الخواص الشريفة بالديار المصرية وكان ذلك فى ٧١٨ هـ — ١٣١٩ م . ذكرها ابن بطوطة فى رحلته ، وقال إن واقفها كريم الدين كان قبطيًّا فأسلم .

(المدرسة التنكزية) بباب السلسلة . أنشأها الأكبر تنكز الملكى الناصرى فى ٧٢٩ هـ — ١٣٢٩ م . كانت فى عهد المماليك مدرسة عظيمة وداراً للحديث . سكنها السلطان فرج بن برقوق . وفى عهد قايتباى اتخذت مقرًّا للقضاء والحكام . وفى العهد التركى صارت محكمة شرعية . وبقيت كذلك فى أوائل عهد الاحتلال الإنجليزى ثم سكنها رئيس المجلس الإسلامى الأعلى .

(المدرسة الأمينية) إلى الغرب من باب شرف الأنبياء . أنشأها الصاحب أمين الدين عبد الله سنة ٧٣٠ هـ — ١٣٢٩ م . ويقيم فيها الآن جماعة من دار الإمام .

(الخانقاه الفخرية) مجاورة لجامع المغاربة على بعد مئتى متر من المسجد الأقصى إلى الغرب . وقفها القاضى فخر الدين أبو عبد الله محمد بن فضل الله فى سنة ٧٣٢ هـ — ١٣٣١ م . يسكنها الآن فريق من آل ابن السعود .

(المدرسة الملكية) شمالى الحرم بين المدرسة الفارسية من الشرق والمدرسة الأسعردية من الغرب ، ومن أسمائها (مدرسة الجوكندار) . عمرها الحاج ملك الجوكندار سنة ٧٤١ هـ — ١٣٤٠ م .

ومنها الرواق الممتد من باب الغوانمة إلى باب الناظر (١٣٠٧ م) . فباب القطانين . الكائن فى وسط هذه السوق . و (سوق القطانين) نفسها وكانوا يسمونها (خان تنكز) فقد أنشىء عام ١٣٣٦ م . ومن المنشآت التى تمت على عهده الجامع الكائن بداخل القلعة قريباً من زاويتها القبلية الغربية ١٣١٠م وهو الذى رمم القلعة وحصنها ١٣٢٠ م .

وعلى عهده فتح بالمسجد الأقصى الشباكان اللذان تراهما إلى يمين المحراب الكبير ويساره . وجدد تذهيب قبة المسجد الأقصى ، وقبة الصخرة ؛ وعُمرت القناطر التى على الدرجتين الشماليتين بصحن الصخرة ، مقابل باب حطة وباب شرف الأنبياء . وعمّر (السور القبلى) عند محراب داود .

وعلى عهده عمرت (قناة السبيل) . ووصل الماء إلى المسجد الأقصى ١٣٢٨ م . وأنشىء الحوض الذى يسميه الناس فى يومنا هذا بـ (الكأس) . إنه مصنوع من الرخام وكائن فى الساحة الواسعة بين مسجدى الصخرة والأقصى .

ويظهر أن القدس على الرغم من قدسيتها ومن هذه المنشآت التى قامت فيها كانت يومئذ تعتبر منفى للذين يحل عليهم غضب السلطان . فقد حدثنا المؤرخون عن أشخاص كثيرين ، بعضهم من طبقة الأمراء ، نفوا إلى القدس ، وأمروا بالإقامة الجبرية فيها . ولقد زارها الملك نفسه مراراً ، وتفقد أحوالها .

وبعد وفاته تسلطن ثمانية من أولاده (١٣٤١ — ١٣٦١ م) هم : الملك المنصور أبو بكر ، والملك الأشرف كجك ، والملك الناصر أحمد ، والملك الصالح إسماعيل ، والملك الكامل شعبان ، والملك المظفر حاجى ، والملك الناصر حسن ، والملك الصالح صلاح الدين . فلم يأت واحد من هؤلاء بأى عمل يذكر فى القدس . وما كان الواحد منهم ليتولى الملك ، حتى يقوم أخوه عليه ، أو أحد أقاربه ؛ فيقتله ، أو يقيله ، أو ينفيه .

وكذلك قل عن الأيام التى انقضت على عهد المماليك الذين تسلطنوا من بعدهم (١٣٦١ — ١٣٨١ م) . وهم الملك المنصور محمد بن حاجى ، والملك الأشرف شعبان بن حسن ، والملك الصالح حاجى بن شعبان . وهو آخر من حكم هذه البلاد من دولة المماليك الأولى ويسمونها البحرية أو التركمانية .

ومن المنشآت التى وصلت إلينا أخبارها والتى أنشئت فى أواخر هذه الدولة :

(المدرسة الفارسية) بين الأمينية من الشرق والملكية من الغرب . وقفها الأمير فارس الدين ألبكى بن الأمير قطلو ملك بن عبد الله نائب السلطان فى سنة ٧٥٥ هـ ــ ١٣٥٤ م .

(المدرسة الأرغونية) عند الباب الحديد من أبواب الحرم فى الناحية الغربية . شرع فى إنشائها الأمير أرغون الكاملى سنة ٧٥٨ هـ ــ ١٣٥٧ م . وأكملها الأمير ركن الدين بيبرس سنة ٧٥٩ هـ ــ ١٣٥٨ م . يسكن جانباً منها جماعة من آل العفيفى . وفى الجانب الآخر دفن المغفور له الملك حسين بن على الذى أوقد نار الثورة ضد الأتراك سنة ١٣٣٤ هـ ــ ١٩١٥ م .

(المدرسة التشتمرية) بباب الناظر على مقربة من الحسنية . وقفها الأمير تشتمر السيفى من أمراء الملك الناصر حسن بن محمد قلاون سنة ٧٥٩ هـ ــ ١٣٥٧ م .

(المدرسة الطشتمرية) فى طريق باب السلسلة . بناها الأمير طشتمر العلائى سنة ٧٨٤ هـ ــ ١٣٨٢ م .

(المدرسة الخاتونية) بباب الحديد غربى الحرم وإلى الشمال من باب القطانين . وقفتها أغل خاتون بنت شمس الدين محمد بن سيف الدين القازانية البغدادية فى ٧٥٥ هـ ــ ١٣٥٤ م . وأكملت عمارتها أصفهان شاه بنت الأمير قازان شاه سنة ٧٨٢ هـ ــ ١٣٨٠ م . ودفن فى جانب منها الأمير محمد على من أمراء الهند المسلمين ١٣٤٩ هـ ــ ١٩٣٠ م .

(المدرسة البلدية) إلى الشمال من باب السكينة . وكانت فى ما مضى تعرف بمدرسة الأمير منكلى نسبة إلى واقفها الأمير سيف الدين منكلى بن الأحمدى سنة ٧٨٢ هـ ــ ١٣٨٠ م .

(المدرسة الأسعردية) على مقربة من الجاولية شمالى الحرم . بنيت حوالى سنة ٧٦٠ هـ ــ ١٣٥٨ م . وقفها الخواجا مجد الدين عبد الغنى بن سيف الدين

أبي بكر بن يوسف الأسعردى سنة ٧٧٠ هـ — ١٣٦٨ م . جدد عمارتها المجلس الإسلامى الأعلى فى أوائل القرن العشرين ، واتخذها داراً للكتب باسم (المسجد الأقصى) .

(دار القرآن السلامية) تجاه دار الحديث على طريق باب السلسلة . وقفها سراج الدين عمر بن أبي بكر أبي القاسم السلامى ، سنة ٧٦١ هـ — ١٣٥٩ م .

(المدرسة المنجكية) إلى الشمال من باب الناظر . أنشأها الأمير سيف الدين منجك سنة ٧٦٢ هـ — ١٣٦٠ م . اتخذها المجلس الإسلامى خلال الربع الأول من القرن العشرين مقراً لأعماله . وقد ضم إليها جزءاً من الدار المجاورة والمعروفة بالحسنية .

(المدرسة المحدثية) على مقربة من الوجيهية بباب الغوانمة . وقفها عز الدين أبو محمد عبد العزيز العجمى الأردبيلى سنة ٧٦٢ هـ — ١٣٦٠ م . ألحق جانب منها بكلية روضة المعارف الوطنية . ويقيم فى الجانب الآخر جماعة من آل الشهابى

(المدرسة الحسنية) على باب الأسباط . وقفها شاهين الحسنى الطواشى فى زمن الملك الناصر حسن المتوفى سنة ٧٦٢ هـ — ١٣٦٠ م . وانتقلت مع الزمن إلى جماعة من النصارى .

(المدرسة الطازية) فى طريق باب السلسلة من الشمال ، تجاه تربة بركة خان . مؤسسها الأمير طاز من مماليك السلطان محمد المتوفى سنة ٧٦٣ هـ — ١٣٦٢ م . وكان يدرس فيها فطاحل العلماء المقدسيين . يسكنها الآن جماعة من آل هداية .

(المدرسة البارودية) بباب الناظر بالقرب من التشتمرية . وقفتها الست الحاجة سفرى خاتون بنت شرف الدين أبى بكر بن محمود المعروف بالبارودى سنة ٧٦٨ هـ — ١٣٦٦ م .

(المدرسة الحنبلية) بباب الحديد . وقفها الأمير بيدمر نائب الشام سنة

٧٨١ هـ — ١٣٧٩ م . يسكنها اليوم جماعة من آل القطب .

(المدرسة اللؤلؤية) بخطمر زبان بجوار حمام علاء الدين الأباصيرى . وقفها الأمير لؤلؤ غازى عتيق الملك الأشرف شعبان بن حسن سنة ٧٨١هـ—١٣٧٩ م .

ثم جاءت دولة المماليك الثانية ويسمونهم الأبراج أو الشراكسة . ومؤسسها هو الملك الظاهر برقوق . (١٣٨٢ م) . ومن المنشآت التى قامت على عهده :

(خان السلطان) على طريق باب السلسلة . وكان يعرف بالوكالة . ١٣٨٦م .

(دار الست) فى عقبة التكية بين خان الزيت وحارة الواد . بنتها الست طنشق بنت عبد الله المظفرية ١٣٩٨ م . ولما توفيت دفنت فيها . ويسميها المقدسيون فى يومنا هذا (تربة خاصكى سلطان) . وقد عمر الملك الظاهر برقوق (قناة العروب) .

(المدرسة الجهاركسية) بجوار الزاوية اليونسية إلى الشمال . وقفها الأمير جهاركس الخليلى أمير آخور الملك الظاهر برقوق سنة ١٣٨٨ م .

(المدرسة الطولونية) فوق الرواق الشمالى من أروقة الحرم إلى الغرب من باب الأسباط . أنشأها شهاب الدين أحمد بن الناصرى محمد الطولونى فى زمن الملك الظاهر برقوق . على يد مملوكه أقبغا سنة ٨٠٠ هـ — ١٣٩٧ م .

بعد وفاة الملك الظاهر برقوق تولى السلطنة الملوك الآتية أسماؤهم : — الملك الناصر فرج بن برقوق ١٣٩٨ م . والملك المنصور عبد العزيز بن برقوق ١٤٠٥ م والملك الناصر فرج بن برقوق للمرة الثانية ١٤٠٥ م . والإمام المستعين بالله الذى لقب بالملك العادل وجمع بين السلطتين الروحية والسياسية ١٤١٢ م . والشيخ المحمودى ١٤١٢ م . وولده الملك المظفر أحمد ١٤٢١ م . والملك الظاهر ططر ١٤٢١ م . والملك الصالح محمد ١٤٢٢ م .

وقامت فى القدس على عهد هؤلاء بعض المنشآت ، نذكر منها :

(المدرسة النصيبية) غربى المدرسة الأسعردية فى شمال الحرم . وقفها الأمير علاء الدين على بن ناصر الدين محمد نائب قلعة نصيبين . وقفها عندما كان فى نيابة القدس ٨٠٩ هـ — ١٤٠٦ م . وأما مجير الدين فقد أسماها (المدرسة الصبيبية) . أضيف جانب منها إلى الكلية المعروفة بروضة المعارف الوطنية .

(المدرسة الفنرية) مقابل الطولونية من الشرق، على مقربة من باب الأسباط . أنشأها شهاب الدين الطولونى وجعلها للملك الظاهر برقوق . واشتراها رجل من الروم اسمه محمد شاه ابن الفنرى الرومى ، فوقفها، ونسبت إليه سنة (٨١٥ هـ) .

(المدرسة الكاملية) بباب حطة بجوار المدرسة الكريمية من الشمال وقفها كامل من أهل طرابلس سنة ٨١٦ هـ — ١٤١٣ م .

وفى زمن الملك الأشرف برسباى الذى دام على سرير الملك ستة عشر عاماً (١٤٢٢ — ١٤٣٧ م) . أنشئت فى القدس منشآت عديدة ، نذكر منها :

(سبيل شعلان) من السبل الكائنة فى ساحة الحرم بين صحن الصخرة وباب الناظر فإن هذا السبيل الذى أنشأه الملك المعظم عيسى (١٢١٦ م) . جدده الملك الأشرف برسباى (١٤٢٩ م) .

(سبيل علاء الدين البصرى) غربى الحرم ١٤٣٥ م .

(المدرسة الباسطية) شمالى الحرم بالقرب من باب العتم . أنشأها شيخ الإسلام شمس الدين محمد الهروى شيخ المدرسة الصلاحية وناظر الحرمين . ومات قبل إتمام عمارتها . فعمرها القاضى زين الدين عبد الباسط بن خليل الدمشقى ناظر الجيوش المنصورة وعزيز المملكة سنة ٨٣٤ هـ — ١٤٣٠ م . يسكنها جماعة من آل جار الله .

(المدرسة القادرية) بين باب حطة من الغرب ومئذنة إسرائيل من الشرق . أنشأتها مصر خاتون (وفى قول خديجة خاتون) زوجة الأمير ناصر الدين محمد ابن القادر فى أيام السلطان الملك الأشرف برسباى سنة ٨٣٦ هـ — ١٤٣٢ م .

يخيم عليها اليوم الخراب وتحفظ فيها نعوش الأموات .

(المدرسة الحسنية) بباب الناظر غربى الحرم فوق رباط علاء الدين البصير . وقفها الأمير حسن الكشكيلى ناظر الحرمين ونائب السلطنة فى القدس سنة ٨٣٧ هـ — ١٤٣٣ م . يقطنها الآن جماعة من آل البديرى .

(المدرسة العثمانية) بباب المتوضأ تجاه سبيل قايتباى . وقفتها امرأة من الروم تسمى أصفهان شاه خاتون بنت الأمير محمود العثمانى سنة ٨٤٠ هـ — ١٤٣٧ م . يسكنها الآن جماعة من آل الفتيانى .

لم يجر فى القدس شىء يستحق الذكر على عهد الملك العزيز يوسف بن برسباى (١٤٣٧ م) . سوى ما سمعناه عن (المدرسة الجوهرية) التى وقفها الصفدى جوهر زمام الإدارة الشريفة سنة ٨٤٤ هـ — ١٤٤٠ م . أنها واقعة بباب الحديد تجاه المدرسة الأرغونية . ويسكنها الآن جماعة من آل الخطيب .

وأما على عهد خلفه الملك الظاهر جقمق (١٤٣٨ م) . فقد وقعت حوادث نذكر منها أن خاصكياً اسمه (أينال باى) أرسل إلى القدس للكشف على الأديار ، فهدم ما استجد بدير صهيون ، وانتزع قبر داود من يد النصارى ، وأخرج المستجد من دير السريان ، فصار زاوية . وهدم البناء المستجد ببيت لحم . وقلع الدرابزين المستجد بالقمامة ، فأخذ إلى المسجد الأقصى . وقصارى القول هدم كل ما استجد فى أديرة النصارى . وأصابهم عامئذ (١٤٥٢ م) . كرب عظيم .

وتولى الملك ، بعد الظاهر جقمق ، ابنه الملك المنصور عثمان (١٤٥٣ م) فالملك الأشرف إينال (١٤٥٣ م) . وعلى عهده عمر المسجد الأقصى (١٤٦٠م) وأنشىء السبيل القائم بين المطهرة ومسجد الصخرة والمعروف فى يومنا هذا بسبيل قايتباى .

ثم تولى الملك الملك المؤيد أحمد بن إينال (١٤٦٠ م) . فالملك الظاهر

خوشقدم (١٤٦٠ م) . وعلى عهده عمرت (قناة السبيل) فى ١٤٦٢ م . وشرع فى إنشاء المدرسة الكائنة بجوار باب السلسلة والتى سميت بعدئذ (المدرسة الأشرفية .)

ولم يحدث فى القدس شىء ولا أنشئت منشآت تستحق الذكر على عهد الملك الظاهر بلباى (١٤٦٧ م) . لاولا الملك الظاهر تمربغا . وإنما حدثت على عهد خلفه الملك الأشرف قايتباى (١٤٦٧ ــ ١٤٩٥ م) حوادث وأنشئت منشآت نذكر منها :

(المدرسة المزهرية) بباب الحديد تجاه المدرسة الجوهرية . وقفها الزينى أبو بكر بن مزهر الأنصارى ٨٨٥ هـ ــ ١٤٨٠ م . يسكن فى جانب منها اليوم فريق من آل الشعبانى .

(المدرسة الزمينية) غربى الحرم فوق الإيوان الذى بباب القطانين . أنشأها الخودجكى الشمسى محمد بن الزمرد خان سنة ٨٨٦ هـ ــ ١٤٨١ م . يسكنها جماعة من آل العفيفى .

(المدرسة الأشرفية) بالقرب من باب السلسلة وإلى الشمال منه . ومن أسمائها السلطانية . بناها فى الأصل الأمير حسن الظاهرى باسم الملك الظاهر خوشقدم (٨٧٥ هـ ــ ١٤٧٠ م) وكانت تدعى السلطانية . ولما توفى الملك الظاهر نسبت إلى الملك الأشرف قايتباى فسميت بالأشرفية . ولما زار قايتباى القدس أمر بهدمها فأعاد بناءها ٨٨٧ هـ ــ ١٤٨٢ م . إنها من أجمل المدارس التى بنيت فى ذلك العهد . و (السبيل) الكائن بين باب السلسلة وباب السكينة .

(وسبيل قايتباى) الكائن فى داخل الحرم فوق البئر المقابلة لدرج الصخرة . ذلك السبيل الذى أنشأه إينال ، وجدد عمارته قايتباى .

وأما الحوادث التى حدثت فى القدس فى عهد قايتباى فكثيرة منها :

أنه قام خلاف شديد بين ناظر الحرمين ونائب السلطان، سرى إلى السكان .

واضطرب إثر ذلك حبل الأمن . فكثرت السرقات ، وانتشر قطاع الطرق فى جميع أنحاء البلاد .

وزاد الطين بلة احتباس المطر ، وغلاء الأسعار وتفشى الوباء ، وهنا الطامة الكبرى . إذ قيل إن عدد الذين كانوا يلاقون حتفهم من جراء الطاعون فى اليوم الواحد زاد على المئة .

وقام خلاف شديد بين المسلمين واليهود حول دار واقعة فى حارة اليهود بين كنيس اليهود ومسجد المسلمين . فكان حكم قضاة المدينة ومشايخهم فى صالح اليهود . ولما رفع المسلمون أمرهم إلى السلطان بمصر ، نقض هذا حكم القضاة . ثم عاد السلطان فانصاع لإلحاح اليهود . وأصدر أمره فى صالحهم . فذاعت عندئذ فى القدس شائعات تقول إن اليهود ما كانوا لينجحوا لولا ما بذلوه من أموال وفيرة للخزائن السلطانية . فثار المسلمون ، وهدموا الكنيس . وذلك قد جعل السلطان قايتباى يغضب غضباً لا مزيد عليه . فأمر بإحضار زعماء المدينة إليه . وأرسلوا مصفدين بالأغلال . وهناك ضربوا وسجنوا . ولم يطلق سراحهم إلا بعد أن هدأت الفتنة .

واتهم رجل من نصارى القدس بأنه سب الإمام عليا وزوجه فاطمة الزهراء . وعند ما ثبتت التهمة أعدم فى دار النيابة . وتهدم جانب من كنيسة القيامة بسبب كثرة الأمطار . . .

ورفع سكان القدس شكواهم إلى السلطان ضد نائبه فى القدس خضر بك ، لأن هذا كان ظالماً وكان سفاكاً للدماء . فحقق السلطان فى شكواهم . ولما تأكد من صحتها استحضره إليه فضربه ، ثم أقاله .

ولم يكن خلفه (دقماق) بأعدل منه ، أو أحكم . بل كان هو أيضاً ظالماً . فثار المقدسيون ضده . وظلوا يلحون على السلطان إلى أن أقاله من منصبه .

ولم يكن الوضع الدولى يومئذ بأفضل من الوضع الداخلى ، فقد ساءت علاقات

المماليك مع الحكومات المجاورة ، ولا سيما مع الأتراك العثمانيين . وراح كلا الفريقين يحشد جنده على الحدود . وقبل أن تقع الحرب بينهما توفى قايتباى (١٤٩٥ م) . فاختلف الأمراء . وازداد الموقف سوءاً . فلا يكاد يعتلى العرش ملك ، حتى يثور ضده مماليكه وأعوانه ؛ فيخلعوه ، أو يقيلوه .

وهكذا كان مصير الملك الناصر محمد بن قايتباى الملقب بأبى السعادة (١٤٩٥ م) . والملك الأشرف قنسو خمسمئة (١٤٩٥ م) . والملك الظاهر قنسو الثانى الملقب بأبى سعيد (١٤٩٨ م) . والملك الأشرف قنسو الثالث الملقب بجنبلاط (١٤٩٩ م) . والملك العادل سيف الدين طومان باى (١٥٠٠م .) والملك الأشرف قنسو الرابع الملقب بالغورى (١٥٠٠ م) .

وعلى عهده ازداد الموقف سوءاً بين المماليك والأتراك العثمانيين . إذ رحب هذا بكركود أخى السلطان سليم بن بايزيد ، وأمده بعشرين بارجة حربية لمقاتلة أخيه ، وافتتاح القسطنطينية . وهذا قد أغضب السلطان سليماً ، وجعله يفكر فى افتتاح مصر . فسار إليها ، وحارب المماليك فى (مرج دابق) على مقربة من حلب ؛ فتغلب عليهم ، وقتل سلطانهم قنصوه الغورى .

بايع المماليك ، إثر هذا الحادث ، الأمير طومان باى . وحاول هذا أن ينقذ البلاد من الأتراك . إلا أنه فشل . وتمكن السلطان سليم من احتلال هذه البلاد . ثم احتل مصر (١٥١٧ م) . وشنق طومان باى .

وهكذا انتهت دولة المماليك الشراكسة . وحلت مكانها دولة الأتراك العثمانيين.

الباب الرابع

الفتح العثمانى

القدس فى عهد الأتراك العثمانيين — القدس وإبراهيم باشا — القدس والأتراك العثمانيون (للمرة الثانية).

القدس فى عهد الأتراك العثمانيين

(من ١٥١٧ م — إلى ١٨٣١ م)

احتل السلطان سليم الملقب بياوز القدس (١٥١٧ م[١]) بعد أن تغلب على المماليك فى معركة (مرج دابق) ، وقتل سلطانهم طومان باى ، واحتل حلب وحمص وحماه وسائر بلاد الشام . ومنها سار إلى مصر ، فاحتلها . وتخلى له آخر الخلفاء العباسيين ، محمد المتوكل على الله ، عن الخلافة . وسلمه مفاتيح الحرمين . فأصبح الآمر الناهى فى تركيا ومصر والشام . وأقام على الشام نائباً للسلطنة هو : جان بردى الغزالى[٢] . وكانت القدس من أعماله .

عند ما دخل السلطان سليم القدس زار قبور الأنبياء ورأى الأماكن المقدسة والآثار القديمة . وأتاه وهو فى القدس سفير من إسبانيا يحمل رجاء مليكها . فقبل رجاءه ، وأتاح للنصارى الحج إلى بيت المقدس على شريطة أن يؤدوا الرسم الذى كانوا يؤدونه فى زمن المماليك ، وقد أولم له سكان المدينة وليمة أقاموها فى الفناء الواسع حول الصخرة . وأتوا له ولجنده بالطعام فى أوان تسمى (الهنايب) فتساءل عن السبب . فقيل له : إنا قوم فقراء . ثم بحثوا له عن تسلط العربان وسكان القرى المجاورة . فاعتزم عمارة السور . ولكنه رجع إلى عاصمة ملكه القسطنطينية ، وتوفاه الله ، قبل أن يتمكن من تعميره . ولما توفى (١٥٢٠ م)

---

(١) هذا ما اتفق عليه أكثر المؤرخين . وأما المستر ريشموند E. T. Richmond فقد قال فى كتابه The Dome of the Rock ص ٣٧ إن القدس فتحت عام ١٥١٢ م .

(٢) (عثمانلى تاريخى) للمؤرخ التركى أحمد راسم ص ٢٠٠ .

تبوأ العرش ولده السلطان سليمان الأول الملقب بالقانونى . وعلى عهده قامت بالقدس منشآت كثيرة ، نذكر منها :

أنه هو الذى جدد عمارة السور . وقد دامت عمارته خمسة أعوام (١٥٣٦ — ١٥٤٠ م) . ورمم القلعة (١٥٣١ م) . وأنشأ البرج الكائن على يمين الداخل من باب الخليل (١٥٣٨ م) . وعمر بركة السلطان على طريق المحطة . والسبيل الواقع قبالة البركة المذكورة . والسبل الكائنة بباب السلسلة أمام المدرسة التنكزية ، وفى طريق الواد ، وفى ساحة الحرم إلى الشمال من باب شرف الأنبياء ، وفى طريق باب الناظر ، وبالقرب من باب الأسباط (١٥٣٦ م) . وقد عمر قبة الصخرة (١٥٤٢ م) ، وأعاد تبليطها . وعمر جدران الحرم وأبوابه . وسد الباب الذهبى من أبواب الحرم ، وفتح الباب المعروف بباب (ستنا مريم) . وجدد القاشانى الكائن فى قبة السلسلة (١٥٦١ م) . وعلى عهده أنشئت التكية المعروفة بتكية خاصكى سلطان فى عقبة المفتى . أنشأتها زوجته الروسية روكسيلانة (١٥٥٢ م) . والمدرسة الرصاصية بحارة الواد (١٥٤٠ م) . أنشأها الأمير بايرام جاويش الذى كان مناظراً لعمارة السور .

وأنشىء مسجد الطور (١٥٣٧ م) فى المكان الذى تقوم عليه كنيسة الصعود . وهو الذى عهد بحراسة الدرب السلطانى بين القدس ويافا إلى آل أبى غوش ، وأجازهم أن يحصلوا من السياح بعض العوائد (١٥٢٠ م) .

وعلى عهده سكت فلوس جديدة سميت باسمه . وفرضت على الحجاج المسيحيين رسوم يدفعونها لدى ولوجهم كنيسة القيامة .

ولقد تولى السلطنة بعده ابنه السلطان سليم الثانى (١٥٦٦ م) . فالسلطان مراد الثالث بن سليم الثانى (١٥٧٤ م) . فالسلطان محمد الثالث بن مراد الثالث (١٥٩٤ م) . فالسلطان أحمد الأول بن محمد الثالث (١٦٠٣ م) . وعلى عهده عرف الناس التبغ لأول مرة ، واستعملوه فى هذه البلاد (١٦٠٣م) . وحرّم

بيع الخمور فى القدس وفى جميع أنحاء المملكة (١٦١٣ م) .

ثم جاء السلطان مصطفى الأول بن محمد الثالث (١٦١٧ م) . فالسلطان عثمان الثانى بن أحمد الأول (١٦١٧ م) . فالسلطان مصطفى الأول للمرة الثانية (١٦٢١ م) . ولم يرد ذكر كثير للقدس فى أيام هؤلاء السلاطين .

وأما فى زمن السلطان مراد الرابع (١٦٢٢) ، فقد كانت القدس تابعة لمصر . ولقد حدثت فيها حوادث تستحق الذكر : منها أنه حظر على الناس شرب القهوة ، وتدخين التبغ (١٦٣٣ م) . واختل الأمن ؛ فراح الأشقياء يقطعون الطرق ، ويخربون ينابيع المياه . وذلك قد حدا بالسلطان لإقامة قلعة سميت باسمه (قلعة مراد) عند برك سليمان على طريق الخليل . وأنشأ فى داخلها مسجداً وخمسين منزلا لسكنى الجند . وكان يقوم على حراستها دزدار ، وأربعون جندياً مسلحين بالمدافع والأسلحة الكاملة .

بعد السلطان مراد الرابع تولى السلطنة إبراهيم بن أحمد الأول (١٦٣٩ م) . ثم تولاها ابنه السلطان محمد الرابع (١٦٤٨ م) . وعلى عهده بنيت المئذنة الكائنة بداخل القلعة (١٦٥٥ م) . وأنشىء المصلى الكائن بجانب سبيل شعلان فى الحرم القدسى ١٦٥١ م .

إن أحسن وصف للقدس فى ذلك العهد نجده فى مخطوط للسائح التركى الشهير (أولياجلبى) . فقد زارها حوالى سنة ١٦٧٠ للميلاد ، ووصفها وصفاً جيداً . فمدح خبزها وثمارها وخضرها . ويبدو أنها اشتهرت يومئذ بمسكها وعطرها وبخورها ومباخرها النحاسية . وكان فيها ألفان وخمسة وأربعون دكاناً ، وستة خانات عظيمة ، ومحتسب ، وأسواق ، وثلاثة وأربعون ألف كرم . ورأى فى وسط هذه الكروم زهاء ألف وخمسمئة منظرة . وكان يسكنها ستة وأربعون ألف نسمة أكثرهم عرب مسلمون . وكان فيها كنيس للأرمن ، وثلاث كنائس للروم ، وكنيسان لليهود ، ومئتان وأربعون محراباً للصلاة ، وسبع دور للحديث ،

وعشر دور للقرآن ، وأربعون مدرسة للبنين . وستة حمامات ، وثمانية عشر سبيلا يشرب الماء منها العطشان ، وتكايا لسبعين طريقة منها الكيلانية والبدوية والسعدية والرفاعية والمولوية .

ويظهر مما كتبه هذا السائح وغيره من السياح الأجانب أن كل شيء في القدس كان يومئذ على غاية ما يرام ، خلا (الأمن) . فقد كان هذا مفقوداً ، ولا سيما خارج أسوار القدس . وكانت القدس تابعة لطرابلس الشام .

وفى عام ١٦٨٧ م تولى السلطنة السلطان سليمان الثانى بن إبراهيم . ثم تولاها أخوه السلطان أحمد الثانى (١٦٩٠ م) . فالسلطان مصطفى الثانى بن محمد الرابع (١٦٩٤ م) . فالسلطان أحمد الثالث (١٧٠٣ م) . وعلى عهده ثار على الدولة نقيب الأشراف فى القدس السيد محمد (١٧٠٥ م) فساقت عليه جيشاً من الشام وأخمدت ثورته . وكانت القدس يومئذ تابعة لأيالة صيدا وعكا . ثم جاء السلطان محمود الأول بن مصطفى الثانى (١٧٣٠ م) . وعلى عهده تجدد بناء حائط الخندق (١٧٣١ م) ، وعمارة مسجد القلعة (١٧٣٨ م) . وكانت القدس يومئذ تابعة للشام . ثم جاء السلطان عثمان الثالث (١٧٥٤ م) . فالسلطان مصطفى الثالث بن أحمد الثالث (١٧٥٧ م) . فأخوه السلطان عبد الحميد الأول (١٧٧٣ م) . فالسلطان سليم الثالث بن مصطفى الثالث (١٧٨٨ م) .

وعلى عهد هذا السلطان غزا نابوليون هذه البلاد (١٧٩٩ م) [1] وذاقت

---

(١) كان نابوليون يعتقد أن من يحتل مصر لا يكون آمناً فيها إلا إذا احتل أرض الشام . إنه وإن كان قال فى بيانه الذى أذاعه على السكان أنه ما جاء إلى هذه البلاد إلا ليقهر الجزار ، إلا أنه فى الحقيقة كان يرمى إلى التحالف مع الطوائف المنتشرة فى سوريا ضد الترك والحيلولة دون رجوع مصر لأحضان تركيا .

بعد أن احتل نابليون غزة ويافا والرملة كان الناس يظنون أنه لا بد وأن يولى وجهه شطر بيت المقدس ليفتحها ؛ حتى إن الأتراك سجنوا فى كنيسة القيامة جميع الروم الأرثوذكس . ولكنه لم يفعل . بل أجاب الذين سألوه عن أهدافه : « . . . أن القدس غير مذكورة فى الخطة التى رسمتها . . إنى

من جراء حكم أحمد باشا الجزار (١٧٨٦ م)[١] ومحمد باشا أبو المرق ما ذاقت . وهذا مما حمل الأشراف وسادات البلاد على أن يبيعوا أولادهم فى السوق بيع العبيد .

بعد السلطان سليم الثالث تولى الملك السلطان مصطفى الرابع بن عبد الحميد الأول (١٨٠٧ م) فأخوه السلطان محمود الثانى (١٨٠٨ م) . وعلى عهده وقعت فى القدس وقائع ، نذكر منها أنه هو الذى ألغى نظام (الانكشارية) وطارد رجالها مطاردة لا هوادة فيها . حتى إنه منع الناس من ذكرهم (١٨١٩)[٢] ومنع المسيحيين الأرثوذكسيين (١٨٢٠ م) من تعمير معابدهم ؛ إذ أنه كان

= لا أريد التحرش بسكان الجبال والتوغل فى مآزق يصعب الخروج منها ...» والحقيقة أن اهتمام نابوليون كان منصباً على المواقع ذات الأهمية الحربية . وما كانت للقدس يومئذ تلك الأهمية .

ومن قائل إنه كتب إلى أهل القدس رسائل طلب إليهم فيها أن يخضعوا لأوامره . فأجابوه أنهم تابعون لأيالة عكا . فالذى يحتل عكا ويصدر أوامره منها يخضعون لأوامره ؛ وهم لا يريدون أن ينخرطوا فى حرب أو ضرب . لأنهم يعيشون فى بلد طافح بالأماكن المقدسة ،فانصرف إلى عكا ، يريد أن يحتلها . وكان الجزار قد تحصن فيها . إلا أنه لم ينجح ، ورجع إلى مصر مدحوراً (١٧٩٩ م) .

(١) ولد الجزار سنة ١٧٢٠ فى إحدى قرى البوسنة . وهرب وهو شاب يافع من بلاده إلى الآستانة . ومنها إلى مصر حيث بيع فيها بيع العبيد . واستخدمه (أحمد بك أبو الذهب) فى قصره ، ففتك بأعدائه ولقب بالجزار . وعهدت إليه الحكومة العثمانية بعدئذ بولاية بيروت (١٧٧٦ م) فما كاد يتسلمها حتى أعلن الثورة ضد الدولة . ويظهر أن الدولة رأت من مصلحتها أن تستميله إلى جانبها ، فجعلته وزيراً ووسعت سلطته من الشام إلى غزة وعريش مصر . الأمر الذى اتخذه نابوليون ذريعة لفتح هذه البلاد (١٧٩٩ م) .

ولما اندحر نابوليون ، ازداد الجزار ختلا . فعاد يمثل مظالمه ، لا فرق فى نظره بين مسلم ومسيحى ويهودى .

وظلت البلاد تذوق الأمرين من جراء فعاله إلى أن مات فى عكا (١٨٠٤ م) ودفن بها .

(٢) ذكرنا فى كتابنا المفصل عن (تاريخ القدس) الشيء الكثير عن (ثورة الانكشارية) تلك الثورة التى وقعت فى ١٨١٩ م . وعما فعلته السلطات التركية من أجل إخماد تلك الثورة والقضاء على رجالها . ونود أن نلخص هنا ما قلناه هناك بوجه التفصيل ، فنقول :

« حاصر رجال الانكشارية متسلم القدس (مصطفى آغا الطزينى) فى مكتبه بدار الحكومة . فطلبوا منه بتحريض من الأرمن أن يوقف الروم عند حدهم ، وأن يمنعهم عن الاستمرار فى عمارة الكنيسة . تلك الكنيسة التى كان الأرمن قد حرقوها (١٨٠٨ م) . وأصر الانكشاريون على =

يكرههم ، ولا سيما من كان منهم يونانى الأصل[1] . وسمح للاتين ببناء غرف جديدة فى ديرهم ، وتعمير ما يخصهم فى كنيسة القيامة . وأمر المسلمين من سكان بيت المقدس أن يخلعوا عن رؤوسهم (القاووقة) التى كانوا يلبسونها حتى ذلك التاريخ . ووضعت القدس والشام معاً تحت تصرف عبد الله باشا والى عكا .

ويظهر أن صلات هذا الباشا مع الحكومة المركزية فى القسطنطينية كانت سيئة لدرجة أنها حرضت عليه فى بادئ الأمر ولاة الشام وطرابلس وحلب . ثم عادت ، فعفت عنه . ولكنها أخذت القدس منه ، فجعلتها تابعة للشام . وكان على الشام وال اسمه مصطفى باشا . وكان هذا ظالماً . ففرض على الناس ضرائب لا عهد لهم بمثلها من قبل . فقامت فى القدس اضطرابات . وعقب

= أن يتولوا هم حماية القلعة بدلا من الجند الذين أرسلوا من الشام . وهددوه بالقتل إذا هو لم يذعن لمطالبهم .

فاستمهلهم المتسلم ريثما يستشير يوسف باشا فى الشام . وقبل أن يأتى الجواب راحوا يعملون يد النهب والتخريب في الروم وديرهم . وفيما كانت الثورة التى أوقدوا نارها متأججة كان المدد قد أتى من الشام . وعدد من الخيالة المغاربة قد وصلوا بقيادة (أبى ذريعة) . فدخلوا المدينة ليلا من الباب المعروف بباب الأسباط . وما كاد فجر اليوم التالى ينبلج حتى كان معظم الثوار قد وقعوا فى الشرك . فألقى القبض عليهم ، ونكل بهم تنكيلا . وقيل إن المتسلم وحده خنق بيده ٣٨ رجلا من رؤوس الفتنة فى ليلة واحدة » .

(١) ذلك لأنهم راحوا يعضدون (اليونان) الذين نادوا باستقلال بلادهم عن تركيا (١٨٢٠) . وقد ناشد السلطان محمود الأهالى أن يكونوا على حذر من الروم ، وأن يتسلحوا ، وأن يعرفوا كيف يصونون أماكنهم المقدسة . فتسلح المسلمون شيباً وشباناً . وهاجموا البطريركية وعلى رأسهم المتسلم سليمان أفندى وكان هذا من قبل يهودياً ، فاهتدى بدين الإسلام ؛ كما كان معهم موسى بك الغزاوى رئيس البنادق والأسلحة ، وقائد حامية القدس . فسادت الفوضى فى المدينة . وحل بالنصارى كرب شديد ؛ ولا سيما الروم ؛ فقد صودرت أسلحتهم ، وأمروا بلبس السواد ، واستخدموا بنقل المدافع من مكان إلى مكان . ورفعت الضرائب المطلوبة منهم من ستين ألف قرش إلى مئة ألف . وكاد الرعاع يفتكون – بتحريض المتسلم – بجميع المسيحيين ؛ لولا أن درويش باشا والى الشام قد تلافى الأمر . وكذلك فعل أفندية القدس وأعيانهم المسلمون الذين راحوا يحثون الشعب الهائج على السلم والسكينة . وأذاعوا بياناً مشتركاً أمضوه كلهم طالبين عدم تصديق الشائعات التى يذيعها المغرضون ، مستنكرين الاعتداء على المسيحيين الذين جاء ذكرهم فى القرآن بأن « منهم قسيسين ورهباناً » وأنهم أقرب مودة للذين آمنوا من اليهود . وهكذا هدأت الثورة ، وعادت المياه إلى مجاريها .

الاضطرابات فتنة (١٨٢٤ م) . ورفض المقدسيون أن يدفعوا للجباة الضرائب التى طلبوها منهم ؛ لا ، بل وطردوهم من منازلهم . وكذلك فعل الفلاحون فى قراهم . ولم يستطع المتسلم ، ولا الوالى قمع الفتنة . ولم يكن فى القدس يومئذ سوى ستين جندياً . فأرسل عليهم مصطفى باشا جيشاً قوامه خمسة آلاف رجل . وجاء هو معهم . فهبط نابلس أولا . وقضى فيها عشرين يوماً ، تمكن خلالها من تحصيل جميع الأموال المتأخرة . ولما سمع أهالى جبل القدس بما جرى فى نابلس هجروا قراهم ، واتخذوا المغاور والكهوف ، فى الجبال والأودية مأوى لهم (١٨٢٥ م) .

ولما وصل الباشا إلى القدس ، لم يخرج أحد من الأهلين لاستقباله . ولم يتقدم أحد منهم لدفع ما عليه من المال . فغضب ، وأصدر أمره للجند بمصادرة أموالهم وتخريب أملاكهم . ولكن المنازل كانت كلها خاوية . وليس فيها ما يمكن أن يصادر .

وما كاد الباشا يرحل عن المدينة حتى رجع السكان إلى منازلهم ، وأعلنوا الثورة من جديد ، وهاجموا القلعة ، فاستولوا عليها ، وأسروا كل من كان فيها ، وجردوهم من سلاحهم ، وراحت أعلام الثائرين تخفق فوق البرج والأسوار .

ونجا المستلم بنفسه ، فرحل من المدينة بعد أن سمح له الثوار بذلك . وكان بإمكانهم أن يقتلوه . وكذلك فعلوا بموسى بك قائد الجيش ، الذى أراد ، بعد أن انتهى من حملته التأديبية فى بيت لحم ؛ أن يدخل القدس ؛ فمنعه سكانها ، وأسمعوه من قوارص الكلم ما جعله ييأس وقد قفل راجعاً إلى الشام .

ليس هذا فحسب . بل جرد المقدسيون من السلاح جميع الأتراك الذين كانوا فى المدينة . وبكلمة أخرى ضيقوا الخناق على كل شخص لم يكن عربياً من سكان المدينة . وعهدوا إلى اثنين من زعمائهم ليديروا المدينة ويحولوا دون وقوعها فى شرك الفوضى وهما : يوسف عرب الجبجاب وأحمد آغا الدزدار .

فعمل هذان الزعيمان على تمكين أواصر المودة بين المسلمين والمسيحيين ، وألغيا الأعشار والضرائب الأخرى التي فرضت عليهم ، وكانوا يعتبرونها حملا ثقيلا .

وما كاد خبر هذه الثورة يصل إلى مسامع السلطان محمود ، حتى أصدر أمره بوجوب إخضاع المقدسيين الثائرين بأى ثمن كان . فأمر عبد الله باشا (١٨٢٦ م) أن يذهب من فوره إلى القدس ، وأن يصطحب معه كل ما لديه من جند وعتاد ، وأن يسترد ما فقدته الحكومة فى هذه المدينة من هيبة ونفوذ. وقابل سكان بيت المقدس الجيش الزاحف بقلوب ملؤها الإيمان . فرفضوا الإنذار الذى وجهه إليهم رسول عبد الله باشا المعروف بـ (الكهيا) قائلين : إنهم أقسموا ألا يعدلوا عن ثورتهم ، وألا يستسلموا للسلطان ما دام فى مدينتهم أجنبى واحد . لا فرق فى نظرهم بين شرقى أو غربى ... وبين تركى أو ألبانى ... بين مسلم أو غير مسلم . . . وإنهم لعلى استعداد للموت فى سبيل وطنهم .

وكانوا قبل وصول الجند ، قد سدوا أبواب المدينة بالحجارة . ولما أصلى الجند عليهم النار ، قابلوها بنار مثلها . لا ، بل أطلقوا من أعلى موضع فى القلعة ، نيران المدافع التى كانت فى حوزتهم . وظلت الحرب سجالا بينهم وبين الجند سبعة أيام وسبع ليال . وفى اليوم الثامن كان الجند الذين أرسلهم عبد الله باشا مدداً لحامية القدس قد وصلوا . وكانوا مزودين بمدافع أخرى منها مدفع كبير وثقيل . فراحت القنابل تتساقط فى وسط الأحياء والمنازل الآهلة بالسكان . وكانت ذخائر الثائرين ومؤن السكان بوجه عام قد نفدت . والجوع كاد يقضى عليهم. والخوف كان قد استولى على النساء والأطفال . فقرروا الاستسلام مشترطين إلغاء الضرائب الجديدة وإعلان العفو العام ، ومنع الجند من التدخل فى شؤون المدينة . وكان لهم ما أرادوا .

ولما تسلم عبد الله باشا مفاتيح القلعة أقام فيها ثلاثمئة جندى . وراح هؤلاء يسيطرون على المدينة كما كانوا من قبل (١٨٢٧ م) . كما راح عبد الله باشا

يوقع أوامره بوصفه والى صيدا ومصر والعريش وغزة والقدس ونابلس وجنين .

وما كادت الثورة تهدأ فى القدس على يد عبد الله باشا (١٨٢٧ م) حتى أعلن محمد على باشا والى مصر الحرب على السلطان . وأرسل لمقاتلته فى بر الشام جيشاً بقيادة ولده إبراهيم باشا . فاحتل هذا القدس وسائر أعمال فلسطين (١٨٣١ م) كما احتل سوريا وسائر بلاد الأناضول ووصل إلى كوتاهية ، وكاد يحتل الآستانة ؛ لولا تدخل الدول الأوربية . ولما اصطلح الفريقان جعلت البلاد الواقعة بين أطنة وغزة ولاية تابعة لمصر . ولهذا دخلت القدس فى حوزة البيت العلوى .

القدس وإبراهيم باشا
(١٨٣١ — ١٨٤١ م)

قلنا فى آخر الفصل الذى سبق إن محمد على باشا والى مصر أعلن العصيان على تركيا فى عهد السلطان محمود الثانى ، وإنه أرسل لمقاتلته فى بر الشام جيشاً بقيادة ولده إبراهيم باشا ، فاحتل هذا القدس (١٨٣١م) وسائر أعمال فلسطين . كما احتل سوريا وسائر بلاد الأناضول ، ووصل إلى كوتاهية ، وكاد يحتل القسطنطينية عاصمة بنى عثمان ، لولا تدخل الدول الأوربية[1] . وإن الفريقين بعدئذ اصطلحا (٢٥ نيسان ١٨٣١ م) واتفقا على أن تكون البلاد الواقعة بين أطنة وغزة ولاية تابعة لمصر . وهكذا دخلت القدس فى حوزة البيت العلوى .

---

(١) (البطل الفاتح إبراهيم) لداود بركات ١٣٩ ، ١٤٠ .

لم يمض على وجود إبراهيم باشا فى فلسطين سوى بضعة أشهر ، حتى قامت ثورة فيها ، وكانت القدس من أهم مراكز الثورة . ولقد ذهب الباحثون فى تفسيرها مذاهب شتى . منها أن الأهلين كانوا ، منذ البداية ، ينظرون إلى الجيش المصرى نظرة الغاصب المحتل . ومنها أن هذا الكره ما نشأ إلا عند ما أصدر محمد على باشا أوامره لابنه إبراهيم باشا كى يجمع السلاح من الأهلين ويفرض بعض العوائد والرسوم الجديدة ، ويدعو إلى التجنيد الإجبارى فى البلاد. ومن رأى القائلين بهذا القول أن إبراهيم باشا كان مخالفاً لرأى أبيه فى هذا الموضوع ، وأنه حذره من عواقبه ، إلا أنه اضطر فى النهاية إلى الإذعان ، ففعل ما فعل ، ولجأ إلى الشدة فى فعاله ، مما قد أدى إلى الثورة .

كان أول عمل قام به إبراهيم باشا أن أصدر أمره إلى سكان القدس فى (٢٥ نيسان ١٨٣٤ م) طالباً منهم أن يتجند واحد من كل خمسة من شبانهم . وفى قول آخر واحد من كل عشرة رجال . وكذلك فعل مع باقى البلدان . فكان على مدينة القدس أن تقدم للجيش مئتى رجل وعلى سكان القضاء أن يقدموا ثلاثة آلاف رجل . وكذلك قل عن سكان الأقضية الأخرى كنابلس والخليل .

وأمر إبراهيم باشا بجمع السلاح من أى نوع كان ومن جميع الطبقات . وعمل على نزع النفوذ من جميع الزعماء وأصحاب الإقطاعات . وراح ينفى من البلاد كل من حدثته نفسه بإهمال الأوامر وعدم الطاعة . فكانت نتيجة هذه التدابير أن ارتاح لها المسيحيون واليهود ، وغضب المسلمون . واستغل الأتراك الفرصة ، فراحوا يحرضون المسلمين على الثورة ، فثاروا .

وما هى إلا عشية أو ضحاها حتى كانت نار الثورة قد اشتعلت فى نابلس والخليل وصفد وغزة ويافا والصلت وفى كل مكان . وأما فى القدس نفسها فقد انعدم الأمن ، وسادت الفوضى ، واختفى النصارى فى أديرتهم واليهود فى

كنائسهم . واغتنم الزعماء فرصة سفر إبراهيم باشا إلى يافا فعقدوا فى ٢٨ نيسان ١٨٣٤ م اجتماعاً حضره مشايخ القرى المجاورة وقرروا إعلان الثورة .

فى ٨ آيار حاصروا القدس . وفى اليوم التالى ٩ آيار ، أتتهم نجدة من نابلس والخليل فأصبح عددهم كبيراً . وقيل إن عدد الثائرين بلغ يومئذ عشرة آلاف . كلهم مسلحون . وراح هؤلاء يقاتلون الجند المرابطين فى القلعة ، وعددهم ألف ، كان إبراهيم باشا قد تركهم هناك بقصد الحراسة . وظلوا كذلك بضعة أيام . والتقى الفريقان ، الجند والثوار ، فى شوارع المدينة ، فاقتتلوا قتالا عنيفاً . وكادوا ينتصرون على الجند . لولا أن سرت بينهم فى تلك اللحظة شائعة تقول إن إبراهيم باشا فى طريقه إلى القدس مصطحباً معه جيشاً لجباً . فانكسرت معنوياتهم . وراحوا يهربون ، تاركين وراءهم ستة وستين قتيلا ، وراح الجند بعدئذ يهدمون الحوانيت والدكاكين ، وينهبون كل ما وقعت عليه أيديهم من أمتعة السكان وأموالهم . وألقى الجند القبض فى اليوم التالى ، ١٠ آيار ، على أعيان المدينة ، وسجنوهم فى القلعة . فاشتعلت النار من جديد . وركضت نابلس لنجدة أختها القدس ، فأمدتها بألفى مقاتل . فخشى البكباشى الآمر ، وانزوى هو وجنده فى القلعة . بعد أن أمر بإغلاق أبواب السور . ولكن المقدسيين الذين كانوا فى داخل المدينة فتحوا الأبواب للثوار . ودخل هؤلاء المدينة . وساروا نحو القلعة . وكان يقودهم إبراهيم أبو غوش ، فوقع صدام عنيف بين الأهلين والجند . وصب هؤلاء نيران مدافعهم من القلعة على الأهلين . ودام القتال ثلاثة أيام . فسادت الفوضى فى المدينة ، وساد معها الخوف والمرض والجوع .

وكانت أخبار هذا القتال قد وصلت إلى إبراهيم باشا وهو فى يافا . فطلب فى الحال من أبيه النجدة . فأتته هذه مؤلفة من تسعة آلاف مقاتل . سار بهم فوراً إلى القدس يبغى الانتقام (٢٤ آيار ١٨٣٤ م) .

واتصل الخبر بالثوار ، فلم يجزعوا . ولا وهنت عزائمهم بل راحوا يستعدون

لملاقاة إبراهيم باشا وجنده ، عند الأبواب ، وفوق الأسوار . وكمن له الفلاحون الثائرون فى الكهوف والجبال المطلة على الأودية ولا سيما عند باب الواد ، فعوقوا تقدمه . وقتلوا ألفاً وخمسمئة من جنده .

ولكن ، تمكن إبراهيم باشا أخيراً ، ورغم جميع الحوائل ، من الوصول إلى القدس . فحط رحله على جبل صهيون . وراح يرسم الخطط للقضاء على الثورة . فخف لاستقباله اللاتين والأرمن واليهود وفريق من الروم الأرثوذكسيين. ولم يقابله أحد من المسلمين . إذ كان هؤلاء قد فروا من باب الأسباط مصطحبين معهم عائلاتهم وأمتعتهم خشية الانتقام . وعبثاً حاول إبراهيم باشا أن يقنعهم بالعودة إلى منازلهم ، قائلا إنه معتزم العفو عنهم . فلم يلبوا نداءه .

ليس هذا فحسب . بل راحوا يوزعون النشرات داعين إلى الثورة ، ناقدين بصراحة وجرأة أعمال الباشا . وتنادوا بعد ذلك للاجتماع فى مخماس ، فبحثوا الطرق الواجب اتباعها لمواصلة القتال .

ولما علم الباشا بأمرهم . ساق عليهم جيشاً قوامه ثلاثة آلاف رجل . وكان هو فى الطليعة فالتقى الجمعان على مقربة من مخماس . واقتتلا . فكان النصر حليف الجيش . وانهزم الثوار تاركين وراءهم ثلاثة آلاف قتيل وخمسمئة أسير . وساق الأسرى أمامه مكبلين بالحديد . ولما عاد إلى القدس ودخلها استقبله النصارى واليهود استقبال الفاتحين .

ولم يفت انتصاره هذا فى عضد الثوار . بل راحوا يجمعون ما تشتت من شملهم . ويتنادون للقتال . وجرت اصطدامات عديدة بينهم وبين الجند : مرة فى بيت جالا (٣١ آيار) وأخرى على مقربة من مار إلياس (٤ حزيران) . وفى الأودية والتلال الكائنة إلى الجنوب من بيت لحم ، وفى أرطاس . وفى كل مكان . وذلك كله قد فتّ فى عضد الباشا ، فأصبح لا يدرى ماذا يفعل . وقد ازداد حيرة عند ما أتته أنباء المدن الأخرى . فعلم منها أن نار الثورة ازدادت

اشتعالا فى نابلس وصفد وعكا وطبريا وفى يافا واللد وفى الخليل والكرك . وأيقن أن القوة التى كانت تحت تصرفه يومئذ (١١ حزيران ١٨٣٤ م) وهى لا تزيد على ستة آلاف جندى لم تعد كافية لإطفاء تلك النار . ولهذا أرسل إلى أبيه تقريراً عن الحالة ، وراح ينتظر تعليماته ، منزوياً فى قلعة القدس .

أرسل محمد على باشا إلى ابنه نجدة مؤلفة من ثلاث كتائب من المشاة وكتيبتين من الفرسان ، وألف من البدو . وأبحر هو من الإسكندرية إلى يافا ، حيث اجتمع بابنه إبراهيم باشا . وبعد أن تشاور الاثنان فيما يجب عمله ليقضيا على الثورة ، عاد هو إلى مصر ، وبقى ابنه ليتم مهمته . ولما عاد إلى القدس (٢١ حزيران) كان فى صحبته ثلاثون ألف جندى . وكان معه عشرة مدافع كبيرة ، وخمس من قاذفات القنابل . فخبت فى القدس نار الثورة من تلقاء نفسها ، دون أى قتال .

إنها (أى نار الثورة) وإن كانت قد خبت فى القدس إلى حين ، إلا أنها عادت فاشتعلت فيها وفى كل مكان ، ورغم أنه اعتقل اثنين من زعماء الثوار فى القدس وقطع رأس أحدهما فى باب العمود والثانى فى سوق الحبوب ، إلا أن هذه التدابير ما كانت لتقلع روح التمرد والعصيان والكره من أفئدة الأهلين .

ولقد زاد الطين بلة ما أصاب الجند والأهلين من ضنك بسبب الهيضة (الكوليرا) التى انتشرت فى القدس وفى سائر أنحاء فلسطين (١٨٣٨ـ ١٨٣٩م) والتى مات من جرائها خلق كثير ، وما أصاب إبراهيم باشا وجيشه فى دمشق وفى سائر أعمال الشام ؛ مما لا يدخل فى نطاق بحثنا ، مما حدا به للانسحاب من هذه البلاد .

وقد انسحب منها (١٨٤١ م) بعد أن أقام فيها عشرة أعوام . عاد إلى مصر تاركاً وراءه عدداً غير قليل من المصريين الذين رافقوه فى حملته . وقد استوطن هؤلاء بعض المدن والقرى الفلسطينية فصاروا منها .

الآن وقد انتهينا من ذكر الحروب والثورات التى قامت فى هذه البلاد على عهد إبراهيم باشا ، نود أن نأتى ، بوجه الإيجاز ، على ذكر المنشآت التى أنشئت فى القدس وفيما حولها من الضياع ، خلال ذلك العهد ، فنقول :

على عهده أنشئ (١٨٣٤ م) جانب من القشلاق الكائن عند باب الخليل . وجددت عمارة السراى القديمة الكائنة على طريق الجسمانية . وأنشئت (طاحون الهواء) الكائنة غربى المدينة ، وهى أول طاحون يطحن فيها المقدسيون قمحهم (١٨٣٩ م) . وبنيت (الزاوية الإبراهيمية) الكائنة إلى الشمال من ضريح النبى داود على جبل صهيون . وعمرت قلعة فى وادى الجوز . وأخرى بين هذا الوادى وجبل الطور . وأنشئت سلسلة من القلاع لحراسة الطريق بين يافا والقدس .

وتطورت البلاد على عهده تطوراً جديراً بالذكر إذ أنه كافح الرشوة ، واهتم بطرق المواصلات ؛ فأنشأ مسافات غير قليلة من الطرق ، وأتاح للتجار الأجانب البيع والشراء فى داخل البلاد ، وألغى الضريبة التى كان حراس الكنيسة يجبونها منذ عهد صلاح الدين . كما أمر بإلغاء الخمس من الحاصلات الزراعية . ووزع البذار على الفلاحين . وشجع الناس على غرس الأشجار المثمرة . وأدخل إلى البلاد أنواعاً جديدة من الزراعة . كما أتى بعدد غير قليل من عرب البادية وأسكنهم فى القدس والسهول الخصبة .

ولقد ساوى بين المسلمين واليهود والنصارى . فأعفى النصارى واليهود من عادة النزول عن دوابهم إذا ما صادفوا مسلماً فى طريقهم . والفرق الوحيد الذى رضى به أنه كلف النصارى أن يدفعوا الجزية لقاء تجنيد المسلمين .

وكذلك قل عن اليهود . فإنه وإن كان قد ساوى بينهم وبين العرب من سكان البلاد ، إلا أنه قاوم الخطط التى وضعوها للاستعمار . يدلك على ذلك ما جاء فى مذكرات السير موسى حايم مونتفيورى أحد كبار اليهود الإنجليز

(١٨٣٦ م) الذى قال إنه عبثاً حاول أن يقنع إبراهيم باشا وأباه محمد على أن يؤجراه أرضاً مساحتها خمسون فداناً ومئتى قرية من قرى فلسطين لخمسين عاماً .

ولقد أراد اليهود[1] يومئذ (١٨٣٧ م) أن يسمح لهم بشراء الأملاك والأراضى الزراعية وتعاطى الحرث والزرع وتعاطى البيع والشراء وبيع الأغنام والأبقار وإنشاء المصابن والمعاصر فاعترض أعضاء مجلس القدس الشريف على هذا الطلب الذى تقدم به وكيل طائفة السكناج بالقدس ، معتبرين ذلك سابقة ليس لها مثيل . هذا فضلا عن مخالفته لحكم الشريعة . ولما رفع الأمر إلى محمد على باشا أصدر هذا موافقته على ما جاء فى قرار المجلس . أصدرها بعد أن استشار ولده إبراهيم باشا . ولم يسمح لليهود يومئذ إلا بتعاطى التجارة ، على أن لا تتعدى حدود البيع والشراء .

القدس والأتراك العثمانيون (للمرة الثانية)

(١٨٤١ م – ١٩١٧ م)

إن السنين العشر (١٨٣١ – ١٨٤١ م) التى قضاها إبراهيم باشا فى هذه البلاد كانت طافحة بالحروب والثورات . ولهذا تنفس المقدسيون الصعداء عند ما جلا المصريون عن البلاد ، ورأوا أن مدينتهم عادت إلى أحضان بنى عثمان . ولم يكن الشعور القومى قد نضج فيهم ، والنزوع إلى الاستقلال قد نما .

وكانت القدس يومئذ تابعة لأيالة صيدا . وكانت هذه ترجع فى أوامرها إلى مقر الأيالة العام فى بيروت ، وكان يقوم على رأس الحكم فى القسطنطينية

(١) (مجموعة الأصول العربية لتاريخ سورية فى عهد محمد على باشا) جمعها الدكتور أسد رستم أستاذ التاريخ الشرقى فى جامعة بيروت الأميركية .

عاصمة المملكة العثمانية السلطان عبد المجيد بن السلطان محمود الثانى الذى تولى الحكم فى ١٨٣٩ .

فوضع هذا أصول التجنيد الإجبارى . . . . ونظم المحاكم ومنح الأهلين حرية التصرف ، وأمر بالتساوى بين رعايا الدولة ورعايا الدول الأجنبية ، وطارد الرشوة . . . وكان عدد سكان القدس فى ذلك الحين عشرين ألفاً منهم ألف من المسيحيين . وانتظم المسيحيون فى الجندية ، مثلهم فى ذلك مثل المسلمين . ولقد أنفق السلطان على عمارة الحرم القدسى عشرين ألف ليرة تركية (١٨٦٠ م)

وقامت على عهده (١٨٥٣ م) حرب القرم بين روسيا وتركيا . قامت من أجل الأماكن المقدسة . وكان النصر فيها حليف تركيا (١٨٥٦ م) . فابتهجت القدس بذلك النصر[١] . وراحت الدول تتسابق فى بسط نفوذها على البلاد ، ولا سيما إنكلترا وفرنسا اللتان وقفتا إلى جانب تركيا فى حربها مع الروس . وثار سكان بيت المقدس على متصرفهم كامل باشا لأنه رضى بأن ترفع تلك الدول أعلامها على دور القناصل . وقيل إنهم مزقوا العلم الفرنسى (١٨٤٣ م) وكانت الحكومة العثمانية على درجة قصوى من الضعف حتى إنها لم تستطع الضرب على يد التجار الاستغلاليين . فارتفعت الأسعار إلى درجة لا تطاق (١٨٥٣ م) .

وكان أهل القدس إلى ذلك الحين يعيشون ضمن الأسوار . ورحنا بعد ذلك التاريخ نسمع أنهم راحوا يبنون العمارات خارج السور (١٨٥٨ م) .

وتولى السلطنة ، بعد عبد المجيد ، أخوه السلطان عبد العزيز (١٨٦٠ م) . وكانت القدس فى أوائل عهده (١٨٦٠ م) متصرفية تابعة لولاية سورية ، مرجعها الشام . ثم جعلت متصرفية مستقلة (١٨٧١ م) تفاوض الباب العالى رأساً . وعلى عهد عبد العزيز أنشئت الطريق التى تربط يافا بالقدس (١٨٦٧م) والطريق التى تربط القدس بنابلس (١٨٧٠ م) . ورصفت شوارع القدس

(١) J. Finn P. 362

القديمة وأسواقها بالبلاط (١٨٦٣ م) ومنع إنشاء المساطب أمام الدكاكين . وعلى عهده أيضاً (١٨٦١ م) عرف الأتراك وعرف معهم سكان بيت المقدس الطربوش[1] ولبسوه . وكان عدد هؤلاء السكان يومئذ ثمانية وستين ألفاً . وأنفق على عمارة الحرم وزخرفته ثلاثين ألف ليرة تركية . وبنى المسجد العمرى على مقربة من كنيسة القيامة .

ولما خلع عبد العزيز أقيم مكانه السلطان مراد الخامس بن عبد المجيد (١٨٧٦ م) . ولكن هذا لم يمكث على العرش أكثر من بضعة أيام بسبب ضعف عقله . .

ولما خلع السلطان مراد اعتلى سدة الملك أخوه السلطان عبد الحميد الثانى (١٨٧٦ م) . وعلى عهده حدثت فى البلاد حوادث جسام . نذكر منها ما يلى :

منح السلطان شعبه ، فى بداية الأمر ، دستوراً . وأمر (١٨٧٧ م) . بانتخاب برلمان أسماه (مجلس المبعوثين) . ومثل القدس فى هذا المجلس رجل من رجالاتها الأبرار هو المرحوم يوسف ضيا باشا الخالدى . وأكد فى دستوره أنه لا يفرق بين دين ودين . وإن كان قد أعلن أن دين الدولة هو الإسلام ، ولسانها (التركى) ، والخلافة فى بنى عثمان . وكل إنسان حر فى تصرفاته . ولكنه عاد فاسترد هذه المنحة . فأغلق البرلمان ، وألغى الدستور (١٨٧٨ م) . وراح يدير البلاد وفق مشيئته الخاصة . ونفى الأحرار الذين طالبوا بالدستور والحرية . وكانت الحالة فى فلسطين بوجه عام وفى القدس بوجه خاص ، تسير من سيىء إلى أسوأ فى جميع الميادين الزراعية والاقتصادية والإدارية .

وعلى عهده قامت حرب بين روسيا وتركيا (١٨٧٧ م) . وصدر قانون (١٨٨٢ م) . يحرم هجرة اليهود إلى فلسطين وشراءهم الأراضى فيها . ثم عدل

---

(١) أصله (سربوش) وهى كلمة فارسية معناها (لباس الرأس) وقد انتقل الطربوش إلى تركيا من بلاد اليونان . وهذه أخذته من مدينة فاس من أعمال مراكش .

هذا القانون ، فسمح لليهود أن يدخلوا فلسطين بقصد العبادة شريطة ألا يبقوا فيها أكثر من ثلاثة أشهر وصدر قانون يمنع تجارة الرقيق (١٨٨٩ م) .

وأنشئت السكة الحديدية بين يافا والقدس (١٨٩٢ م) . وأنشئ المستشفى البلدى الكائن غربى المدينة عند الشيخ بدر (١٨٩١ م) . وأنشئ برج عال على السور فوق باب الخليل (١٩٠٩ م) . وسبيل على مقربة من الباب المذكور (١٩٠٧ م) . وجددت عمارة السبيل المعروف بسبيل قايتباى (١٨٨٢ م) الكائن فى ساحة الحرم على مقربة من باب القطانين . ومنع إدخال التلفون (١٩٠٥) واستعمل اللاسلكى .

وبنيت (المدرسة الرشيدية) الكائنة تجاه السور عند باب الساهرة (١٩٠٦م).

وأنفق على عمارة الحرم القدسى ثلاثون ألف ليرة عثمانية . ورصفت شوارع القدس رصفاً جديداً (١٨٨٥ م) هو الذى نراه فى معظم شوارع المدينة فى يومنا هذا .

وزار القدس على عهده إمبراطور الألمان غليوم (١٨٩٨ م) ففتحوا له ثغرة فى السور بجانب باب الخليل . وازداد تنافس الدول الأجنبية بالقدس ففتحت فيها قنصليات كثيرة أجنبية . ومع ذلك وبالرغم من وجود عدد قليل من الموظفين الأتراك ؛ فقد كانت الكلمة العليا فى القدس للعرب سكان البلاد الأصليين ، ولا سيما المسلمين منهم . وما كان بإمكان الأجانب أن يملكوا شيئاً إلا بإذن من المتصرف التركى وكان على هذا أن يرجع إلى (مجلس الإدارة) المؤلف من عدد من الموظفين وآخرين من مشايخ البلاد .

ومع هذا كله عرف عهد إلسلطان عبد الحميد بالظلم والاستبداد . وما كان بإمكان أحد أن يبحث شؤون السياسة أو يطرى كلمة (الحرية) . وظل الأمر كذلك إلى أن تألفت فى البلاد جمعية أسموها (جمعية الاتحاد والترقى) ، وقامت بانقلاب (١٩٠٨ م) أعلن على أثره الدستور ، واجتمع البرلمان العثمانى . وكان

سنجق القدس ممثلا فيه بثلاثة أعضاء هم : سعيد بك الحسيني وروحى بك الخالدى من القدس وحافظ بك السعيد من يافا . وحاول السلطان أن يراوغ . فأسقطوه ، وأقاموا مقامه أخاه السلطان محمد رشاد الخامس (١٩٠٨ م) . ومثل قطاع القدس فى البرلمان الذى اجتمع على عهده (١٩١٤ م) كل من روحى بك الخالدى وعثمان أفندى النشاشيبي وأحمد عارف أفندى الحسيني . ثم أعيد الانتخاب ففاز بالأكثرية سعيد أفندى الحسيني وراغب أفندى النشاشيبي وفيضى أفندى العلمى .

وعلى عهد هذا السلطان أعلنت الحرب الكونية الأولى (١٩١٤ – ١٩١٧م) وخاض الأتراك غمارها إلى جانب حلفائهم الألمان . وراح الجيش التركى يحارب الإنجليز وحلفاءهم الروس والفرنسيين فى خمس جبهات هى : القفقاس ، والدردنيل ، والعراق ، ورومانيا ، وفلسطين . ولكنهم خسروها . فخسروا معظم ما كان فى أيديهم . ومنها القدس (١٩١٧ م) . فاحتلها الإنجليز (٩ كانون أول ١٩١٧ م) .

قبل أن ننتقل إلى الفصول التالية من هذا الكتاب نرى لزاماً علينا أن نصف القدس فى العهد التركى من النواحى الإدارية والعمرانية والتجارية ، والاقتصادية والاجتماعية ، فنقول :

كانت القدس فى العهد التركى مركزاً لقطع واسع يسمى (سنجق القدس) وهو مؤلف من خمسة أقضية ، وهى : (١) قضاء القدس (٢) قضاء يافا (٣) قضاء الخليل (٤) قضاء غزة (٥) قضاء بئر السبع . وهناك أربع عشرة ناحية[١] .

---

(١) خمس منها (أى من النواحى) تابعة للقدس ، وهى : بيت لحم . رام الله . صفا . عبوين . أريحا . وناحيتان تابعتان ليافا . وثلاث نواح تابعات لغزة . وهى : خان يونس . المجدل . الفالوجة . وناحيتان للخليل . وهما : بيت غطاب . بيت جبرين . وناحيتان لبئر السبع . وهما : المليحة . عوجا الحفير .

وثلاثمئة وتسع وسبعون قرية[١]. وخمس قبائل كبرى[٢]. ويقوم على رأس كل قضاء (قائمقام) وعلى رأس القطاع كله متصرف . وكان هذا يخابر وزير الداخلية فى الآستانة رأساً ، هذا فى الشؤون السياسية ، وأما من حيث الشؤون المالية فقد كانت هذه تدار من قبل وزارة المالية. وكان قاضى القدس ، على عهد الأتراك العثمانيين ، الكل فى الكل[٣] من حيث السيطرة والحكم فى جميع الشؤون الإدارية والمذهبية والحقوقية والجزائية[٤] . وكان معظم الموظفين من أبناء البلاد ، خلا الحاكم الأكبر ورؤساء بعض المصالح العمومية ؛ فقد كانوا من الأتراك . والنفوذ كله كان بيد الزعماء والأفندية ، وذوى الإقطاع من مشايخ البلاد . وكان فى القدس مجلس شورى (١٨٤٠ م) مؤلف من عدد من وجوه

---

(١) مئة وست وعشرون منها (أي من القرى) تابعة للقدس . ومثل هذا العدد من القرى ليافا . وخمس وسبعون قرية لغزة . واثنتان وخمسون للخليل .

(٢) هى (أى القبائل) : العزازمة . الترابين . التياها . الحناجرة . الجبارات .

(٣) ارجع إلى سجلات المحكمة الشرعية فى القدس . ولا سيما ذوات الأرقام ١٢ ، ٤٣ ، ٤٩ ، ٥٥ ، ٢١٣ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

(٤) فلم تكن صلاحيته (أى القاضي) منحصرة فى الزواج والطلاق والنفقة وما إلى ذلك من الأحوال الشخصية ؛ بل كانت تشمل مختلف الشؤون كالوقف والتجارة والرهن ودعاوى الزرع وسرقة المواشى وقضايا الخيل . وكان فى الوقت نفسه مسؤولا عن إدارة المساجد والتكايا والمقابر والزوايا . وعن دعاوى القسمة والإفراز ، وتسجيل الوكالات والكفالات والشركات . ووضع اليد ونزعها . ومسائل القروض والديون والأمانات . ومراقبة الموازين والمكاييل والمقاييس . وهو الذى كان يعين المحال التى يجوز فيها البيع والشراء ، ويحدد الأسعار . وينظر فى قضايا العرض والرق . ويراقب تجارة المشروبات الكحولية . ويأذن بالبناء . وينظر فى الدعاوى الحقوقية مهما تبلغ قيمتها ، والدعاوى الجزائية على اختلاف أنواعها من الضرب البسيط إلى السب والشتم . . إلى السرقات . . إلى القتل . . ويحكم بالعقوبات من أدناها إلى أقصاها . . حتى وبالإعدام . وهو الذى يقيل رؤساء الطوائف المختلفة من مناصبهم . . ويعينهم . . ويستبدل بهم غيرهم .

ليس هذا فحسب . فإن قاضى المسلمين فى القدس كان يستقبل قناصل الدول الأجنبية فى ديوانه . فيقرأ أوراق اعتمادهم . . ويعترف بتمثيلهم . . ويمنحهم الإذن بمباشرة عملهم . . ويحميهم . . .

المدينة وممثلى الطوائف المختلفة ، كما كان فيها مجلس عمومى (١٩١١ م) مؤلف من عدد معين من ممثلى الأقضية (القدس ويافا والخليل وغزة وبئر السبع) وكان لواء القدس يمثل فى البرلمان العثمانى (١٩٠٨ م) بنسبة ثلاثة نواب ، اثنان من القدس والثالث من يافا . والبرلمان مؤلف من مجلسين «مجلس للمبعوثين» ينتخبه الشعب وآخر « للأعيان » يعينهم السلطان .

وكانت للقدس (بلدية) وكانت هذه عند تكوينها (١٨٦٣ م) محدودة الموارد ذات ميزانية لا تتعدى الخمسمئة ليرة عثمانية ، ثم انتظمت إيراداتها (١٩٠٨ م) ، وارتفعت إلى عشرة آلاف ليرة عثمانية . وكانت عند الاحتلال البريطانى (١٩١٧ م) خمسة عشر ألف ليرة . ولقد كان فى مدينة القدس (١٨٧٦ م) اثنان وعشرون شرطياً كلهم مسلمون . وكان اقتناء السلاح مباحاً لجميع السكان .

وكثيراً ما كان الأمن يفقد فى المدينة ، إلا أنه كان فى داخلها ، وفى أغلب الأحيان مستتباً للغاية . وكان الناس فى راحة وهناء بال أكثر من أى زمان مضى ، فالمساكن متوفرة ، رخيصة الأجور . وكذلك قل عن أسعار الحاجات ؛ فقد كانت هذه رخيصة ومتوفرة للجميع . وكان قاضى المسلمين بالقدس هو الذى يحدد الأسعار . ولقد رأيناه يحدد (سنة ١٨٦٢ م) ٤٨ بارة للرطل الواحد من الزيت الممتاز ، و ٦٥ للسمن العنانى و ٨ بارات للحم البقر و ٤ بارات للكنافة المخروطة و ٤ بارات للقطايف و ٦ بارات للدقيق . وبيع الرأس الواحد للغنم بقرش ونصف القرش . وبيعت دار فى حارة الواد بعشرين قرشاً . كما بيعت دار مثلها فى حارة النصارى بمثل هذا الثمن وهذه تشتمل على أربع غرف وساحة وصهريج . وبيعت دار مؤلفة من طابقين بباب العمود بثلاثين قرشاً ، وفى باب حطة بخمسة وسبعين قرشاً (١٦١٨ م) .

وكان مهر المرأة يتراوح بين ثلاثة قروش وخمسة وستين قرشاً (١٦١٨ م) :

ثلثاه معجل والثلث مؤجل إلى أقرب الأجلين (الموت أو الطلاق) . وإن هذه المهور وأسعار الحاجات وإن كانت قد ارتفعت قليلا مع الزمن إلا أنها لم تصل فى زمن ما إلى درجة يعجز عنها الجمهور . ومع هذا ورغم انخفاض أسعار المعيشة فقد كانت هناك طبقة من الفقراء . وكانت هذه الطبقة تعيش على الصدقات ، ولهذا كثيراً ما سمعناهم يتحدثون عن (الصرة) التى كانت ترسل من دار الخلافة والسلطنة فى القسطنطينية ؛ وهى عبارة عن مبلغ من المال يوزع لا على الفقراء فحسب ، بل على خدام الحرم وعلى المشايخ والعلماء . وكان المسيحيون الأرثوذكس يتلقون مثل هذا العون من روسيا والدول النصرانية فى أوربا الشرقية ، واللاتين من قداسة البابا ومن الأمم الكاثوليكية .

ولقد كان فى القدس وفيما حولها من الأراضى فى العهد التركى مساحات واسعة من أشجار الزيتون . وكان الزيت فيها كثيراً . حتى إن سكان المدينة اضطروا فى سنة من السنين أن يكبوا الزيت القديم ، ليتمكنوا من إيجاد أوعية كافية للزيت الجديد . وصناعة الصابون فيها كانت رائجة . وكان هناك عدد كبير من المصابن ، يعيش من ورائها عدد كبير من العمال والصناع . وكان الصابون المقدسى يصدر إلى مصر . غير أن هذه الصناعة أخذت تتضاءل بعد سنة ١٨٧٦ م ؛ يوم اكتسحت البلاد أسراب كثيرة من الجراد ، وأتت على قسم كبير من أشجار الزيتون : والبقية الباقية من هذه الأشجار قضى عليها الأتراك عند ما انخرطوا فى الحرب الكونية الأولى (١٩١٤ – ١٩١٧ م) . واحتاجوا إلى وقود يسيرون به قطاراتهم .

واشتهرت القدس فى العهد التركى ، بصناعة العلب والأدوات المدرسية والبضائع الدينية من خشب الزيتون ؛ أو من الصدف ، والشموع المختلفة . وكانت هذه تباع إلى الحجاج الذين يفدون من كل حدب وصوب بقصد زيارة الأماكن المقدسة .

وكانت القدس مركزاً تجارياً هاماً ، يصدر القمح منها إلى إنجلترا وبعض البلاد الأوربية . وكذلك قل عن السمسم والصابون وزيت الزيتون . وأما البضائع التى هى فى حاجة إليها فقد كانت تستوردها من أوربا عن طريق مرسيليا وتريستا. كالبضائع الصوفية والحريرية ، والخمور ، والزجاج ، والخشب ، وما إلى ذلك من الأثاث المنزلى . وكانت المعاملات التجارية كلها تجرى عن طريق الأمانة والشرف والاتفاق الشفوى . فلا عقود ، ولا صكوك ، ولا سمسرة ولا تسجيل .

وكان فى القدس (١٨٧٦ م) ألف وثلاثمئة وعشرون دكاناً . يشتغل فيها ١٩٢٠ رجلا يعتبرون من أرباب الحرف والصنائع والمهن : — ٨٠٧ منهم مسلمون و ٥٠١ يهود و ٣٥٧ روم أرثوذكس و ١٤٦ لاتين و ٦٩ أرمن و ٤٠ بروتستانت .

والضرائب التى يدفعها السكان ستة أنواع . هى :

(الويركو والمسقفات) تجبى من أصحاب الأملاك (١٨٨٦ م) بنسبة أربعة فى الألف عن الأراضى وخمسة فى الألف عن الدور المعدة للسكن إذا كانت قيمتها دون العشرين ألفاً ، وثمانية فى الألف إذا كانت فوق العشرين ألفاً ، وعشرة فى الألف عن الدكاكين والدور المعدة للإيجار . ثم أضيف إلى ذلك ستة فى المئة باسم التجهيزات العسكرية (١٩٠٨ م) . وبعد حرب البلقان (١٩١٢ م) أضيف خمسة فى المئة على ضريبة الأراضى لتغطية العجز الذى طرأ على موازنة الدولة . ثم أضيف إليه ٢٥ ٪ باسم الأسطول .

و (العشر) يجبى من أصحاب الأراضى والمزارعين بنسبة عشرة فى المئة من حاصلاتهم الزراعية . ثم زيدت هذه النسبة فجعلت $12\frac{1}{2}$ فى المئة . وكانت الحكومة التركية تجبى العشر بوساطة الملتزمين ، وجلهم — إن لم نقل كلهم — من أرباب الإقطاع . وكثيراً ما كانوا يظلمون .

و (ضريبة الأغنام) ضريبة قديمة العهد . تجبى عن الأغنام والجمال المعدة

للنقل بنسبة قرش ونصف عن كل رأس من الغنم . ثم زيدت هذه النسبة إلى قرشين ونصف القرش ، فإلى ثلاثة قروش ؛ ثم إلى أربعة ، فخمسة . وأما عن الجمل فكانت الحكومة تحصل فى بادىء الأمر عشرة قروش تركية . ثم زيد هذا المبلغ فأصبح ثلاثة عشر قرشاً و ٢٠ بارة . ويحصل مثل هذا الرسم عن الخنازير . وأما الخيل والحمير والثيران والجمال المعدة للحرث ، والأغنام المولودة فى بحر السنة فقد كانت معفاة من الضرائب .

و (ضريبة التصنع) كانت تجبى من التجار وأرباب الصناعات وأصحاب المهن بنسبة أرباح كل واحد منهم . إلا أنها كانت ضئيلة للغاية . وكانت بمعدل يتراوح بين اثنين وعشرة فى المئة من الدخل السنوى .

و (ضريبة العملة المكلفين) كانت تفرض على كل شخص يتراوح بين العشرين والستين من العمر . وكان على المكلف أن يدفع ستة عشر قرشاً تركياً فى السنة ، أو يشتغل فى تعبيد الطريق ثلاثة أيام .

و (ضريبة المعارف) تجبى بنسبة خمسة فى المئة من قيم المسقفات . وكانت هذه تجبى مع الويركو فى وقت واحد .

و (العسكرية) ضريبة كان الأتراك يحصلونها من الذميين الذين لم يعتنقوا الإسلام ، ويكونون فى سن الجندية ، لقاء إعفائهم من الخدمة فى الجيش . وكانت هذه تحصل بنسبة ٢٨ قرشاً عن كل شخص فى السنة .

وهناك (الجزية) كانت فى أوائل العهد التركى تحصل من أهل الذمة . وكانت هذه تفرض على الأغنياء والمتوسطين والفقراء بدرجات مختلفة . فالغنى يدفع فى السنة أحد عشر قرشاً ، والمتوسط خمسة قروش ونصف القرش ، والفقير قرشين ونصف القرش .

و (ضريبة الغفر) يدفعها الحجاج الذين يفدون إلى البلاد بقصد زيارة الأماكن المقدسة من يهود ونصارى ، يدفعونها عند وصولهم إلى ثغر يافا . وكانت

هذه عبارة عن سبعة قروش أسدية ونصف القرش عن كل شخص . نصفها للدولة والنصف الآخر للأشخاص الذين يراقبون الحجاج فى طريقهم بين يافا والقدس .

ويظهر أن السلطة المركزية فى القسطنطينية كانت تفرض على الزعماء وأرباب البيارات فى القدس ، فضلا عن الضرائب المتقدم ذكرها ، مبالغ يؤدونها إلى الجيش ،وقد بلغت هذه ، سنة ١٨١٣ للميلاد ، ثلاثة عشر ألفاً ومئتى قرش تركى أرسلت كلها للآستانة .

وبلغت واردات سنجق القدس من الضرائب المتقدم ذكرها سنة ١٩١٠ للميلاد ثلاثينَ ألف ليرة تركية . صُرفت كلها على القدس وقراها : رواتب للموظفين ، ونفقات للطرق والتعليم ، والصحة ، والمستشفى ، ودار الأيتام ، والزراعة ، والشؤون الأخرى . وكانت مالية سنجق القدس المستقل .

وما كان فى القدس ، أثناء الحكم التركى ، أندية ولا جمعيات . ولا كان فيها من يفكر بالسياسة . لا ، بل ذكرنا فى موضع آخر من هذا الكتاب ما كانت عليه القدس فى عهد إبراهيم باشا ، ومقاومة المقدسيين له ، رغم ما قيل عنه بأنه كان يرمى إلى تكوين وحدة بين الأقطار العربية .

وبقى العرب على ما هم عليه من حب للأتراك وتمسك بالفكرة الإسلامية حتى الانقلاب العثمانى (١٩٠٨ م) الذى أقيم على أسس من الحرية والإخاء والمساواة بين جميع عناصر المملكة من ترك وعرب وأرمن ويونان وأكراد وألبان . ولكن سرعان ما انقلبت الآية ، فشعر العرب أن رجال (تركيا الفتاة) لا يريدون بهم خيراً ، لا بل راح هؤلاء يبذلون قصارى جهدهم فى تقدم العنصر التركى عملا بوحى الفكرة القومية الطورانية .

عندئذ بدرت بوادر الخلاف العنصرى بين العرب والترك ، ونما حب الاستقلال فى أفئدة العرب . فتألفت فى أواخر العهد العثمانى جمعيات عربية عديدة

الآستانة وباريز والقاهرة وفى بيروت والبصرة وبغداد والشام . بعضها كان يعمل بالجهر والبعض الآخر بالخفاء . وكان لبعض هذه الجمعيات فروع فى القدس، وانضم إليها سواء فى المراكز أو فى الفروع عدد من أبناء بيت المقدس .

وكانت هذه الجمعيات تكتفى فى بادئ الأمر بطلب الإصلاح الإدارى ، على أن يمنح العرب بعض الامتيازات فى الإدارة واللغة وفى الخدمة العسكرية . ولما رأى الزعماء العرب أن الأتراك المهيمنين على الإدارة يخاتلون ، راحوا ينادون بصراحة أنهم يبغون الاستقلال ، ولا يرضون عنه بديلا .

فاعتزم الأتراك البطش بهم ،وعهدوا بهذه المهمة إلى أحد قادتهم جمال باشا، وكانوا قد انتدبوه لقيادة الجيش الرابع فى سوريا (١٩١٤م) ؛ فألف فى«عالية» من أعمال جبل لبنان ديواناً عسكرياً عرف فيما بعد بديوان عالية . وساق إلى هذا الديوان معظم رجال الحركة العربية .

فحوكم هؤلاء ، وحكم على بعضهم بالسجن أو النفى، وعلى البعض الآخر بالإعدام شنقاً . ولقد نفذ حكم الإعدام بفريق من رجالات العرب فى بيروت ، وفريق آخر فى الشام وفى القدس .

وكان بين الذين أعدموا أربعة من الفلسطينيين هم: على النشاشيبى (من القدس) وأحمد عارف الحسينى وولده مصطفى (من غزة) وسليم عبد الهادى (من نابلس) .

ولم يكتف جمال باشا بعدد الذين شنقهم أو سجنهم ونفاهم من أحرار سوريا وفلسطين ، فقد فرض الحصار على البلاد من الناحية الاقتصادية ، فانقطع القمح عنها ، كما انقطع معظم المواد الغذائية التى كانت ترد إليها من الخارج ، وألم بالبلاد كلها ولا سيما بلبنان ، كرب شديد من جراء هذا الحصار ، فمات على إثره خلق كثير .

ولما كان الظلم مصرعه وخيم . وكان الضغط يولد الانفجار ، فإن ما فعله

الأتراك بالعرب أدى إلى قيام الثورة ، وقد أوقد نارها الشريف حسين بن على (١٩١٥ م) . وما كاد هذا يطلق الرصاصة الأولى حتى لبى نداءه العرب فى مختلف أقطارهم ، وكان بينهم عدد كبير من الفلسطينيين فروا من مدنهم ومن الجيش التركى الذى كانوا قد انتسبوا إليه بعد الحرب. فريق منهم التحق بجيش الشريف رأساً ؛ وفريق التحق بالجيش الإنجليزى المحالف له . وكانت المخابرات قد انتهت بين الشريف حسين وبين مكماهون ، وحصل الشريف بموجبها على عهود رسمية من الإنجليز باستقلال بلاد العرب إذا انتهت الحرب بنصرهم .

وكانت النتيجة أن خسر الأتراك الحرب وانتقلت القدس من أيديهم إلى أيدى الإنجليز . وكان ذلك فى اليوم التاسع من شهر كانون الأول « ديسمبر » سنة ١٩١٧ م ، كما ذكرنا فى موضع آخر من هذا الكتاب .

الباب الخامس

الاحتلال البريطانى

حملة قناة السويس واحتلال القدس — الإدارة العسكرية — الإدارة المدنية — المندوبون السامون — الضرائب فى عهد الاحتلال البريطانى

القدس والاحتلال البريطانى

(١٩١٧ – ١٩٤٧ م)

احتل الجيش البريطانى القدس فى ٩ كانون الأول ١٩١٧ م . دخلها عنوة وكان يقوده السر إدموند اللنبي Sir Edmund Allenby فانتقلت القدس بهذا الحدث التاريخى من يد الأتراك إلى يد الإنجليز بعد أن مكثت فى حوزة الأولين أربعة قرون صحاح .

ولكى أعطيك أيها القارئ ، فكرة صحيحة عن الأسباب التى أدت إلى احتلال القدس أرى من المفيد أن أرجع بك ثلاثة أعوام إلى الوراء ، مستعرضاً الحوادث التى جرت بين الفريقين فى هذه الجبهة من جبهات القتال التى تكوّنت خلال الحرب الكونية الأولى (١٩١٤ – ١٩١٧ م) . فأقول :

عند ما نشبت الحرب الكونية الأولى (١٩١٤ م) ووقف الإنجليز وأعداؤهم الألمان وجهاً لوجه ، رأى الأترك من مصلحتهم أن يقفوا إلى جانب الألمان . ن يحاربوا الإنجليز . وقد وضعوا نصب أعينهم ، وبإيعاز من حلفائهم الألمان ، سر . لا يقصدون احتلالها . وإنما هم يقصدون شغل الإنجليز المرابطين فيها[1]. هذا فضلا عن أنهم كانوا يعتقدون أن المصريين لا بد وأن يثوروا على الإنجليز بمجرد اقتراب الكتائب التركية من قناة السويس ، فتتعرقل بثورتهم وبمرابطة الأتراك على ضفاف القناة وسائط النقل بين بريطانيا والهند .

ولهذا ساقوا إليها ثلاثاً من فرقهم النظامية وعدداً كبيراً من المتطوعين .

ولقد زود الأتراك فرقهم بعدد من المدافع الثقيلة والرشاشات والبنادق سريعة

---

(١) (فلسطين جبهة س) لوزارة الحرب التركية .

الطلقات . كما زودوها بعدد من الحيوانات بينها ٩٦٨ حصاناً و ٣٢٨ ثوراً لسحب المدافع عبر الصحراء ، و ٧,٠٠٠ جمل لنقل الذخائر والمؤن . ووضعت الحملة كلها(١) تحت إمرة جمال باشا الكبير قائد الجيش الرابع . يساعده ضابط ألماني كبير هو رئيس الأركان الزعيم فرس فون فرسنشتاين .

شرعت كتائب الأتراك في الزحف في مطلع شهر كانون أول ١٩١٤ . فعبرت الحدود عند رفح . واجتازت صحراء سيناء دون أن تلقى أية مقاومة من الإنجليز . ذلك لأن هؤلاء كانوا قد اختاروا البقاء وراء الضفة الغربية للقناة ، بقصد الدفاع عنها . ولم يتمكن الأتراك من عبور القناة . وهكذا انتهت حملتهم الأولى بالفشل . فارتدوا تاركين وراءهم ألفاً وثلاثمئة قتيل ، وعدداً كبيراً من الإبل التي نفقت بسبب الحر والتعب .

وكذلك قل عن الحملة الثانية التي قاموا بها في شهر نيسان ١٩١٦ م . والتي كانت مؤلفة من ٢٠,٠٠٠ جندي وكانت خسائر الأتراك في هذه المرة ألف قتيل وثلاثة آلاف أسير .

وانقلب الوضع ، بعد هذه الحملة ، فبعد أن كان الأتراك مهاجمين أصبحوا مدافعين . وراح الإنجليز يتأهبون لغزو فلسطين(٢). وأعدوا لذلك جيشاً قيل إنه كان مؤلفاً من ٧٠,٠٠٠ مقاتل يقودهم قائد كبير هو السر أرشيبالد موري Sir Archibald Murray .

وكان أول عمل قام به هذا القائد ، أن مد سكة حديدية عبر الصحراء ، وجر مياه النيل في أنابيب حديدية إلى ميادين القتال .

فانسحب الأتراك من العريش (٢٠ كانون أول ١٩١٦ م) إلى غزة . وأخذوا يتأهبون للدفاع عنها . فحصنوها تحصيناً تاماً . ولقد قامت فيها معركتان :

---

(١) بلغ مجموع أفراد القوة التي زحفت نحو قناة السويس في بدء القتال ١٢,٦٤٢ جندياً .

(٢) "The Palestine Campaign" by Colonel A. P. Wavell.

الأولى فى ٢٧ آذار ١٩١٧ والثانية ، فى ١٩ نيسان ١٩١٧ . وانتهت كلتاهما بفشل الإنجليز فخسروا فى الأولى ٢,٧٠٠ قتيل و ٢,٩٣٢ جريحاً . وفى الثانية ٢,٠٨٥ قتيلا و ٤,٣٥٩ جريحاً . وأما خسائر الأتراك فكانت فى المعركتين ١,٧٥٠ بين قتيل وجريح .

استبدل الإنجليز ، إثر هذا الفشل ، بعض قادتهم . وعهدوا بالقيادة العامة (حزيران ١٩١٧ م) إلى السر إدموند اللنبى . وطلب هذا منحه سلطات واسعة ، فأعطى كل ما طلب . وأعاد اللنبى تنظيم القوات التى وضعت تحت إمرته بشكل يضمن له النصر . وبلغت هذه مئة ألف مقاتل .

ولم يكن الأتراك بغافلين عما يفعله الإنجليز . إذ أنهم ، عند ما أتتهم أنباء الاستعدادات الإنجليزية ، تنادوا . فعقدوا فى حلب (٢٧ حزيران ١٩١٧ م) مجلساً حربياً حضره أكبر القواد نذكر منهم : القائد العام أنور باشا ، وقائد جيش القفقاس أحمد عزة باشا ، وقائد الجيش الثامن مصطفى كمال باشا ، وقائد الجيش السادس خليل باشا ، وقائد الجيش الرابع جمال باشا . الذى عهد إليه بتنفيذ الخطة المرسومة . وهى تقضى بإضافة الجيشين السابع والثامن من جيوش الصاعقة إلى الجيش الرابع الذى كانت على أكتافه تقوم حملة فلسطين إلى ذلك الحين .

ولكن حالة الجيش التركى لم تكن ، رغم هذه التدابير ، لترضى المطلعين على حقائق الأمور . فقد كانت أرزاقه قليلة ، ووسائط نقله ضعيفة . وفتكت الأمراض بالجند فتكاً ذريعاً ، إلى درجة أن عددهم كان يتناقص يوماً فيوماً . ولقد صودرت الحبوب المعدة للزراعة . وذلك قد أدى إلى حدوث مجاعة فى البلاد . أضف إلى ذلك أن فكرة الاستقلال كانت قد انتشرت بين عرب فلسطين والبلاد العربية الأخرى ، وكانت أخبار ثورة الحسين قد وصلتهم عن طريق المناشير التى أذاعها الحسين بن على شريف مكة ، وكانت الجمعيات

العربية القومية دائبة على حض العرب على مقاومة الأتراك والانضمام إلى الثورة، وكان الاستياء قد عمّ البلاد العربية بسبب التدابير القاسية التى اتخذها جمال باشا ضد رجالات العرب الذين شنق منهم من شنق فى بيروت والقدس والشام . وراح الشبان يفرون من الجيش التركى ؛ والتحق فريق منهم بالجيش البريطانى ، وآخرون بالجيش الذى كان يقوده الأمير فيصل بن الحسين . وكان أبوه الملك حسين بن على شريف مكة ، قد أعلن الثورة على الترك .

وكان اللورد اللنبي قد أتم استعداداته ، وحشد جيشه فأمر بالزحف نحو القدس . فاستولى ، بادئ ذى بدء ، على بئر السبع (١٣ تشرين أول ١٩١٧م) ثم على غزة (٧ تشرين ثانى ١٩١٧ م) والرملة ويافا (١٦ تشرين ثانى ١٩١٧م) ومن الرملة سار فى الطريق نفسها التى سلكها من قبله الأشوريون والرومان والصليبيون نحو الجبال فى طرق وعرة المسالك . . .

فسارت بعض كتائبه على طريق (اللطرون – باب الواد) فى اتجاه سريس وقرية العنب . والبعض الآخر على طريق اللطرون – رام الله ، فى اتجاه لقيا وبيت عور . وهناك كتائب أمرت بأن ترابط على طريق بئر السبع – الخليل لمجابهة الطوارئ فى ذلك القطاع .

أما سريس فقد احتلها الإنكليز فى ٢٠ تشرين الثانى ١٩١٧م . وكذلك قل عن قرية العنب التى دخلوها فى اليوم الذى تلاه . وما هو إلا يوم أو بعض يوم حتى كانت إحدى الكتائب قد احتلت قرية النبي صمويل . تلك القرية المسيطرة على قطاع القدس ، بسبب ارتفاعها ومناعة موقعها . وكانت هذه القرية ، وما برحت إلى يومنا هذا ، فى نظر العسكريين بمثابة (مفتاح القدس) . ولكن الإنجليز لم يستطيعوا أن يتقدموا بعد ذلك شبراً واحداً ، بسبب عناد الأتراك فى هذا القطاع ، وتغلبهم على فرقة من الفرسان الإنجليز كانت تحاول شق طريقها إلى بيتونيا . وقد ارتدت هذه الفرقة إلى بيت عور الفوقا . ثم عادت

فارتدت هى والفرق الأخرى إلى الوراء . فأصدر اللورد اللنبى أوامره فى ٢٤ تشرين الثانى بعدم القيام بأى هجوم ، ريثما تأتيه النجدة . وكان الأتراك من القوة فى هذا القطاع ، بحيث لا يمكن زحزحتهم . وهكذا فشل الهجوم الذى شنه الإنجليز على القدس عن هذه الطريق ، وهو الهجوم الأول .

وكذلك قل عن الهجوم الثانى الذى قاموا به فى ٢٧ تشرين الثانى رغم القوات الجديدة التى كانت قد وصلت .

عندئذ غيرّ الإنجليز الخطة التى كانوا قد رسموها للقتال . فقووا كتائبهم المرابطة فى النبى صمويل . كما قووا كتائبهم المرابطة فى طريق العنب — القدس ، وفى وادى الصرار ، وعلى الطريق بين بئر السبع — الخليل . .

واقترف الأتراك خطأً كبيراً خلال الأيام العشرة الأخيرة التى سبقت احتلال القدس . إذ أنهم بدلا من الثبات فى خنادقهم ورد الغارات التى كان يشنها الإنجليز عليهم ، راحوا يقومون بهجمات مضادة أنهكت الجزء الأعظم من قواهم . رغم أن عدد الجيش التركى المرابط فى قطاع القدس كان يومئذ قد بلغ ١٥و٠٠٠ مقاتل ، معظمهم كان منشغلا بتحصين التلال الواقعة غربى القدس . إلا أن اليأس كان قد دب فى صفوفهم بسبب الجوع والمرض وقلة الذخائر والمؤن . فاهتبل الإنجليز الفرصة السانحة . وأتوا بمدافع ونجدات جديدة فتمكنوا من احتلال بيت أكسا والتلال الكائنة حولها ، كما تمكنوا من احتلال دير يسين ، وكانوا قد استولوا على مواضع استراتيجية أخرى إلى الشرق من وادى الصرار . وكانت بعض كتائبهم قد وصلت إلى قطاع بيت لحم ، واحتلت عين كارم . وراحت مدافعهم تضرب القدس من جهاتها الثلاث : الشمال والغرب والجنوب .

فأيقن الأتراك حينئذ أنهم خسروا المعركة ، وأن القدس لا محالة واقعة بيد الإنجليز .

عندئذ نادى المتصرف التركى عزة بك عدداً من أعيان المدينة ووجوهها

إليه ، فأخبرهم بحقيقة الأمر . وحملهم الرسالة التالية :

إلى القيادة الإنجليزية

منذ يومين والقنابل تتساقط على القدس المقدسة لدى كل ملة . فالحكومة العثمانية – محافظة على الأماكن المقدسة الدينية من الخراب – قد سحبت عساكرها من المدينة وأقامت موظفين ليحافظوا على الأماكن الدينية كالقيامة والمسجد الأقصى . وعلى أمل أن تكون المعاملة من قبلكم أيضاً على هذا الوجه ، فإنى أبعث بهذه الورقة مع حسين بك الحسينى رئيس بلدية القدس بالوكالة سيدى .

٨/١٢/٣٣٣

وفى صباح اليوم التالى انسحب الأتراك من المدينة . فريق منهم انسحب عن طريق أريحا وآخرون واوا وجوههم شطر نابلس . وكانت السماء ماطرة . وكان يخيم على المدينة سحب قاتمة من الرهبة والسكون . فدخلها الإنجليز (الأحد ٩ كانون أول « ديسمبر » ١٩١٧ م) . دخلوها عن طريق الشيخ بدر ، الحى الكائن إلى الغرب من المدينة .

وبعد يومين دخل اللورد اللنبى المدينة من بابها المعروف بباب الخليل وأذاع من فوره على سكانها ، ومن على درج القلعة ، البيان التالى :

« إن انهزام الأتراك أمام الجيوش التى أقودها أدى إلى احتلال مدينتكم وفى الوقت الذى أذيع عليكم فيه هذا النبأ أعلن الأحكام العرفية . وستبقى هذه نافذة المفعول ما دام ثمة ضرورة حربية . ولئلا ينالكم الجوع ، كما نالكم على يد الأتراك ، أريد أن أخبركم أننى أرغب أن أرى كل واحد منكم قائماً بعمله ، وفقاً للقانون دون أن يخشى أى تدخل من أى شخص كان .

« إن مدينتكم محترمة فى نظر أتباع الديانات الثلاث الكبرى . وترابها مقدس فى نظر الحجاج والمتعبدين الكثيرين من أبناء الطوائف الثلاث المذكورة منذ

قرون وأجيال وأود أن أحيطكم علماً بأن جميع المعابد والأماكن المقدسة ستصان وفقاً للعنعنات المرعية وبالنسبة إلى تقاليد الطوائف التى تملكها » .

وكان أول عمل قام به الإنجليز ، بعد احتلالهم المدينة ، أن نصبوا عند مدخلها من الغرب . . ذلك المدخل الذى دخلوها منه . . وهو المعروف بحى الشيخ بدر . . نصباً من الرخام الأبيض تذكاراً لفتحهم . . نقشوا عليه اسم اللورد اللنبي والتاريخ الذى فتحت فيه المدينة على يده . . وأنشأوا حول النصب حديقة . وأرادوا أن يرفعوا على النصب صليباً . إلا أنهم عادوا فعدلوا عن ذلك استجابة لرغبة اليهود . ووضعوا الصليب بشكل لا يراه الناظر من بعيد .

الإدارة العسكرية

أدار الإنكليز القدس ، بادئ ذى بدء ، إدارة عسكرية . وأقاموا عليها حاكماً عسكرياً هو الجنرال بيل بورتون Gen. Bill Borton. واستقال هذا بعد أسبوعين لأسباب صحية. فخلفه فى الإدارة السرالكسندر بيرد Sir Alexander Baird

ثم جاء السر رونالد ستورس . وكان هذا ، قبل مجيئه للقدس ، السكرتير الشرقى لدار المندوب السامى فى القاهرة . ومكث فى القدس عدداً من السنين . وكان فى القدس ، بالإضافة إلى حاكمها الإدارى ، موظف عسكرى كبير مسؤول عن إدارة فلسطين بأجمعها لقبه (المدير العام لبلاد العدو المحتلة الجنوبية) .

كان أولهم البريجادر كلايتون ١٩١٧ والميجور جنرال السر مونى ١٩١٨ والميجور جنرال السر وطسن ١٩١٩ والميجور جنرال السر بولز ١٩٢٠ .

وفيما كان سكان البلاد يتوقعون أن يعهد إليهم بإدارة بلادهم رأوا ، ويا لهول ما رأوا ، أن هذه البلاد راحت ، حتى بعد إعلان الحكم المدنى ، تدار بأيد إنجليزية . وراح الإنجليز يفرضون على الشعب من الضرائب ويسنون من القوانين ما يشاءون لا ما يشاء الشعب نفسه وما تقضى به مصلحته .

وما لبث الشعب العربي أن سمع بوعد بلفور . ذلك الوعد الذى منحه الإنجليز على لسان وزير خارجيتهم اللورد بلفور إلى اليهود بوساطة زعيمهم روتشيلد . إذ أرسل إليه كتاباً قال فيه :

عزيزى اللورد روتشيلد .

يسرنى جداً أن أبلغكم بالنيابة عن حكومة جلالة الملك بأن حكومة جلالته تنظر بعين الرضا إلى إنشاء وطن قومي للشعب اليهودى فى فلسطين وتبذل الجهود فى سبيل ذلك . على أن لا يجرى شيء يضر بالحقوق الدينية والمدنية لغير اليهود فى فلسطين أو يضر بما لليهود من الحقوق والمقام السياسى فى غيرها من البلدان .»

والغريب فى الأمر أن هذا الوعد الذى أعطى بتاريخ ٢ تشرين الثانى ١٩١٧ بقى فى طى الخفاء ، فلم يذع إلا بعد أن احتل الإنجليز القدس فى ٩ كانون أول ١٩١٧ ووضعت الحرب أوزارها ، ولم يعد الإنجليز فى حاجة لرضا العرب سكان البلاد .

فراح هؤلاء يتساءلون : أين هذا من الوعد الذى قطعته إنجلترا للملك حسين يوم طلب منها مكافأة لقيامه ضد الأتراك . « أن تعترف باستقلال البلاد العربية من مرسين حتى الخليج الفارسى شمالا ، ومن بلاد فارس حتى خليج البصرة شرقاً ، ومن المحيط الهندى للجزيرة جنوباً ، ومن البحر الأحمر والبحر المتوسط حتى سينا غرباً[1]... » لا بل أين هو من الثورة نفسها التى أعلنها

---

(١) رضى الملك حسين فى المخابرات التى جرت بينه وبين السر هنرى مكماهون المندوب البريطانى فى مصر ، بين ٢٤ تموز ١٩١٥ و ١٠ آذار ١٩١٦ م ، باستثناء عدن وأطنة ومرسين ، وإخراج هذه المدن من نطاق البلاد العربية التى طالب باستقلالها . ووافق على إرجاء البحث فى أمر العراق على أن يبقى هذا تحت الإدارة الإنجليزية لمدة قصيرة . وأصر الإنجليز كما يفهم من المخابرات المبحوث عنها على استثناء لبنان الكبير والاعتراف بما لحليفتهم فرنسا من مصالح فى ذلك الجزء من البلاد . وطلبوا أن يعترف بما لهم من مركز خاص فى ولايتى بغداد والبصرة .

ولم يرد فى تلك المخابرات ما يشير إلى أن الإنجليز استثنوا فلسطين من وعدهم أو أنهم ينوون إنشاء وطن قومى لليهود فيها أو أنهم يريدون إدارتها إدارة مباشرة .

الحسين بتاريخ ٢٦ حزيران ١٩١٦ والتى قال عنها اللورد اللنبي فى تقريره الذى رفعه إلى وزارة الحربية فور انتهاء القتال : « إنها ساعدت الحلفاء مساعدة كبيرة فى الحصول على نتائج فاصلة فى الحرب » .

وما كادت أنباء وعد بلفور والوطن القومى اليهودى تذاع فى القدس وفى سائر أنحاء فلسطين ، حتى راح الناس يعلنون سخطهم واستنكارهم . وتزعزعت ثقتهم ببريطانيا . فقامت فى القدس وفى غيرها من المدن الفلسطينية مظاهرات صاخبة . وتحولت هذه المظاهرات فى بعض الأماكن إلى اضطرابات دموية .

وعقدت الجمعيات الإسلامية المسيحية فى يافا مؤتمراً (١٢ شباط ١٩١٩ م) . قررت فيه الانضمام إلى سوريا .

وهبطت البلاد فى ١٠ حزيران ١٩١٩ لجنة أميركية بعث بها مجلس الحلفاء الأعلى لاستفتاء السكان ، وكان من المقرر أن تشترك كل من بريطانيا وفرنسا فى عملية الاستفتاء هذه عملا بالقرار الذى أصدره مؤتمر الصلح فى ٢٠ كانون الثانى ١٩١٩ ،وذلك تنفيذاً للمادة ٢٢ من ميثاق عصبة الأمم . إلا أنهما لم تشتركا فى الاستفتاء . لأن مبدأ الاستفتاء يتعارض ومعاهدة سايكس — بيكو ، تلك المعاهدة السرية التى اقتسمت هاتان الدولتان بموجبها بلاد العرب . وكانت نتيجة الاستفتاء ، كما جاء فى تقرير هذه اللجنة ، أن اتفق المسلمون والمسيحيون على مقاومة الحركة الصهيونية ، فرفضوا الانتداب البريطانى ، وطلبوا إلغاء وعد بلفور كما طلبوا الاستقلال التام ضمن الوحدة السورية . وإذا كان لا بد من الانتداب ، فلتكن الدولة المنتدبة أميركا وليست بريطانيا التى منحت اليهود

ومن شاء التفصيل فعليه أن يرجع إلى المخابرات التى جرت بين الملك حسين والسر هنرى مكماهون بين ٢٤ تموز ١٩١٥ و ١٠ آذار ١٩١٦ والتى ورد ذكرها فى معظم التقارير والمؤلفات التى نشرت بعد الحرب .

وعداً بإقامة وطن قومي لهم في فلسطين . وقد أكدوا للجنة أن إقامة مثل هذا الوطن ستؤدى في النتيجة إلى تهديد البلاد .

وأيدت اللجنة في تقريرها مخاوف العرب قائلة إنها اقتنعت من أحاديثها مع ممثلي اليهود أن الصهيونيين يتوقعون أن يجلوا السكان غير اليهود عن فلسطين . وأضافت إلى ذلك قولها إن الشعور ضد الصهيونية بلغ أشده ، وإن البرنامج الصهيوني لا يمكن تنفيذه إلا بالقوة ، وإن هذه القوة يجب أن لا تقل عن خمسين ألف جندى ، وإن مطالب الصهيونيين مبنية على كونهم احتلوها قبل ألفى سنة ، وهذه دعوى لا تستحق الاكتراث .

وأوصت اللجنة في ختام تقريرها بتحديد الهجرة إلى فلسطين ، والعدول بتاتاً عن الخطة التي ترمى إلى جعل فلسطين دولة يهودية .

هذا ويجدر بنا أن نذكر هنا أن موقف بريطانيا وفرنسا حيال هذه اللجنة كان موقفاً عدائياً .

فتزعزعت ثقة الناس ببريطانيا وتوالت المظاهرات ، وتحولت هذه في ربيع عام ١٩٢٠ إلى اضطرابات كان أشدها ذلك الاضطراب الذى حدث في القدس ، في ٤ نيسان ١٩٢٠ م . فقتل من جرائه ٩ من اليهود و ٤ من العرب . وجرح ٢٥٠ يهودياً و ٢١ عربياً . فأعلنت على أثره الأحكام العرفية . واعتقلت السلطة عدداً من الزعماء والشبان ، فزجتهم في أعماق السجون . وتألفت محكمة عسكرية بعدئذ حكمت عليهم بالسجن مدداً تتراوح بين الشهر والخمسة الأعوام. وكان نصيب كاتب هذه السطور ورفيقه الحاج أمين الحسيني أن حكم عليهما أولا بالإعدام ، ثم خفض الحكم إلى السجن عشر سنين .

وفى اليوم الأول من شهر تموز ١٩٢٠ استبدل بالحكم العسكرى إدارة مدنية ونصب على رأس هذه الإدارة أول مندوب سام للملك جورج الخامس وهو السر هربرت صمويل Sir Herbert Samuel P.C.G.B.E. .

ولقد هبط هذا مدينة القدس تحرسه الطائرات والدبابات خشية أن يغتاله العرب ، إذ أنه يهودى إنجليزى . وهو من أقطاب الحركة الصهيونية ، وإن قال فى كثير من المناسبات ، إنه يقف على الحياد بين العرب واليهود ، وإنه لا يبغى سوى خير الفريقين . ولكى يتقرب من العرب عفا عن المحكوم عليهم كلهم خلا عارف العارف والحاج أمين . فإنه كما قال فى بيانه الذى أذاعه على الجمهور يوم هبط البلاد رأى أن لا يعفو عنهما إلا إذا سلما نفسيهما للعدالة البريطانية . وكانا بعيدين عن متناول السلطة فلم يأبها لقوله . ولم يستسلما. لا بل راحا يضاعفان من جهودهما لخدمة قومهما وبلادهما . ثم عاد ، فعفا عنهما دون قيد أو شرط .

ولقد ازداد التوتر فى البلاد ، فحدثت فى يافا اضطرابات أدت إلى اقتتال العرب واليهود ؛ فأقفلت المدينة . وسادت الفوضى ، وامتد لهيب الاضطرابات إلى المستعمرات اليهودية . فقتل من جراء ذلك ٩٥ قتيلا (٤٨ من العرب و ٤٧ من اليهود) وجرح ٢١٩ شخصاً (٧٣ من العرب و ١٤٦ من اليهود) وتألفت لجنة برئاسة قاضى القضاة السر توماس هيكرافت للتحقيق فى أسباب هذه الاضطرابات . فقالت هذه فى تقريرها إنها ناشئة عن الشعور السائد فى البلاد ضد اليهود . وهذا ناشىء عن خطة الحكومة فيما يتعلق بالوطن القومى .

ومع ذلك فقد مضت السلطة المنتدبة فى تدابيرها القاسية للحد من الشعور الوطنى ولتوطيد دعائم الوطن القومى اليهودى لا فى يافا أو فى القدس وحدهما ، وإنما فى فلسطين كلها . من ذلك أنها فى الوقت الذى راحت تزود المستعمرات اليهودية بالسلاح وتدربهم على القتال ؛ حظرت على الأهلين حمل السلاح واستعماله ، وفرضت عليهم عقوبة السجن المؤبد والإعدام .

وجعلت اللغات الثلاث ، العربية والعبرية والإنجليزية ، لغات البلاد الرسمية . وفتحت باب الهجرة لليهود . فدخل فلسطين منهم فى السنوات الخمس الأولى خمسون ألفاً . ومعنى ذلك أن عددهم تضاعف فى عهد المندوب السامى

الأول فأصبحوا مئة ألف . واختار معظمهم الإقامة فى بيت المقدس

وسمح لليهود بشراء الأراضى كيفما يشاءون . فتضاعفت ممتلكاتهم . وأصبحت بنسبة ٦ إلى ٧ ٪ من مجموع مساحة الأراضى الفلسطينية . وازدادت مساحة الأراضى التى تملكوها فى القدس .

وعلى عهد هذا المندوب ، عقد فى القدس مؤتمر كبير (٢٥ حزيران ١٩٢١) . وقرر المؤتمرون رفض الانتداب وإلغاء وعد بلفور وطالبوا باستقلال فلسطين ، وإقامة حكم نيابى ديمقراطى فيها على أن تتحد مع البلاد العربية الأخرى . وسافر وفد منهم إلى الغرب حاملا معه هذه القرارات . ولم يترك الوفد فى إنجلترا وفى سائر أنحاء أوربا باباً إلا طرقه . ولكنه وجد الأبواب كلها موصدة .

ولكى يلهى الشعب العربى عن فلسطين هدفه الأصلى راح يضرب الأحزاب الفلسطينية بعضها بالبعض الآخر . ولا سيما فى القدس . فقد أقال موسى كاظم باشا الحسينى من رئاسة البلدية ووضع مكانه راغب بك النشاشيبى . ووضع (١٩٢١ م) الحاج أمين الحسينى على رأس (المجلس الإسلامى الأعلى) وراحت هاتان الأسرتان وهما من الأسر المعروفة بفلسطين تتنافسان من أجل الزعامة والنفوذ وسرى الانقسام إلى سائر الأسر والأحزاب . فانقسم الفلسطينيون بوجه عام والمقدسيون بوجه خاص إلى شطرين : شطر يؤيد هذا ، وآخر يعضد ذاك .

واهتبل الإنجليز الفرصة ، فراحوا يقوون وسائل استعمارهم ، كما اهتبلها اليهود ، وراحوا يوطدون دعائم وطنهم القومى الذى كانوا يهدفون من ورائه إلى امتلاك البلاد كلها ، لا القدس وحدها .

وفيما كان العرب فى حيرة من أمرهم ماذا يفعلون ، أتتهم أنباء تقول إن عصبة الأمم (٢٤ تموز ١٩٢٢ م) فرضت على فلسطين نوعاً من الحكم أسمته (الانتداب) . وعهدت إلى بريطانيا بإدارتها نيابة عنها ، على أن يبدأ هذا فى

٢٩ أيلول ١٩٢٣ . وجاء فى ديباجة صك الانتداب « أن دول الحلفاء وافقت على أن تكون الدولة المنتدبة مسؤولة عن تنفيذ التصريح الذى صرحت به حكومة جلالة ملك بريطانيا فى ٢ تشرين الثانى ١٩١٧ م بأن ينشأ فى فلسطين وطن قومى للشعب اليهودى على شريطة أن لا يفعل شىء يضر الحقوق المدنية والدينية التى تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة فى فلسطين الآن ، ولا الحقوق والمركز السياسى الذى يتمتع به اليهود فى البلدان الأخرى . »

ومنحت المادة الأولى منه « السلطة التامة للدولة المنتدبة فى التشريع والإدارة إلا حيث أقيمت لها حدود فى نصوص صك الانتداب هذا » .

ونصت المادة الثانية من الصك نفسه على أن « تكون الدولة المنتدبة مسؤولة عن جعل البلاد فى أحوال سياسية وإدارية واقتصادية تكفل إنشاء الوطن القومى اليهودى وترقية أنظمة الحكم الذاتى وضمان الحقوق المدنية والدينية لجميع سكان فلسطين بقطع النظر عن الأجناس والأديان » .

عندئذ أيقن الفلسطينيون أن إنجلترا صديقة العرب خانتهم ، وأن الاستقلال الذى كانوا ينشدونه والذى لولاه ما خرجوا على الترك ولا انضموا لثورة الحسين ، دونه خرط القتاد .

ولقد عرضت الحكومة ، بعدئذ ، مشروعاً يقضى بإنشاء (مجلس تشريعى) على أن يؤلف هذا من ثلاثة وعشرين عضواً : أحد عشر منهم من موظفى الحكومة واثنى عشر من الأهلين (عشرة من العرب واثنان من اليهود) ، وأن يرأسه المندوب السامى . فرفض العرب هذا المشروع (١ أيلول ١٩٢٢ م) لأن المجلس التشريعى المقترح لا يملك سلطة تنفيذية ، وليس له أن ينظر فى أية نقطة تعارض مبدأ الوطن القومى اليهودى ، ولأن قرارات المجلس « يتوقف تنفيذها على إرادة المندوب » .

ولما فشل مشروع المجلس التشريعى عرضت الحكومة على العرب (١٣

تشرين الأول ١٩٢٣) مشروعاً آخر يقضي بتأليف وكالة عربية يكون لها ما للوكالة اليهودية من الحقوق والمزايا . إلا أنهم رفضوا هذا المشروع أيضاً ، لأنه لا يحقق الأماني الوطنية .

ومضت السلطة البريطانية في تنفيذ التدابير التي رسمتها لتهويد فلسطين ، يتزعمها اثنان من أقدر رجال اليهود هما المندوب السامي السر هربرت صمويل والمستشار القضائي إلاضون نورمان بنتويش . فكان الثاني يسن الأنظمة والقوانين ، وكان الأول يوقع عليها ويأمر بتنفيذها .

وبفضل هذين الاثنين تمكن اليهود من استغلال مرافق البلاد . فألف بنحاس روتنبرغ ، وهو مهندس يهودي روسي ، شركة أسماها (شركة كهرباء فلسطين) . ونالت هذه الشركة (في ٢١ أيلول ١٩٢١) امتيازاً منحت بموجبه حق استغلال نهري الأردن واليرموك وروافدهما ، لتوليد القوى الكهربائية وإضاءة فلسطين (خلا القدس وقطاعها) بالكهرباء .

وأما القدس وقطاعها (رام الله وبيت لحم وبيت جالا) فقد ابتاعت شركة إنجليزية يهودية أخرى حق إضاءتها بالكهرباء من رجل يوناني كان قد حصل على هذا الامتياز في العهد التركي .

وقصارى القول لم تذق القدس ، على عهد هذا المندوب ، طعم الراحة . ولم تر ، خلال السنوات الخمس التي قضاها في البلاد ، من الإصلاح والعمران سوى ما قامت به (جمعية محبي القدس Pro-Jerusalem Society) . تلك الجمعية التي وضع أساسها في أيلول ١٩١٨ وقالت إنها تهدف إلى تحسين هذه المدينة المقدسة من الناحيتين العمرانية والأثرية ، والاحتفاظ بمكانتها التاريخية . وكان رئيسها حاكم القدس في ذلك الحين ، السر رونالد ستورس ، وأعضاؤها خليط من العرب واليهود والإنجليز . وهدمت هذه الجمعية معظم العمارات الملاصقة للسور بين باب العمود والباب الجديد ، وحظرت إنشاء العمارات على

مقربة من السور فى أى مكان . وربطت الحكومة ، بإيعاز من هذه الجمعية ، شؤون البناء والتعمير بنظام .

وجاء بعد السر هربرت صمويل الفيلد مارشال بارون بلومر .

Field-Marshal Baron Plumer, G.C.P., G.C.M., G.C.C.V.O , G.B.E.

وكان ذلك فى ١ آب ١٩٢٥ م .

فلم يختلط هذا بالشعب . وكان همه الوحيد توطيد الأمن والنظام فى البلاد . فأدارها إدارة عسكرية أكثر مما هى مدنية . وأكثر من توظيف الإنجليز فى مختلف مصالح الحكومة ودواوينها . وطغى سيل الهجرة على عهده ، وحصل اليهود على امتياز لاستغلال البحر الميت .

ومن الحوادث التى حدثت فى القدس على عهد هذا المندوب أن اشتد الخلاف بين المسلمين واليهود (فى شهر أيلول ١٩٢٥ م) حول البراق . إذ ادعى اليهود أن لهم الحق فى جلب الكراسى والمقاعد والستائر معهم واستعمال هذه الأدوات أثناء تعبدهم هناك . وعارضهم المسلمون فى ذلك فقالوا إن هذا المكان وقف إسلامى ، أنشأه صلاح الدين لمنفعة المسلمين . وكاد الخلاف يؤدى إلى قتال لولا أن تدخلت الحكومة . فبحثت الخلاف من جميع وجوهه ، وأصدرت قرارها مؤيدة فيه الوضع الراهن . محظرة على اليهود أن يجلبوا معهم أى شىء مما يدعون .

وبعد الفيلد مارشال بلومر جاء السر جون تشانسلر

Lieut-Colonel Sir John Chancellor, G.C.M.G, G.C.V.O., D.S.O.

وعلى عهده تجددت حركة البراق . فأراد اليهود أن يتحدوا أمر الحكومة فى المحافظة على الوضع الراهن ، فأتوا معهم فى يوم عيد الغفران ببعض الأدوات . فاعتبر الموظف المسؤول ذلك من المحدثات ، ورفعها بالقوة . وراح اليهود والمسلمون بعدئذ يتشاكون . وتنادى المسلمون ، فعقدوا مؤتمراً إسلامياً فى القدس (١ تشرين

الثانى ١٩٢٨) . وقرر المؤتمرون ، فيما قرروا ، الاحتجاج على أى عمل أو محاولة ترمى إلى إحداث أى حق لليهود فى مكان البراق . وأرسل وزير المستعمرات البريطانية للقدس لجنة أسماها (لجنة البراق) . وبعد تحقيق دام شهراً رفعت اللجنة تقريراً[١] يقول بضرورة الاحتفاظ بالوضع الراهن . ولم يرض اليهود عن هذا القرار . لا ، بل راحوا يتحدونه . كما راحوا يتحدون العرب .

وأقنعوا وكلاء التاج فى لندن فحصلوا على امتياز لاستثمار البحر الميت واستخراج البوتاس وسائر الأملاح المعدنية فيه . وقد أمضى هذا الاتفاق فى شهر حزيران ١٩٢٩ . والذى أمضاه وكلاء التاج بالنيابة عن حكومتى فلسطين وشرق الأردن ، واثنان من أصحاب الأعمال اليهود هما نوفومسكى وتولوخ ، باسم (شركة البوتاس الفلسطينية) . وازداد عدد المهاجرين إلى فلسطين بحجة وجود أعمال ، ونشط اليهود فى شراء الأراضى .

وقامت فى القدس ونابلس ويافا والخليل وفى سائر أنحاء فلسطين على إثر ذلك (فى شهر آب ١٩٢٩) ثورة ضد الحكومة ، وضد الوطن القومى اليهودى معاً .

فاصطدم الفريقان حيثما التقيا . وقتل من اليهود ١٣٣ ومن العرب ٩١ (سبعة وثمانون منهم مسلمون وأربعة مسيحيون) وجرح من اليهود ٣٣٩ ومن العرب ١٨١ . وكانت أكثر إصابات العرب من الجند . ودمرت ست مستعمرات يهودية تدميراً تاماً .

وأدانت المحاكم ٧٩٢ عربياً بسبب هذه الثورة فحكمت على ٢٠ منهم بالإعدام . وخفض مجلس الملك الخاص حكم الإعدام ، فيما يتعلق بسبعة عشر عربياً ، إلى السجن المؤبد . وأعدم ثلاثة وهم عطا أحمد الزير ، ومحمد خليل جمجوم ، وفؤاد حسن حجازى . واليهودى الوحيد الذى حكم عليه بالإعدام بسبب قتله أسرة عربية ، وهو موظف فى قوة البوليس ، خفض حكمه إلى السجن

(١) الكتاب الأبيض رقم ٣٢٢٩ تاريخ تشرين الثانى ١٩٢٨

خمس عشرة سنة . ثم عفى عنه . هذا من ٩٢ يهودياً صدرت بحقهم أحكام مختلفة .

وأرسلت الحكومة لجنة للتحقيق برئاسة السر والتر شو Sir Walter Shaw وثلاثة من الأعضاء يمثلون الأحزاب البريطانية الثلاثة ، وهبطت اللجنة مدينة القدس . وبعد أن درست المشكلة الفلسطينية والأسباب التى أدت إلى الفتنة أصدرت قرارها فى شهر آذار ١٩٣٠ (رقم ٣٥٣٠ .Cmd) وقد جاء معظمه فى صالح العرب . وإليك ملخصه :

١ — الفتنة نتيجة حتمية لمخاوف العرب . ومخاوفهم ناجمة عن اعتقادهم بأن السياسة المتبعة بشأن الهجرة والأراضى ستؤدى حتماً إلى إخضاع العرب التام ، وإخراجهم من بلادهم . كما أنها ستحرمهم يوماً من وسائل معيشتهم .

٢ — أن هذا الخوف وذاك الاعتقاد سيكونان سبباً فى اضطرابات أخرى لا بد أن تقع فى المستقبل .

٣ — أن الأزمة التى وقعت فى سنتى ١٩٢٧ — ١٩٢٨ نشأت فى الواقع بسبب قدوم عدد من المهاجرين إلى البلاد أكثر مما تستطيع أن تستوعبه . وهذا ما قاله السر جون كامبل ، أحد الخبراء فى مسائل الاستعمار الذين عينتهم لجنة الأبحاث العامة المشتركة . تلك اللجنة التى ألفتها الجمعية الصهيونية بالاشتراك مع الزعماء اليهود غير الصهيونيين فى أميركا سنة ١٩٢٧ .

٤ — إذا أجيب اليهود إلى طلبهم وسمح لهم بإدخال ٢٥,٠٠٠ مهاجر فى السنة ، فإنهم يصبحون أكثرية فى سنة ١٩٤٨ .

٥ — يتوق اليهود إلى إيجاد دولة يهودية فى فلسطين ، سواء فى ذلك المتطرفون والمعتدلون . وإن اختلفوا فى الطريق التى يجب السير عليها توصلا لهذه الغاية .

٦ — يجب أن تكون الهجرة إلى فلسطين متناسبة مع مقدرة البلاد الاقتصادية بحيث لا يصبح المهاجرون عبئاً على أهالى فلسطين — ويجب أن يؤخذ رأى

الهيئات غير اليهودية فى مسائل الهجرة .

٧ — أن التدابير التى اتخذتها حكومة فلسطين لحماية حقوق المزارعين العرب ، ومنها قوانين انتقال الأراضى فى ١٩٢٠ و ١٩٢١ و ١٩٢٩ ، لم تأت بالغاية المتوخاة . فقد بقى عدد كبير من المزارعين ، بسبب انتقال مساحات واسعة من الأراضى العربية إلى أيد يهودية ، بلا أرض يعيشون منها . وفى هذا ما فيه من دليل على تقصير حكومة فلسطين .

٨ — منحت بريطانيا العراق والأردن الحكم الذاتى ، وحرمت فلسطين من هذا الحق بسبب وعد بلفور . وهذا ما جعل العرب يعتقدون أن وجود اليهود بفلسطين حجر عثرة فى سبيل تحقيق أمانيهم القومية — وهم يعتقدون اعتقاداً جازماً أن الوعد الذى قطعه مكماهون بالاستقلال يشمل فلسطين .

٩ — وقصارى القول أن الشعب العربى فى فلسطين يطالب بحكومة نيابية ، وهو متحد فى طلبه هذا . وأن شعور الأستياء الذى يسوده ناشىء عن حرمانه من حق الحكم الذاتى . وأن هذا الشعور ساعد على وقوع الاضطرابات الأخيرة . إذاً يجب على الحكومة أن لا تتجاهل ذلك عند ما تبحث فى التدابير الواجب اتخاذها لاجتناب وقوع مثل هذه الاضطرابات فى المستقبل .

هذا هو ملخص التقرير الذى رفعته لجنة شو إلى الحكومة البريطانية . وبناء على توصية هذه اللجنة هبط القدس بعد قليل (أيار ١٩٣٠) السر جون هوب سمبسون بوصفه خبيراً فى مشاكل الأراضى . وبعد أن درس الوضع درساً دقيقاً رفع إلى حكومته تقريراً ، جاء فيه :

١ — أن الأراضى التى بيد العرب لا تكفى لسد حاجتهم .

٢ — أن الأسرة العربية الواحدة فى فلسطين تحتاج إلى ١٣٠ دونماً من الأرض لتتمكن من القيام بأودها ، وهى لا تملك الآن سوى ٩٠ دونماً .

٣ — أن الأراضى التى بيد اليهود تزيد على حاجتهم .

٤ ــ أن الأرض التى يشتريها اليهود من العرب تبقى بأيديهم إلى الأبد ، فلا يبيعونها ، ولا يؤجرونها إلا إلى اليهود . وعندما تؤجر إلى يهودى يشترط عليه أن لا يستخدم أى عربى فيها .

٥ ــ يدخل البلاد سنوياً ، بالإضافة إلى المهاجرين الشرعيين ، عدد كبير من المهاجرين بطريق التهريب . وهذا يزيد مشكلة الأراضى سوءاً .

وما كاد هذان التقريران يصلان إلى لندن ، ويدرسان فيها ؛ حتى أصدرت الحكومة الإنجليزية بياناً أوضحت فيه واجباتها ، والخطة التى تريد أن تسير عليها فى إدارة فلسطين وفقاً لصك الانتداب . وقد أسمته (الكتاب الأبيض) ونشرته فى عدد ممتاز من الجريدة الفلسطينية بتاريخ ٢٤ تشرين الأول ١٩٣٠ وقد جاء فيه :

١ ــ المقصود من (الوطن القومى اليهودى) فى فلسطين زيادة رقى الطائفة اليهودية ، وليس معناه فرض الجنسية اليهودية على فلسطين إجمالا .

٢ ــ من العبث أن يلح زعماء اليهود على حكومة جلالته كى تسير فى سياستها فيما يتعلق بالمهاجرة والأراضى حسب أمانى المتطرفين من الصهيونيين . فإنها إذا ما فعلت ذلك ، تكون قد أخلت بواجبها إزاء غير اليهود من أهالى فلسطين .

٣ ــ لا يمكن السماح بهجرة يهودية تزيد على مقدرة البلاد الاقتصادية .

٤ ــ أن للوكالة اليهودية ، بموجب المادة ٤ من صك الانتداب ، حق النصح والمعونة ، وليس لها حق الاشتراك فى حكم البلاد .

٥ ــ يجب ، فى الوقت نفسه ، إيجاد الوسائل التى تصون مصالح السكان غير اليهود صيانة تامة ، وأن يتاح لهؤلاء السكان أيضاً الفرصة لتقديم المشورة لحكومة فلسطين فيما يتعلق بتلك المصالح .

٦ ــ أن الالتزامات المفروضة فى صك الانتداب بشأن الفريقين متساوية .

٧ — إن حكومة جلالته ترى أن الوقت قد حان للسير فى مسألة منح فلسطين نوعاً من الحكم الذاتى . وبناء على ذلك فهى تنوى أن تشكل مجلساً تشريعياً يتمكن العرب فيه من وضع آرائهم الاجتماعية والاقتصادية أمام الحكومة بوسائل دستورية .

٨ — ليس فى فلسطين فى الوقت الحاضر أية أرض ميسورة لاستقرار المزارعين من المهاجرين الجدد . ومساحة الأراضى المحلولة التى تملكها الحكومة ليست مما يعتد بها .

٩ — أن السياسة التى تتبعها الوكالة اليهودية فيما يتعلق بشراء الأراضى واستغلالها وتأجيرها لا تتفق مع التصريح الذى أدلى به المؤتمر الصهيونى فى سنة ١٩٢١ بأن الشعب اليهودى يرغب فى أن يعيش مع الشعب العربى بصلات صداقة واحترام متبادلين .

١٠ — دخل البلاد كثير من الأشخاص دون أن يحصلوا على التأشيرة (الفيزا) اللازمة لدخولهم . كما دخلها وبقى فيها كثيرون ممن سمح لهم بالإقامة المؤقتة فقط . ذلك لأن الحكومة لا تراقب الحدود ومرافق البلاد مراقبة فعالة .

١١ — يتحتم على الدولة المنتدبة إما أن تخفض المهاجرة ، أو أن تقفها فى الحالات الضرورية . ذلك لأن المهاجرة غير المحددة تسبب حرمان السكان العرب من الحصول على الأشغال الضرورية لمعيشتهم .

١٢ — ليس ثمة أمل فى تحسن العلاقات المتبادلة بين الشعبين ؛ لا ، ولا فى تحقيق الوطن القومى اليهودى ، إلا إذا توطدت الطمأنينة والرفاهية ؛ وبذلك يسود الرخاء والسلام فى فلسطين .

هذا ما جاء فى الكتاب الأبيض ، ذكرناه بوجه الإيجاز . ولقد ركدت على أثره (وبعبارة أخرى إثر ثورة العرب فى ١٩٢٩ م) الحركة الصهيونية . وهبط عدد المهاجرين اليهود إلى الحضيض . لا ، بل نزح عن البلاد عدد كبير

من اليهود الذين جاءوا إليها بعد الاحتلال .

ونشطت الهيئات الوطنية العربية للمطالبة بالحكم الذاتى . فراحت تنادى بإلغاء الانتداب ، ومقاومة الوطن القومى اليهودى . وراح العرب يقاطعون اليهود ، ويقاطعون بضائعهم ومنتجاتهم . وكانت القدس مركزاً للحركات الوطنية ، بجميع ألوانها .

ولكن الحكومة البريطانية ما لبثت أن نكصت على عقبيها . إذ أصدر رئيسها آنذاك المستر رمزى مكدونالد بياناً (١٣ شباط ١٩٣١) محا فيه بجرة القلم ما جاء فى الكتاب الأبيض . وذلك قد جعل العرب يعتقدون أنه لا خير يرجى من الإنجليز . وأن النضال يجب أن يوجه ضدهم قبل اليهود .

واستقال المندوب السامى السر جون تشانسلور من عمله (٣١ آب ١٩٣١) إثر هذا النكوص .

فخلفه المندوب الرابع اللفتنانت جنرال السر أرثور غرنفيل واكهوب
Lieut - General Sir Arthur Grenfell Wauchope, K.C.B. C.M.G. C.I.E. D.S.O.

ولما هبط هذا القدس فى أول أيلول ١٩٣٠ رأى أمامه بلاداً تتقلى على جمر الثورات والقلاقل ، وشعباً مثقلا بالضرائب ، واستياء يشمل جميع الطبقات . فأبدى ، أول ما أبدى ، اهتماماً بالفلاحين ؛ فخفض عنهم الضرائب ، وراح يمدهم بالقروض الزراعية . فما لبث هؤلاء أن لقبوه بـ (صديق الفلاح) . ولو دروا أن سياسته ستنتهى حتما بإفنائهم وإفناء بلادهم لما فعلوا . إذ أنه فى الوقت الذى كان يمد فيه يده اليمنى إلى الفلاحين ، كان يمد اليسرى إلى اليهود[١] . فسمح لهم بالهجرة إلى فلسطين ودخلها منهم فى السنوات الخمس التى قضاها فى هذه البلاد مئتان وخمسون ألفاً . ونشط اليهود ، على عهده ، لشراء الأراضى .

وهذا كله أغضب سكان البلاد . فراحوا يتنادون . وعقدوا فى جوار الحرم

---
(١) "Trial and Error" by Weizmann

(كانون الأول ١٩٣١) مؤتمراً إسلامياً حضره عدد كبير من المسلمين : من فلسطين والأردن ، وسوريا ، ولبنان ، واليمن ، والعراق ، ومصر ، والحجاز ، ومن تونس ، وبرقة ، وفارس ، والجزائر ، والمغرب الأقصى ، ومن تركيا ، وتركستان الصينية ، والهند ، والقفقاس ، حتى ومن يوغسلافيا ، ونيجريا ، وجاوا ، وسيلان .

وقرر المؤتمرون ، فيما قرروا ، إيجاد كتلة عربية إسلامية تقف سداً منيعاً أمام مطامع اليهود فى الأرض المقدسة ، ومقاطعة جميع المصنوعات الصهيونية فى جميع الأقطار الإسلامية ، وتنبيه العالم الإسلامى إلى الخطر الكامن وراء الصهيونية ، وصد تيار الهجرة اليهودية ، ومقاومة بيع الأراضى لليهود ، ودعوة العالم الإسلامى لشرائها ، واستنكار الاستعمار بجميع ألوانه فى أى قطر من الأقطار الإسلامية ، واعتبار قضية العرب الأرثوذكس جزءاً من القضية العربية .

وكان هؤلاء (أى العرب الأرثوذكس) قد عقدوا فى يافا وقبل ذلك ببضعة أيام (تشرين الثانى ١٩٣١) مؤتمراً أيدوا فيه المطالب الوطنية . وقرروا ، فيما قرروا ، أن يكون البطريرك عربياً لا يونانياً أجنبياً كما هى الحال . وأن لا يعترفوا بأى بطريرك لا يشترك الشعب فى انتخابه .

وعقدت اللجنة التنفيذية العربية اجتماعاً (١٩٣٣) درست فيه الموقف . وقررت أن تقام فى القدس وفى سائر أنحاء فلسطين مظاهرات يعبر فيها الشعب عن سخطه واستنكاره للسياسة القائمة . وما كادت الحكومة تتلقى الخبر حتى أصدرت بلاغاً منعت فيه قيام المظاهرات . إلا أن اللجنة التنفيذية ثبتت فى قرارها . لا ، بل إنها راحت تسير فى مقدمة المتظاهرين فى القدس . واشترك النساء مع الرجال فى هذه المظاهرة . وجاء الإنجليز بحرابهم ودباباتهم ، ففرقوا المتظاهرين ؛ بعد أن جرحوا منهم خمسة وثلاثين ، وجرح خمسة من رجال البوليس وكذلك قل عن المظاهرة التى قامت فى يافا بعد ذلك ببضعة أيام . تلك المظاهرة

التى فرقها الإنجليز بالقوة ، بعد أن قتلوا ٣٠ عربياً وجرحوا زهاء مئتين .

وتكهرب الجو ، فى أواخر عام ١٩٣٥ ، بسبب بيع الأراضى وتغلغل النفوذ اليهودى فى أداة الحكم ، ولا سيما تيار الهجرة الذى لم ينقطع . وقد دخل البلاد فى ذلك العام وحده خمسون ألف يهودى ، فقامت البلاد قومة رجل واحد : تطالب الحكومة بصد ذلك التيار ، وشعر الجميع بالخطر ؛ فاتحدت الأحزاب ، واتفقت كلها على المطالبة بالحكم الذاتى ، ووقف تيار الهجرة الذى طغى على البلاد . ولما لم تلب الحكومة طلبها أعلنت الإضراب العام . ودام الإضراب الذى بدأ فى ٢٥ نيسان ١٩٣٦ ستة أشهر كاملة . ووقفت الأعمال خلالها فى جميع المؤسسات العربية . فى المتاجر ، والمصانع ، والمكاتب، والمدارس ، وفى ميناء يافا ،وفى كل مكان . وقد شمل الإضراب وسائل النقل على اختلاف أنواعها .. فى المدن والقرى . . فلم يذهب العمال إلى أعمالهم والتجار إلى متاجرهم . والطلاب والمعلمون إلى مدارسهم . . وامتنع المحامون عن ارتياد دور المحاكم وعن المرافعات والمحاكمات ، إلا إذا دعاهم الواجب لإنقاذ عربى من مخالب السلطة .... وسلم المخاتير أختامهم إلى السلطة ممتنعين عن تلبية دعوتها أو الإجابة عن أسئلتها . . . كما امتنع القرويون بوجه عام عن ارتياد الأسواق وعن بيع منتجاتهم وخضرهم . . وأضربت البلديات عن كل عمل ، خلا أعمال التنظيف والتنوير وإيصال المياه إلى المنازل . حتى السجناء ، فقد أضربوا عن العمل . . . كما أضرب رجال البوليس العرب ، فراحوا يطالبون السلطة أن تساويهم بزملائهم البريطانيين من حيث الدرجات والامتيازات ، وفصلهم عنهم بالمرة من حيث الأمر والنهى . . .

وراح رجال الدين يعظون الناس فى مساجدهم وكنائسهم إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم .

وقصارى القول شمل الإضراب جميع مرافق البلاد، فلم يستثن منه سوى المطاحن والأفران والمستشفيات والعيادات الطبية والصيدليات .

وأما الصحف فقد اكتفت بالإضراب ثلاثة أيام . ثم عادت إلى الظهور كى ترشد الأمة إلى خيرها ، وتطلعها على ما يعتور سبيلها من عثرات . وكذلك قل عن الموظفين العرب من الدرجة العليا ؛ فقد كتبوا إلى الحكومة مذكرة قالوا فيها إنهم يشاطرون أمتهم فى شعورها ، ويطالبون بإعطائها حقها . وعبثاً حاولت الحكومة أن تقنع زعماء الأحزاب كى يعدلوا عن الإضراب ، وينصحوا الناس بالعودة إلى أعمالهم .

واتحدت الأحزاب العربية الفلسطينية كلها : حزب الاستقلال العربى الذى تأسس فى ٤ آب ١٩٣٢ وزعيمه المحامى عونى عبد الهادى . . . وحزب الدفاع الوطنى الذى تأسس فى ٢ كانون الأول ١٩٣٤ وزعيمه راغب النشاشيبى . . . والحزب العربى الفلسطينى الذى تأسس فى ٢٤ نيسان ١٩٣٥ وزعيمه جمال الحسينى . . . وحزب الإصلاح الذى تأسس فى ١٨ حزيران ١٩٣٥ وزعيمه الدكتور حسين فخرى الخالدى . . . وحزب الكتلة الوطنية الذى تأسس فى ٤ تشرين الأول ١٩٣٥ وزعيمه المحامى عبد اللطيف صلاح . والأحزاب الأربعة الأولى تأسست فى القدس ، وجعلت مقرها الرئيسى فيها . وأما حزب الكتلة فقد تأسس فى نابلس ، واتخذها مركزاً لأعماله . وجميع هذه الأحزاب كانت تستهدف خير البلاد . وجاء فى برامجها أنها تطلب استقلال البلاد ضمن وحدة عربية كبرى ، وتقاوم فكرة الوطن القومى اليهودى ؛ وإن كان بعضها يختلف عن البعض الآخر فى بعض الأشكال ووسائل التنفيذ .

ولما جد الجد وأيقن الجميع أن الحكومة الإنجليزية لا تنوى بهم خيراً وأن فلسطين ضائعة لا محالة إذا لم يتحدوا ، وأعان الإضراب العام ؛ اتحدوا ، فألفوا لجنة أسموها (اللجنة العربية العليا) . ألفوها من السادة : الحاج أمين الحسينى ، راغب النشاشيبى ، أحمد حلمى عبد الباقى ، الدكتور حسين الخالدى ، يعقوب فراج ، ألفرد روك ، عونى عبد الهادى ، عبد اللطيف صلاح ، الحاج يعقوب

الغصين ، جمال الحسيني . وانتخبت هذه اللجنة لرياستها الحاج أمين ، وأميناً لمالها أحمد حلمي عبد الباقي ، وأميناً لسرها عوني عبد الهادي .

وفي الجلسة الأولى التي عقدتها بتاريخ ٢٥ نيسان ١٩٣٦ أصدرت قرارها بالاستمرار على الإضراب حتى تجاب البلاد إلى مطالبها . ولخصت هذه المطالب بمنع الهجرة اليهودية منعاً تاماً ، ومنع انتقال الأراضي من العرب إلى اليهود ، وإنشاء حكومة وطنية مسؤولة أمام مجلس نيابي .

ودعت اللجنة العليا الشعب بمختلف طبقاته إلى مؤتمر عام ، عقد في القدس بتاريخ ٧ آيار ١٩٣٦ . فأيد المؤتمرون قرار الإضراب ، مضيفين إليه قراراً آخر ، هو الامتناع عن الضرائب . وقد امتنع الناس عن الدفع اعتباراً من ١٥ آيار . فأعلنت الحكومة قانون الطوارئ . واعتقلت عدداً من خيرة شبان البلاد ورجالاتها ؛ فزجت بعضهم في معتقل أقامته في عوجا الحفير قريباً من التخوم المصرية . والبعض الآخر في صرفند على مقربة من الرملة . وزادت قواتها التي كانت ترابط في البلاد ؛ فراح يعسكر فيها عشرة آلاف جندي . وازداد هذا العدد ، بعد قليل ، فبلغ العشرين ألفاً ، تعززهم الطائرات والدبابات ومختلف أنواع الأسلحة والمعدات .

وبعد أن كانت المقاومة العربية منحصرة في الإضراب ، انقلبت في شهرها الثاني إلى ثورة علنية . إذ راح الأهلون يصطدمون بالجند حيثما يلتقون . فقطعت أسلاك البرق والهاتف ، وهوجمت القطارات الحديدية ، ونسفت الجسور ، ودمرت أنابيب البترول ، كما دمرت المباني الحكومية ، وأطلق الرصاص على الجنود واليهود ، وسدت الشوارع بالحجارة ، ورشت الطرق بالمسامير عرقلة لوسائل النقل ، وهوجمت المستعمرات اليهودية في الليل والنهار . وقد أخليت معظم هذه المستعمرات من سكانها . وما كان اليهود ليستطيعوا السير والتنقل من مكان إلى مكان إلا في سيارات مصفحة بالفولاذ .

ولم تقف الحكومة حيال ثورة العرب هذه وقفة المتفرج . بل إنها أمرت جيشها بالنزول إلى الميدان ، وكان عدده قد ازداد – كما سبق وقلنا – فأصبح مؤلفاً من عشرين ألف مقاتل . وقام هؤلاء بتنفيذ الأوامر التى أعطيت لهم ؛ ففتشوا العرب فى مدنهم وقراهم ، ونسفوا دورهم ومنازلهم ، وحطموا كل ما وقعت عليه أيديهم فى تلك المنازل من آلات وأدوات ومن مواد غذائية . وقتلوا وجرحوا عدداً كبيراً من الأهلين : لا فرق فى نظرهم بين مدنى وقروى . بين مسالم وثائر . . . وذلك قد حدا بالقرويين لهجر قراهم ،ومعظم الناس لهجر منازلهم

وهؤلاء الذين هجروا قراهم ومنازلهم قد اعتصموا بالجبال . فزادوا النار لهيباً . وما كاد يمر مئة يوم على بدء الإضراب حتى كانت نيران الثورة قد ازدادت اضطراماً ، وراح الثوار يتحدون الجند فى كل مكان .

فازداد الموقف حرجاً . وعبثاً حاول المصلحون الذين توسطوا بين الطرفين كى يعيدوا المياه إلى مجاريها . . ومن هؤلاء الأمير عبد الله بن الحسين أمير الأردن ، والمستر دانيال أوليفر وهو رجل إنجليزى من طائفة الفرندز ، ونورى باشا السعيد وزير خارجية العراق . وقد أكد هذا أنه يمثل فى وساطته الحكومات العربية الثلاث : العراق والمملكة العربية السعودية واليمن . ولكن هذه الوساطات ذهبت أدراج الرياح . إذ أصر الفريقان على عنادهما : الإنجليز وكانوا واقعين تحت تأثير اليهود . فلم يشاءوا الانصياع لإرادة الوطنيين . والوطنيون ليسوا بمقتنعين بنزاهة الإنجليز وإخلاصهم . ولقد أتى الإنجليز بنجدات جديدة وضعوها تحت إمرة قائد من رجالهم العسكريين. ألا وهو اللفتنانت جنرال ديل . وكان قبل ذلك مديراً للعمليات العسكرية فى وزارة الحرب البريطانية . ودخل البلاد فى الوقت نفسه ، خمسمئة مقاتل ينتمون إلى الأقطار العربية المجاورة ، يقودهم فوزى القاوقجى ، وهكذا اكتسبت الثورة شكلا منظماً ، ووقف الفريقان العرب والإنجليز وجهاً لوجه .

ولقد فرض الإنجليز الأحكام العرفية ، ووضعوا نظام الدفاع موضع التنفيذ ، ومنحوا المندوب السامى حق التوقيف والاعتقال والنفى والإبعاد ؛ كما منحوه حق السيطرة على الصحف والمواصلات وجميع أنواع المخابرات وفرض الغرامات ومصادرة الأملاك والأموال وسن القوانين والأنظمة التى يراها كافية لإعادة الهدوء والسكينة .

ولكن هذه التدابير ، على شدتها ، لم ترهب الثوار . بل راحوا يعملون بجد ونشاط وقد اقتتلوا مع الجند حيثما كانوا يلتقون . ووقعت معارك شديدة كانت أشدها تلك التى وقعت فى شمال فلسطين ، وفى قطاع الخليل . وأبدى فتيان فلسطين من البطولة والتضحية ما لا يتسع لذكره هذا الموجز . وسنذكره ، ونذكر أسماء الشهداء الأبرار فى كتابنا المفصل إن شاء الله . ونريد أن نكتفى هنا بالقول إن المعارك ظلت مستمرة بين الجنود البريطانيين والثوار الفلسطينيين إلى أن توسط ملوك العرب : الملك عبد العزيز آل سعود ملك المملكة السعودية ، والملك غازى ملك العراق ، والأمير عبد الله بن الحسين أمير الأردن . وقبلت اللجنة العربية العليا وساطتهم . فأعلنت إنهاء الإضراب والاضطراب اعتباراً من يوم الإثنين الموافق ١٢ تشرين الأول ١٩٣٦ .

وهكذا يكون الإضراب قد دام مئة وستة وسبعين يوماً . وبلغت ضحاياه ٣١٥ قتيلا (١٩٣ من العرب والباقون من اليهود والجيش) و ١٣١٥ جريحاً (٨٠٣ من العرب والباقون من اليهود والجيش) .

ولقد كان ربح العرب ، رغم خسارتهم فى الأرواح ، عظيما ؛ إذ أنهم كانوا قبل ذلك مختلفين ، ولما جد الجد اتحدوا . وأيقنت الحكومة ، واليهود معها ، أنه ليس من السهل إخضاعهم .

وانتدبت الحكومة ، بعد ذلك بقليل ، لجنة ملكية ؛ مهمتها التثبت من أسباب الاضطرابات التى حدثت فى فلسطين ، والتحقيق فى كيفية تنفيذ صك

الانتداب ، ورفع التواصى التى تراها مناسبة لإزالة الظلامات ومنع تكرار الاضطرابات .

وفى ١١ تشرين الثانى ١٩٣٦ جاءت اللجنة يرأسها اللورد بيل . ولكن العرب قاطعوها فى بادئ الأمر فلم يحفوا لاستقبالها . إذ كانوا قد استاءوا من البيان الذى أصدره وزير المستعمرات المستر أورمسى غور ، قبل وصولها بستة أيام ، والذى قال فيه « إنه ليس هنالك أسباب تبرر توقيف الهجرة » . ولكنهم عادوا فأصاخوا لنصح ملوكهم ، وعدلوا عن مقاطعتهم . فاتصلوا بها . وأدلوا بآرائهم أمامها كما أدلى بآرائهم اليهود ، والحكومة . وكانت النتيجة أن اعترفت اللجنة بحق العرب ، وعدم إمكان عيش الفريقين ، العرب واليهود ، فى صعيد واحد ، وبضرورة العمل على حل المشكلة عن طريق التقسيم .

ولقد انقضى عهد هذا المندوب (أى واكوب) ، كما ترى ، فى صراع وقلق لم تذق البلاد فيه طعم الراحة ؛ رغم ما فعلته الحكومة أو حاولت أن تفعله من أجل إنعاش الفلاحين وإعفائهم من الضرائب .

ولقد قسمت فلسطين ، على عهده ، إلى ثلاثة ألوية (١٩٣١) وهى :

١ — لواء القدس ، مؤلف من أقضية القدس ، رام الله ، أريحا ، بيت لحم .

٢ — اللواء الشمالى ، مؤلف من أقضية حيفا ، عكا ، الناصرة ، طبريا ، صفد ، نابلس ، جنين ، طولكرم ، بيسان .

٣ — اللواء الجنوبى ، مؤلف من أقضية يافا ، الرملة ، غزة ، بئر السبع ، عوجا الحفير .

وجاء بعد السر واكهوب ، السر هارولد الفرد ماك مايكل Sir Harold Alfred Mac Michael, K.C.M G., D.S.O. جاء فى ١ آذار ١٩٣٨ .

ثم جاء الفيلد مارشال الفيكونت غورت Field—Marshal Viscount Gort V.C., V.C., G.C.B., C.B.E.D.S.O., M.V.O., M.C., جاء فى ٣١ تشرين الأول ١٩٤٤

ثم جاء اللفتنانت جنرال السير ألن غوردن كننغهام حامل الصليب الأكبر لوسام الحمام الرفيع الشأن من رتبة فارس ، ووسام الخدمة الممتازة من رتبة رفيق D.S.O. ، ووسام الصليب العسكرى C.M.G. .

جاء فى ٣١ تشرين الثانى ١٩٤٥ . ولكن أحداً من هؤلاء لم يستطع تهدئة الحال .

إذ لم يأل الشعب العربى بفلسطين جهداً عن المطالبة بالحكم الدستورى ، وإلغاء الانتداب ، ومقاومة الوطن القومى اليهودى ، على عهد المندوبين المتقدم ذكرهم . لا ، بل وطيلة عهد الاحتلال البريطانى (١٩١٧ — ١٩٤٧ م) ولكن جميع الجهود التى بذلت فى هذا السبيل ، ذهبت هباء منثوراً . لأن السلطة المنتدبة ، وبعبارة أفصح ، الحكومة الفلسطينية ، وهى حكومة إنجليزية بحت ، كانت ضالعة إلى أبعد حدود التحيز مع اليهود ، ومؤيدة لهم فى مشروعاتهم وأعمالهم الرامية إلى تهويد فلسطين .

وقد كان لها ، ولهم ، ما أرادوا . وسنذكر ذلك بوجه التفصيل فى الجزء الأخير لكتابنا (تاريخ القدس) . ذلك الجزء الذى خصصناه لنكبة بيت المقدس والفردوس المفقود . فليرجع إليه من شاء .

الضرائب فى عهد الاحتلال

وإليك بوجه الإجمال ، بعض المعلومات التى فرضت على السكان فى عهد الانتداب[١] .

(١) يحسن الرجوع إلى ما كتبناه عن الضرائب فى العهد التركى ، قبل قراءة هذا الفصل ، لتصح المقارنة من هذه الناحية ، بين العهدين .

ثبت الإنجليز ، عند احتلالهم البلاد ، الضرائب التى كانت الحكومة العثمانية تجبيها قبل إعلان الحرب . وذلك ببيان أذاعوه على الناس يومئذ . وبدأوا بجباية الضرائب على الطريقة وبالنسبة التى كانت متبعة من قبل ، اعتباراً من اليوم الأول من شهر آذار ١٩١٨ . هذا بعد أن ألغوا(١) جميع البقايا عن جميع الضرائب التى استحقت للخزينة قبل ذلك التاريخ . وقد استثنوا من هذا الإلغاء الضرائب التى كانت فى العهد التركى تحصل باسم الديون العمومية . وقد ألغوا إلغاءً تاماً ــ ضريبة صيد الأسماك ، وبدل التمتع ، وبدل العسكرية ، وبدل السخرة ، أى تشغيل الشباب المكلفين بإنشاء الطرق من غير أجر .

واستبدل الإنجليز ضريبة الويركو والمسقفات ، تلك الضريبة التركية ، بضريبة الأملاك على المدن (١٩٢٨) وراحوا يحصلونها بنسبة ١٠٪ من قيمة الإيجار الصافى السنوى للأملاك الواقعة فى المدن . كما استبدلوا ضريبة العشر التى كانت تجبى من المزارعين عن حاصلاتهم الزراعية بضريبة الأملاك فى القرى (١٩٣٥) . وهذه الضريبة فرضت على الأراضى حسب جودتها وأصنافها والغاية الزراعية التى خصصت من أجلها . ولقد صنفت الأراضى من أجل ذلك أصنافاً مختلفة . وفرض على كل صنف مبلغ معين . فالأرض من الصنف الأول ، مثلا ، وهى المخصصة لزراعة البرتقال والليمون وسائر أنواع الحمضيات ، فرض على صاحبها أن يدفع عن كل دونم منها ٨٢٥ ملا . والموز ٥٦٠ ملا . والأراضى الواقعة تحت الماء ١٦٠ ملا (؟) وهكذا تسير النسبة المقررة فى انخفاض حسب نوع الأرض من ٤٠ إلى ٣٥ ملا . ٣٠ و ٢٥ و ٢٠ و ١٨ و ١٥ و ١٢ و ٨ ملات . وهناك أنواع من الأرض لا تستغل إلا قليلا . فقد أعفيت من هذه الضريبة إعفاءً تاماً .

وأعلن الإنجليز فى أوائل احتلالهم لهذه البلاد (١٩٢١) المسكوكات

(١) (النظام الاقتصادى فى فلسطين) للأستاذ سعيد حماده ص ٦٧٨ .

وأوراق النقد المصرية نقداً قانونياً . كما أعلنوا الليرة الإنجليزية الذهب أيضاً نقداً قانونياً . وظل الأمر كذلك حتى عام ١٩٢٧ حيث استبدل النقد المصرى بنقد فلسطيني وضربت فى لندن عملة فلسطينية .

وبلغت ضريبة الأملاك التى جمعت من مدينة القدس فى آخر سنة من سنى الاحتلال (١٩٤٧) ثلاثة عشر ألف جنيه فلسطيني ، وأما ضريبة الأملاك التى جمعت من قراها فقد بلغت فى تلك السنة سبعة عشر ألف جنيه .

وبالإضافة إلى النوعين المتقدمين من الضرائب المباشرة ضريبة ثالثة ، تسمى ضريبة الحيوانات ، فقد فرض الإنجليز على كل رأس من الغنم والماعز ٤٨ ملا ومن الجمال ١٢٠ ملا ومن الخنازير ٩٠ ملا .

وهناك الضرائب غير المباشرة كالرسوم الجمركية ، ورسم التمغة (الطوابع) ورسم المكس . وهذا يفرض على عيدان الكبريت ، والملح ، والتبغ ، والخمر .

وهناك أيضاً الرسوم التى تجبى عن الرخص — كالرخص التى تعطى لتعاطى المهن ورخص النقل على الطرق ، وكذلك قل عن رسوم المحاكم ، ورسوم تسجيل الأراضى ومسحها ، ورسوم الجوازات . وما إلى ذلك من الرسوم التى لم نر لزوماً لذكرها بالتفصيل فى موجزنا هذا . وإن كنا قد ذكرناها مطولة فى كتابنا المفصل ، فليرجع إليه من يشاء .

الباب السادس

أخبار عن القدس في مختلف العصور

أسماء القدس ـ أسوار القدس ـ زلازل القدس ـ مياه القدس

أسماء القدس

للقدس عدة أسماء ، سميت بها على مر الدهور ، تبعاً للأمم والشعوب التى استوطنتها . ومن هذه الأسماء :

(يبوس) نسبة لليبوسيين . فقد ورد هذا الاسم فى سجلات الفراعنة هكذا (يابيثى) . وأسماها الكنعانيون (أوروسالم) أى مدينة السلام . وعرفها الفراعنة بهذا الاسم أيضاً . ولهذا يعتقد الكثيرون أنها كنعانية الأصل .

وقيل إن (أورو — سالم) بابلية الأصل آرامية[١] وسواء كان أصل هذا الاسم كنعانياً أو آشورياً أو بابلياً منحدراً عن الآرامية ، فإن التسمية العبرية التى عرفت فيما بعد وهى (أورشليم) مشتقة عنها . وأن القول بأن هذا الاسم عبرانى زعم باطل . .

ذكرها الفيروز آبادى فقال إن شلم ، شليم ، شلم . اسم البيت المقدس . وقال ياقوت إن شاعراً من شعراء الجاهلية أسماها « أورسلمو » . ولكنا لم نعثر على هذا الاسم فى الكتب ؛ لا ، ولا قرأنا الشعر الذى ذكره فى هذا الصدد

ومن أسمائها (مدينة داود) و (صهيون) . وأسماها اليونانيون (يروساليم) . وأضفى عليها المؤرخ اليهودى يوسيفوس حلة هيلينية ، فأسماها (هيروسلما) . وكانت فى أوائل الفتح الرومانى تدعى (هيروسليما) . ثم صارت (هيروساليما) . ومن هنا أخذت الأمم الأوربية اسمها المعروف (جيروسالم) . وعندما حاصرها تيطس (٧٠ م) كان الرومان يسمونها (سوليموس) . وفى عام (١٧٥ م)

---

(١) The Egyptian Empire in Asia

سمعناهم ينادونها (سوليما) . وسماها المكابيون (يروسوليما) .

وفى سنة ١٣٩م أسماها الإمبراطور أدريانوس (إيليا كابيتولينا) . وظلت تعرف بهذا الاسم (إيليا) حتى أوائل الفتح الإسلامى . وكذلك سميت فى العهدة العمرية . قال ياقوت(١) : إن (إيلياء) و (الياء) اسم لبيت المقدس . ومعناه بيت الله .

قال الفرزدق :

وبيتان: بيت الله نحـــن ولاته وقصر بأعلى إيليــــاء مشرف

وقال صاحب مثير الغرام إن من أسمائها : إيليا ، إليا ، إيلياء .

وجاء فى إتحاف الأخصا أن من أسمائها : (بيت إيل) ومعناه بيت الرب . ومن أسمائها(٢) (القرية) ، وإلى ذلك تشير الآية :

(ادخلوا هذه القرية ، فكلوا منها حيث شئتم رغداً ، وادخلوا الباب سجداً، وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم) . ومنها (الأرض المباركة) وإلى ذلك تشير الآية : (ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين) . ومنها (الساهرة) جاء فى الآية : (فإذا هم بالساهرة) .

ومن أسمائها : (بيت المقدس)(٣) و (البيت المقدس)(٤) و (الأرض المقدسة) .

روى أن مروان بن الحكم قال يوماً للفرزدق :

قل للفـــرزدق والسفـــاهة كاسمها إن كنت تارك ما أمرتك فاجلس

ودع المدينـــة إنهـــا محـــذورة والحق بمكـــة أو ببيت المقدس

---

(١) (معجم البلدان) ص ٤٢٤ .

(٢) (اتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى) للسيوطى ١٢ — ٢٠ .

(٣) (التاريخ الكبير) لابن عساكر ص ٤٥ .

(٤) ابن حجر العسقلانى . والأستاذ عيسى إسكندر المعلوف فى (مجلة المقتبس) ج ٨ ص ٥٧٤

وذكر ابن حجر العسقلانى البيت المقدس فى شعره فقال :

إلى البيت المقدس جئت أرجو جنان الخلد نزلا من كريم
قطعنا فى مسافته عقاباً وما بعد العقاب سوى النعيم

ومن أسمائها : (المسجد الأقصى) وفى ذلك نزلت الآية الكريمة : (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله) . ومنها : (الزيتون) . وفى ذلك نزلت الآية (والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين) . قال ابن عساكر نقلا عن ابن عباس : « إن التين بلاد الشام ، والزيتون بلاد القدس ، وطور سينين الجبل الذى كلم الله موسى عليه . وهذا البلد الأمين مكة » .

ومن أسمائها : (القدس) قال الأستاذ عيسى إسكندر المعلوف فى الجزء الثانى من مجلة المقتبس ما يلى : « ولعل أقدم من ذكرها بهذا الاسم المطران سليمان الغزى أسقف غزة والشام حوالى القرن الرابع عشر للميلاد . إذ قال :

أيدعوك للقدس الخيال الذى يسرى فهل لك فى ترك الزيارة من عذر .

وأما أنا فأقول : إن المؤلفين العرب ذكروا (القدس) فى مؤلفاتهم قبل ذلك التاريخ بزمن طويل . فقد ذكرها أبو العلاء المعرى فى شعره (٥٤٩ هـ ١٠٥٧م)

يا شاكى النوب انهض طالباً حلبا نهوض مضنى لحسم الداء ملتمس
واخلع حذاك إذا حاذيتها ورعاً كفعل موسى كليم الله فى القدس

وللعماد الأصفهانى كتاب اسمه (الفتح القسى فى الفتح القدسى) ١٢٠٠ م . ولأبى الفرج التميمى المعروف بابن الجوزى كتاب اسمه (فضائل القدس) ١٢٠٠ م . وللقاضى أمين الدين بن هبة الله الشافعى (الأنس فى فضائل القدس)١٢٠٦ م . ولشهاب الدين بن سرور المقدسى (مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام) ١٣٦٣ م . ولمحمد بن إسحق القدسى كتاب اسمه (تاريخ القدس) ١٣٧٤ م .

هذه وغيرها من الكتب تدلنا على أن اسم القدس كان معروفاً منذ أوائل الحكم الإسلامى فى هذه البلاد . وقد احتفظ الأتراك فى بادئ الأمر باسم (القدس) . ثم أضافوا إليها وصف الشرف فراحت تعرف باسم (القدس الشريف) . وعرفت بذلك طيلة وجودهم فى البلاد (١٥١٧ – ١٩١٧ م) .

ومهما قيل فى أسمائها ، فإنها تستحق القول الذى قاله فيها أمير الشعراء شوقى :

بلد على أرض الهدى وسمائه   المجد حائطه ورأس بنائه
بلد بنوه الأكرمون قبورهم   وقصورهم وقف على نزلائه

أسوار القدس

هناك سور حول القدس القديمة ، له تاريخ شائك وقديم . وقد لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إنه قام حول القدس ، وعلى مر الأجيال ، عدة أسوار لا سور واحد[١] . فما من أمة دخلتها إلا فكرت فى تحصينها ، وإقامة الأسوار حولها . ذلك لأنها كانت ، على مر العصور ، محط أنظار الجيوش والغزاة الفاتحين .

ولقد حدثنا التاريخ أن أول من فكر فى بناء السور حول المدينة هم (اليبوسيون) . فقد كان ذلك حوالى ٢٥٠٠ قبل الميلاد . ولا صحة للقول بأن السور الأول من صنع داود ، أو من صنع ولده سليمان . وكل ما فعله داود وسليمان أنهما رمما الجزء الذى كان اليبوسيون قد بنوه من قبلهما . وكان عليه يومئذ ستون برجاً . وكان يمتد من الأحياء الغربية فى البلدة القديمة (باب الخليل وحى الأرمن والنبى داود) حتى التلال الواقعة شرقى الحرم .

(١) Palestine Past and Present by L. Valentine. P. 33.

هذا هو السور الأول :

ولقد خرب جانباً منه (يهوآش بن يهوآحاز) ملك إسرائيل ، يوم تغلب هذا على أمصيا ملك يهودا سنة ٧٩٠ ق م .

وأما السور الثانى فقد بناه الملك (منسه) أثناء الاحتلال الأشورى (٦٤٤ق .م) ولقد ضم هذا السور الأحياء التى أنشئت بعد العهد اليبوسى ، ومنها المواضع التى تقوم عليها الآن حارة النصارى والواد . وكان عليها أربعة عشر برجاً . ويظهر أن هذا هو السور الذى كان حول القدس عندما احتلها نبوخذ نصر فهدمه (٥٨٦ ق . م)

ولقد استغل نحاميا الفرصة فى زمن الفرس ، فبنى (٤٤٠ ق م) ما تهدم من السور . وكان يومئذ يحيط بجبل صهيون وبجبل موريا من الشرق حيث يقوم الحرم الآن . بناه ليلا وفى حذر شديد . ذلك لأن سكان البلاد المجاورة[١] من حورونيين وعمونيين وغيرهم ما كانوا راضين عن عمله ، ولقد قاوموا مشروع نحاميا من حيث تعمير السور . وكان اليهود يخشون بطشهم . ولولا حراب الفرس التى كانت تحمى اليهود لما تم بناء السور فى ذلك الحين .

وعندما احتل بطليموس الأول القدس دك جانباً من سورها (٣٢٠ ق . م) وعندما احتلها أنطونيوس إبيفانوس دك جانباً آخر منه (١٦٨ ق . م) وأتى الفاتح الرومانى بومبيوس (٦٣ ق م) على ما تبقى منه . وفى قول إن بعض أجزاء السور الذى بناه نحاميا ظلت قائمة حتى زمن هيرودس الملك . فأضاف إليها هذا بعض الأبراج ليقى بها قصره ، وكان يقوم فى البقعة التى تقوم عليها الآن كنيسة المسيح وثكنة البوليس ودير مار يعقوب .

وأما السور الثالث فقد شرع اليهود فى بنائه فى العهد الرومانى فى زمن

---

(١) (هيكل سليمان) ليوسف الحاج ص ١٤٨ .

الحاكم هيرودس أغريبا (٣٧ — ٤٤ للميلاد) . غير أن إمبراطور الرومان قلوديوس منعهم من متابعة العمل يومئذ . فأتموا بناءه أثناء حصار تيطس (٧٠ م) . ولقد ضم هذا السور ، بالإضافة إلى الأحياء التى ذكرناها فى السطور المتقدمة ، الأحياء التى تحيط بمدارس الفرير عند الباب الجديد وقبور السلاطين وباب الساهرة وما يلى ذلك وكان له تسعون برجاً . ودمر جانب من هذا السور من لدن تيطس (٧٠ م) والجانب الآخر من لدن أدريانوس (١٣٥ م) . وإنك لترى فى يومنا هذا بقاياه فى مواضع مختلفة على مقربة من مدرسة المطران على طريق نابلس ، ومن بقاياه أيضاً الباب ذو القوس المدفون عند باب العمود .

وأقامت الملكة أفدوكسيا ، زوجة الملك تيؤدوسيوس (٤٣٨ — ٤٤٣ م) سوراً جديداً حول المدينة . وقيل إن هذه الملكة أدخلت قرية سلوان فى السور الذى بنته . ولقد دك الفرس هذا السور عندما احتلوا القدس (٦١٤ م) . وقبل أن تسقط هذه فى يد الصليبيين أرجع السور إلى ما كان عليه فى زمن أدريانوس . وعمره الصليبيون حوالى القرن الثانى للميلاد . كما عمره صلاح الدين عندما فتح المدينة (١١٨٧ م) . وجدد أبراجاً حربية من باب العمود إلى باب الخليل ، وحفر خندقاً حوله : وكان يشرف على العمل بنفسه وكثيراً ما حمل الحجارة على كتفه . وقد استخدم فى تعمير السور عدداً من أسرى الفرنجة[1] . وفى سنة (١٢١٩ م) هدم الملك المعظم عيسى جزءاً كبيراً من السور . كما خرب الأبراج كلها خشية أن يستولى الفرنج عليها . ولما دارت مفاوضات الهدنة بين المسلمين والصليبيين (١٢٢١ م) اشترط الصليبيون أن يدفع المسلمون خمسمئة ألف دينار ليعمروا بها السور ، فرفض المسلمون ذلك ، ورجع القتال .

---

(١) (الأنس الجليل) للقاضى مجير الدين ج ١ ص ٣٣٨ .

ولما عقدت الهدنة بين الملك الكامل والإمبراطور فردريك (١٢٢٨ م) ، وكان من شروطها تسليم القدس إلى الفرنج ، اشترط الملك ألا يعمروا السور الذى خربه الملك المعظم عيسى .

ولقد رمم السور فى بعض نواحيه فى أيام الملك العادل زين الدين (١٢٩٥ م) . وفى زمن الملك المنصور قلاون (١٣٣٠ م) . والسور الذى نراه فى يومنا هذا هو الذى جدده سليمان القانونى ، ودامت عمارته خمسة أعوام (١٥٣٦ — ١٥٤٠ م) . وأضاف إليه عدداً من الأبراج . وهناك فوق الأبواب كتابات منقوشة على الجدران تشير إلى ذلك .

ومما يؤثر عن السلطان سليمان الخبر الذى يتناقله الأبناء عن الآباء من أنه (أى السلطان سليمان) أمر بقطع رأس المهندس الذى عمر السور ، لأنه لم يدخل فيه مقام النبى داود . وأخذ بعض كتاب الفرنجة عنهم هذه الأسطورة . فذكروها فى مؤلفاتهم .

ويظهر أن جدران الخندق الذى بناه صلاح الدين ، تهدمت مع الزمن فجدد بناءها (١٧٣١ م) السلطان محمود بن السلطان مصطفى خان من آل عثمان .

وعلى ذكر السور نقول إن له فى يومنا هذا أربعة وثلاثين برجاً وسبعة أبواب هى :

باب الأسباط (من الشرق) . باب الساهرة وباب العمود (من الشمال) . الباب الجديد (من الشمال الغربى) . باب الخليل (من الغرب) . باب النبى داود وباب المغاربة (من الجنوب) . وكانت هذه الأبواب حتى أواسط القرن التاسع عشر تغلق عند غروب الشمس ، وتفتح مع الفجر . ولما شرع الناس فى بناء المنازل خارج السور (وكان ذلك حوالى سنة ١٨٥٨ للميلاد) فتحت

لأبواب . وراح الناس يغشونها ليلا ونهاراً .

إنه بوضعه الحالى متين للغاية . محيطه ميلان ونصف الميل ، طوله من الشمال ٣٩٣٠ قدماً ومن الشرق ٢٧٥٤ قدماً ومن الجنوب ٣٢٤٥ قدماً ومن الغرب ٢٠٨٦ قدماً وأما ارتفاعه فيتراوح بين ٣٨ قدماً و ٤٠ قدماً .

زلازل القدس

نزلت بالقدس ، من جراء قدسيتها وتكالب الأمم على امتلاكها ، نكبات وحروب كثيرة . وكأن تلك النكبات والحروب ما كانت تكفى لإزهاق أرواح سكانها ، فقد حبتها الطبيعة أيضاً بعطفها ، فصبت عليها الزلازل مراراً عديدة . وكانت هذه فى بعض الأحايين تأتى شديدة ؛ فتدكها دكاً ، وتجعل عاليها سافلها . كالزلزال الذى حدث عام ٧٨٠ قبل الميلاد . والذى ذكره يوسيفوس فقال إنه شق الجبل فغارت الطرق ، واندكت الأبنية(١) .

والزلزال الذى حدث عام ٣١ ق م على عهد هيرودس الملك . فقد ذكره جورج آدم سميث(٢) فقال إن هذا الزلزال أتى على عدد كبير من المواشى والأبقار . ومات تحت الأنقاض قرابة عشرة آلاف شخص .

وكذلك قل عن الزلازل التى حدثت بعد الميلاد فى ٣٦٢ — ٤١٩ — ٦٣١ — ٦٥٨ — ٧١٢ — ٧٤٦ — ٧٥٥ — ٧٧٥ — ٨٤٧ — ٨٥٦ — ٨٥٩ — ٩٦٥ — ١٠١٦ — ١٠٣٤ — ١٠٣٦ — ١٠٦٢ — ١٠٦٧ — ١٠٦٩ —

---

(١) "The Antiquities of the jews by josephus.

(٢) "The Historical Geography of the Holy-Land" by George Adam Smith.

١٠٩١ — ١١٠٥ — ١١١٧ — ١١٣٧ — ١١٣٨ — ١١٥٧ — ١١٦٩ — ١١٨٢ — ١٢٠٠ — ١٢٠٣ — ١٢١١ — ١٣٠٢ — ١٣٤٣ — ١٤٥٨ — ١٤٩٦ — ١٤٩٧ — ١٥٤٥ — ١٦٠١ — ١٧٥٩ — ١٧٨٢ — ١٨٣٤ — ١٩٢٧ .

وأهم هذه الزلازل هو الذى حدث عام ٧١٢ م . إذ دام فى القدس وفى سائر أنحاء الشام زهاء أربعين يوماً . وأما الزلزال الذى حدث عام ١١٣٨ م ، فقد شمل معظم الكرة الأرضية ، وليس القدس وحدها . وتكررت الزلازل فى تلك الفترة من الزمن بشكل مخيف قرأنا عنه الشيء الكثير فى (مرآة الزمان) وفى (النجوم الزاهرة) . وفى كتب التاريخ[١] .

وأما الزلزال الذى حدث عام ١٢٢٠ م ، فقد عم بلاد الشرقين الأوسط والأدنى ، وخرب ما لا يحصى من الدور . وقتل من جرائه زهاء مليون ومئة ألف نسمة . وكذلك قل عن الزلزال الذى حدث فى عام ١٤٩٦ م . فقد ذكره مجير الدين فقال إنه لم يترك بيتاً علوياً فى بيت المقدس إلا هدمه .

وحدث فى القدس عام ١٧٥٩ م زلزال تهدم من جرائه معظم ما فيها من منازل وعدد كبير من القرى والقلاع . ويذكر أبناء الجيل الحاضر ، ولا شك ، الزلزال الذى حدث فى عام ١٩٢٧ والذى قتل من جرائه خلق كثير وخربت أملاك واسعة . وتبرع سكان بيت المقدس بأحد عشر ألف جنيه للفقراء وأصحاب الأملاك الذين تخربت منازلهم . وكذلك قل عن الزلزال الذى حدث بعد ذلك بعشر سنين : ١٩٣٧ .

---

(١) (مرآة الزمان) لسبط بن الجوزى و (النجوم الزاهرة) لابى المحاسن تغرى بردى (وكشف الصلصلة عن وصف الزلزلة) للشيخ جلال الدين السيوطى و (الأنس الجليل) للقاضى مجير الدين الحنبلى .

مياه القدس

عرفت القدس منذ القدم بندرة مائها . وكان تزويدها بالماء ، على مر العصور ، أمراً إدًّا . ذلك لأنها قائمة على تلال مرتفعة لاينبع الماء فيها . وكان جل اعتمادها فى العصور الغابرة على مياه الأمطار وعلى الينابيع الضئيلة الواقعة فى سلوان[١] .

ومن هذه الينابيع :

(عين أم الدرج) . ذكرها أبو العلاء المعرى فى شعره فقال[٢] :

وبعين سلوان التى فى قدسها طعم يوهم أنه من زمزم .

ومنها : (بركة سلوان) إلى الجنوب من عين أم الدرج . و (البركة التحتانية) إلى الجنوب الشرقى من بركة سلوان ويسمونها البركة الحمراء . و (بئر أيوب) على بعد ألف قدم من البركة الحمراء . ومنها يتفجر الماء فى فصل الشتاء .

ومنها : (عين اللوزة) على بعد خمسمئة متر من بئر أيوب إلى الجنوب .

وفى القدس صهاريج كثيرة ، لاتكاد تحصى ، تتجمع فيها مياه الأمطار . وفيها برك كبيرة أيضاً حفرها الأقدمون لهذه الغاية .

ومن هذه البرك : بركة ماملا . وبركة السلطان . وبركة حزقيا . وبركة إسرائيل .

---

(١) قرية واقعة إلى الشرق الجنوبى من القدس ، وعلى قيد بضع خطوات منها . لا ، بل إنها تكاد تعتبر اليوم حياً من أحيائها .

(٢) من مقال للأستاذ المرحوم إسعاف النشاشيبى فى العدد ١٤ من جريدة (الوحدة) بتاريخ ١ شوال ١٣٦٤ ﻫ (١٩٤٥م) .

أما (بركة ماملا) فإنها أقدم هذه البرك عهداً وأكبرها حجماً وأكثرها شهرة . إنها واقعة غربى المدينة . ولقد ساير تاريخها تاريخ المدينة فى جميع أدوارها . إنها تعنى (ماء ميلو) . وميلو اسم الحى الذى نصب فيه سليمان ملكاً (١٠١٥ ق . م) وهو المكان الذى عسكر فيه سنحاريب ملك الأشوريين عندما هبط القدس (٧١٠ ق . م) وهو المكان الذى ألقى فيه الفرس بجثث المسيحيين الذين قتلوهم عند احتلالهم المدينة (٦١٤ م) . وفى هذا المكان دفن عدد كبير من الصحابة والمجاهدين الذين اشتركوا فى الفتحين : العمرى (٦٣٦ م) والصلاحى (١١٨٧ م) .

وأما (بركة السلطان) فإنها واقعة بين الخليل ومحطة السكة الحديدية ، على طريق بيت لحم ، وعلى بعد بضع مئات من الأمتار من سور المدينة . لا نعرف متى أنشئت ؟ أو من الذى أنشأها ؟ وإنما نعلم أنها عمرت فى زمن الملك الظاهر برقوق (١٣٩٨ م) وفى زمن السلطان سليمان القانونى (١٥٣٨ م) .

وأما (بركة حزقيا) فإنها واقعة بين سويقة علون وحارة النصارى ، على بعد مئتى متر من القلعة إلى الشمال الشرقى . وتسمى أيضاً بركة البطرك وبركة حارة النصارى . سميت كذلك لأن الذى أنشأها هو الملك حزقيا . أنشأها داخل السور عام (٧٠١ ق م) ليتمكن من مقاومة الأشوريين الذين جاءوا فحاصروا المدينة بقيادة سنحاريب . وهى الآن وقف على الخانقاه الصلاحية[١] .

ومنها (بركة إسرائيل) بين باب الأسباط وباب حطة ، وكانت قديماً تدعى بركة الضأن ، أو بركة الغنم .

ولقد اهتم الرومان بمشروع المياه . وهم أول من فكر فى تزويد القدس بماء العروب . فأنشأوا القناة الرومانية المعروفة . ولقد تم ذلك على عهد هيرودس (٣٠ ق م) إذ جر هذا مياه العروب إلى برك سليمان عبر قناة حجرية شقها

(١) (الأنس الجليل) لمجير الدين . ص ٤٠٩ .

بين الصخور . وألمت بهذه القناة مع الزمن عوامل الخراب . فأراد الوالى الرومانى بيلاطس بونتيوس أن يعمرها (٢٦ ــ ٣٦ ق . م) فلاقى من اليهود ما لاقى من الصعاب فى سبيل تنفيذ مشروعه[١] . فقاتلهم . وقمع ثورتهم بشدة . ووضع يده على أموال هيكلهم ، وبهذا تمكن من تعمير القناة . وهناك من يقول[٢] إن بيلاطس هذا هو المنشئ الأول لهذه القناة .

وهناك قناة أخرى أنشأها الرومان فى أواخر القرن الثانى للميلاد (١٩٥ م) . أنشأها الإمبراطور سبتيموس سفيروس . وهى قناة حجرية قطرها ٣٨ سنتيمتراً . وخربت القناتان الرومانيتان مع الزمن . ولا سيما عندما هجرت القدس بعد تخريبها من لدن تيطس (٧٠ م) وأدريانوس (١٣٥ م) .

ولما استعادت القدس أهميتها فى الفتح الإسلامى ، راح المسلمون يهتمون بأمر تزويدها بالماء . ويقول المستر بودزى مدير مصلحة الأشغال العامة بحكومة فلسطين فى تقريره ذى الرقم ١٨٠ بتاريخ حزيران ١٩٣٨ م : إن مشروع الماء على عهدهم كان متيناً إلى درجة أن الصليبيين عندما حاصروها قاسوا أشد العذاب من جراء العطش وقلة الماء بينما كان سكان القدس أنفسهم فى مأمن من هذه الناحية . وكانت لديهم فى داخل المدينة مقادير وافية من الماء .

ظلت القدس بعدئذ تستقى الماء من برك سليمان بوساطة قناة عرفت بقناة السبيل . ولقد عمرت هذه القناة مراراً على يد المماليك . فذكرها المقدسى (٩٨٥ م) وناصرى خسرو (١٠٤٧ م) . وقد اهتم بتعميرها السلطان الملك العادل (١٢٠٢ م) . والملك الظاهر بيبرس (١٢٦٦ م) . والأمير تنكز الناصرى[٣] (١٣٢٦ م) . والملك الظاهر برقوق (١٣٨٢ م) . والملك الظاهر

---

(١) رسائل بيلاطس ص ٩٥ ــ ١٠٢ .

(٢) "Guide to Beithlehem" by R.W. Hamilton. PP. 34-35.

(٣) (السلوك فى معرفة دول الملوك) للمقريزى ج ٢ ص ٣٠٢ .

خوشقدم (١٤٦٠ م) . والملك الأشرف قايتباى (١٤٨٣ م) .

ولقد أعار الأتراك العثمانيون مشكلة الماء عناية خاصة ، فعمروا القناة المتقدم ذكرها فى زمن السلطان سليمان (١٥٣٧ م) ، وهو الذى أنشأ معظم السبل الكائنة فى المدينة وفى أطراف الحرم . والسلطان مراد الرابع (١٦٢٢ م) ، وعلى عهده جددت عمارة (سبيل شعلان) ، وبنيت القلعة الواقعة على طريق الخليل بقصد حماية برك سليمان وتأمين وصول الماء إلى القدس .

وعمرت قناة الماء أيضاً على يد متسلم القدس كنج أحمد أغا (١٨١٢ م) . وعلى يد متصرفها كامل باشا (١٨٥٦ م) . وثريا باشا (١٨٦٠ م) . وفى عام ١٨٩٩ احتفل بوصول مياه أرطاس إلى بركة السلطان فى حفل حضره كبار رجال الحكومة وجمهرة من رؤساء الشعب .

بقى أن نعلم أين تنبع المياه التى تحملها إلينا هذه القناة . هناك (وادى العروب) وقد تقدم ذكره . إنه واقع بين الخليل والقدس وعلى بعد ٢٢ كيلو متراً من الأخيرة . ينبع الماء فيه من عدة عيون هى : (١) فريديس (٢) عد المزرعة (٣) الفوار (٤) عين البص (٥) عين البرادة (٦) عين الدلبة (٧) عين قوزيبا . وهناك (وادى البيار) إنه عند الكيلو ١٨ على طريق الخليل . فيه خمسة ينابيع هى : (١) رجم السبيط (٢) رأس العد (٣) عين فاغور (٤) خربة القط (٥) عين العصافير .

وهناك أيضاً (البالوع) إنه فى السهل الواقع شرقى الخضر عند الكيلو ١٣ على طريق الخليل . وهناك (عيون أرطاس) وهى أربعة :

(١) عين عطن (٢) عين الفروجة (٣) عين صالح (٤) عين البرك .

إن المياه التى تتفجر من هذه العيون تنصب فى (برك سليمان) . خلا عين عطان فإنها لا تنصب فى البرك بل تسيل فى القناة رأساً . وعدد هذه البرك ثلاث . ويدفع الماء منها بمضخات وآلات حديثة ، ويسيل فى أنابيب ، بعضها

حجرية والبعض الآخر حديدية ، فيصل إلى القدس .

ظلت القدس تستقى الماء عن طريق برك سليمان حتى عام ١٩٢٦ م . ولما كثر عدد السكان ، راحت الحكومة تبحث عن ينابيع جديدة ، ووجدت ضالتها فى (عين فارة) على بعد ١٤ كيلو متراً من القدس إلى الشمال الشرقى . فجرت مياهها للقدس ، وفى عام ١٩٣١ م عززته بالماء من (عين الفوار) على بعد ستة كيلو مترات من عين فارة إلى الشرق . وفى عام ١٩٣٥ م راحت تستقى الماء من (عين القلط) . ورغم أن مقادير المياه التى كانت تصل إلى القدس من هذه العيون بلغت فى عام ١٩٣٥ م (٥٩٣,٠٠٠,٠٠٠ غالوناً) فإن القدس لم تتخلص من ذل العطش بسبب ازدياد عدد سكانها واتساع العمران . ولهذا فكرت الحكومة أن تحل المشكلة عن طريق (رأس العين) ويتلخص هذا المشروع بالكلمات الآتية :

(رأس العين) تبعد عن القدس ٣٧ ميلا وهى إلى الشمال الغربى منها . إنها أعلى من سطح البحر بعشرين متراً وأقل انخفاضاً من القدس بـ ٢,٧٥٠ متراً . فيها نبع غزير ، ينبع منه ألف غالون من الماء فى الساعة الواحدة . وماؤها عذب للغاية . ولقد تمكنت الحكومة من جر الماء من هذه العين إلى القدس سنة ١٩٣٥ م . وذلك فى أنابيب طولها ستون كيلو متراً ، وقطرها ١٨ بوصة ، بعضها فولاذى والبعض الآخر حديدى . وهناك بين رأس النبع ومدينة القدس أربع محطات ، فى كل واحدة منها ثلاث مضخات ضخمة لدفع الماء : الأولى عند (رأس العين) والثانية فى (اللطرون) والثالثة عند (باب الواد) والرابعة فى (قرية ساريس) . ولقد أنفقت الحكومة على هذا المشروع ٣٦٠,٠٠٠ جنيه فلسطينى . وكانت هى المسؤولة عن إدارته من رأس النبع حتى مدخل المدينة ، وفى مدخلها تتسلم البلدية المشروع ، وتصبح مسؤولة عنه وعن إيصال المياه إلى منازل السكان . وكانت المدينة تستهلك

من ماء رأس العين ١,٦٥٠,٠٠٠ غالون فى اليوم الواحد عام (١٩٤٥) ومع هذا فإنه لا غنى للقدس عن مياه الأمطار .

وعلى ذكر الأمطار نقول : إن فى القدس ثمانية عشر مرصداً لتسجيل الأمطار. وأثبتت الأرقام التى تم تسجيلها فى غضون مائة السنة الأخيرة أن المعدل السنوى للأمطار التى هطلت على مدينة القدس بلغ ٥٨٣ ملّيمتراً .

الباب السابع

القدس كما رأيتها فى أواخر عهد الانتداب البريطانى
(١٩٤٧)

أهميتها التاريخية
موقعها الجغرافى
طقسها
جبالها
مياهها وأمطارها
مساحة أراضيها
سكانها
مدارسها
مكاتبها
متاحفها
حدائقها

طرقها
مجاريها
أمراضها ومستشفياتها
تجارتها
أوزانها ومقاييسها
صناعاتها
شركاتها
بنوكها ومصارفها
جمعياتها ونواديها
بريدها
بلديتها

إدارتها
أمنها
مستوى المعيشة فيها
موارد رزقها
السياحة
الموظفون
المهن الحرة
الزراعة
التجارة
الحجارة
أعمال البناء

أهميتها التاريخية

لم تلعب مدينة من المدن القائمة على وجه هذه البسيطة الدور الذى لعبته مدينة القدس فى التاريخ . إنها وإن لم تكن من المدن التجارية الهامة ، لا ، ولا من المدن الزراعية أو الصناعية ، رغم وقوعها بين البادية من الشرق والبحر من الغرب ؛ إلا أنها كانت ، على مر الدهور ، مطمح أنظار الغزاة والفاتحين . فحوصرت مراراً ، وهدمت تكراراً ، وهجرت ، وأعيد بناؤها ثمانى عشرة مرة فى التاريخ . ولكنها ، بالرغم من هذا كله ، ظلت قائمة فى هذا الوجود ، وظل اسمها مذكوراً فى طليعة المدن والبلدان . ذلك لأنها مقدسة فى نظر جميع الأديان . وإنّا لا نتعدى الحق إذا قلنا إن قدسيتها هذه كانت ، فى أغلب الأحايين ، السبب فى شقائها ، وفيما أصابها من رزايا ومحن . وهذا قد بيناه بوضوح فى الفصول السابقة .

وكما إنّا حرصنا ، فى تلك الفصول ، على وصف الحالة التى كانت عليها القدس فى العهود الغابرة ، فإنا لا نرى بدأً من وصف الحالة التى هى عليها اليوم ، واثقين من أن وصفنا هذا سيصبح ، فى يوم من الأيام ، تاريخاً للأجيال القادمة .

موقعها الجغرافى

إنها واقعة بين البحر الميت من الشرق ، والبحر الأبيض المتوسط من الغرب ؛ تبعد عن الأول ١٨ ميلا وعن الثانى ٣٢ ميلا . وهى مرتفعة نحو ٣,٨٠٠ قدم عن سطح البحر الميت و ٢,٥٠٠ قدم عن سطح البحر الأبيض المتوسط .

طقسها

طقسها جميل . وجوها صاف وهواؤها عليل يهب عليها من البحر نسيم بليل ، فيلطف حرها فى أشهر الصيف ، ويبرد هواءها فى الليل . ويكثر فيها الندى حتى ليتبلل به وجه الأرض وتقطر الأشجار .

الربيع فيها معتدل . وكذلك قل عن الخريف . وأما فى الصيف فتتراوح درجة الحرارة بين ٧٧ و ٨٦ بميزان فارنهايت . وقد ترتفع فى بعض الأحايين إلى المئة فتصحبها رياح جافة من الشرق والجنوب .

ولا تهب الريح فيها من الشمال . وألطف الرياح هى التى تهب من الشمال الغربى . وأما الرياح الغربية فإنها كثيرة الهبوب فى فصل الشتاء ، وكثيراً ما يعقبها أمطار .

وفصل الشتاء يدوم فى أغلب السنين من شهر كانون أول «ديسمبر » حتى شهر آذار «مارس» وهو بارد ، ويهطل الثلج فى بعض السنين ،ولكنه لايدوم طويلا .

جبالها

القدس مدينة جبلية ؛ وكانوا فيما مضى يقولون إنها قائمة على خمسة تلال : (موريا) وهى الأكمة التى يقوم عليها الحرم القدسى . (أوفل) وهو السفح المطل على قرية سلوان من ناحية الحرم . (صهيون) وهو التل المطل على بركة السلطان من الغرب وقرية سلوان من الشرق ، ويقوم عليه حى النبى داود . (عكرة) حيث تقوم حارة النصارى فى الوقت الحاضر . (بيزيتا) وهو التل الممتد من باب حطة إلى باب العامود وما جاورهما .

وأما اليوم ، وقد اتسعت المدينة من جميع نواحيها ، فقد أصبح أمراً لازماً أن يضاف إلى تلك التلال ، تلال وآكام أخرى ؛ منها وأهمها : (جبل الزيتون) و (جبل المشارف) و (القطمون) و (المكبر) . ومعظم هذه الجبال جرداء ، لا أحراج فيها ولا غابات . وإنما تقوم عليها مبان ، تعتبر اليوم من أجمل مبانى المدينة .

أما (جبل الزيتون) فإنه واقع شرقى المدينة . وإن تاريخه متصل بتاريخها . وهو لها ، من الناحية الحربية ، بمثابة الروح من الجسد . . فيه حطت جيوش الرومان رحلها على عهد تيطس (٧٠ ق م) . . . وكذلك فعلت معظم الأمم التى هبطت هذه الديار من قبل ومن بعد . فإن داود الملك عندما غادر أورشليم بسبب الثورة التى أوقد نارها ولده أبشالوم (١٠٤٩ ق م) أمّ جبل الزيتون ؛ ومنه ألقى على أورشليم نظرة الوداع ، فراح يبكى .

وكذلك فعل السيد المسيح (٣٠ م) . فإنه كثيراً ما كان يتردد إلى هذا الجبل . وعندما شعر بأن اليهود عازمون على الغدر به ، راح يتنقل من مكان

إلى مكان فى سفوحه . ولا بد أن القارئ الكريم يذكر أنه (أى السيد المسيح) التفت فى المرة الأخيرة ، وهو سائر صعداً فى سفحه الغربى ، إلى أورشليم ، وخاطبها قائلا : « يا أورشليم ! يا أورشليم ! يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين ؛ كم مرة أردت أن أجمع أبناءك كما تجمع الدجاجة أفراخها . . ولكن لم يريدوا... »

والاعتقاد سائد بين المسيحيين بأن السيد المسيح صعد من على هذا الجبل إلى السماء . وللنصارى هنا عدد من الكنائس والأديار .

وهو مقدس فى نظر المسلمين . فقد ورد ذكره فى القرآن الكريم :

« والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين[1] » . ولقد عسكرت جيوش المسلمين فيه على عهد الخليفة الثانى عمر بن الخطاب (٦٣٦ م) وعلى عهد صلاح الدين (١١٨٧ م) . وفيه دفن جماعة من شهداء المسلمين فى الفتحين العمرى والصلاحى .

وأما (جبل المشارف) فإنه فى شمال المدينة ومتصل بجبل الزيتون . ويسميه المقدسيون بالمشهد . والفرنجة باسكوبس . منه أطل الفاتح المقدونى العظيم المعروف باسكندر ذى القرنين على المدينة عندما جاء لفتحها (٣٣٢ ق . م) وعليه تقوم الآن أجمل منازل المدينة ، والجامعة العبرية والمستشفى اليهودى المعروف بهداسا ، ومقبرة أقامها الإنجليز لموتاهم الذين لاقوا حتفهم فى معارك بيت المقدس أثناء الحرب الكونية الأولى (١٩١٤ — ١٩١٧ م) .

وأما (القطمون) فإنه واقع جنوبى المدينة من الغرب . عليه دير قديم للروم يعرف بدير سمعان . بينه وبين محطة السكة الحديدية من الشرق سهل فسيح يعرف بالبقعة .

وأما (جبل المكبر) فإنه كائن قبلى المدينة وإلى الشرق من محطة السكة الحديدية . يفصل بينه وبين جبل الزيتون واد يعرف بوادى سلوان ، وبينه

---

(١) سورة التين .

وبين جبل صهيون واد يعرف بوادى الربابة .

كانوا فيما مضى يسمونه (جبل المؤامرة) و (جبل المشورة الفاسدة) . ويعتقد البعض أنه كانت تقوم عليه دار المجمع المعروف بالسنهدريم . تلك الدار التى قابل فيها يهوذا الأسخريوطى الكهنة ورؤساء الشعب اليهودى ؛ وتآمر معهم على تسليم السيد المسيح وصلبه .

وعلى جانب من هذا الجبل هضبة يقوم عليها ضريح المجاهد الإسلامى المعروف بـ (أبى ثور) . ومن هنا جاء اسم الحى الذى يقوم فوق هذه الهضبة : حى أبى ثور. ومن أسمائه جبل الثورى . و (أبو ثور) هذا[١] هو لقب الشيخ الإمام شهاب الدين أبى العباس أحمد بن جمال الدين بن عبد الله بن عبد الجبار المعروف بالقرشى . وهو من المجاهدين الذين اشتركوا فى فتح القدس مع صلاح الدين . وكان يركب ثوراً .

وعلى جانب آخر من هذا الجبل كان يقوم ، فى أواخر العهد التركى وأوائل الاحتلال البريطانى ، حى يهودى عرف بـ (بنى يوسف) . ولكن اليهود راحوا ينزحون عنه فى أوائل القرن العشرين لبعده عن الأحياء اليهودية الأخرى . ثم هجروه بالمرة إثر الثورة التى قامت فى البلاد عام ١٩٢٩ . فاشتراه منهم العرب سكان الحى فى يومنا هذا .

مياهها وأمطارها

مياهها قليلة ؛ لا نهر فيها ، ولا ينبوع . وإنما هناك آبار تتجمع فيها مياه الأمطار فى فصل الشتاء . وبلغ معدل الأمطار التى هطلت خلال قرن

(١) (الأنس الجليل) لمجير الدين ص ٤١٠ و (بحر الأنساب فى الديار القدسية) للسيد على المرتضى ص ٧٠ و (سوانح الأنس فى رحلتى لوادى القدس) للرحالة مصطفى اللقيمى مخطوط . ص ١٧٦ .

واحد (١٨٤٥ — ١٩٤٥ م) ٦٢٠ مليمتراً .

ولقد قاست القدس على مر الدهور ، ما قاست من جراء قلة الماء . وأما فى يومنا هذا فإنها تشرب من الصهاريج التى تتجمع منها مياه الأمطار ومن ثلاثة ينابيع كبيرة . أما الصهاريج ففى استطاعتنا أن نقول إنه ليس ثمة منزل من منازل القدس إلا وفيه صهريج من هذا القبيل . وأما الينابيع فواحد منها فى (عين فارة) . وهى واقعة إلى الشمال الشرقى من المدينة وعلى بعد ثمانية أميال منها . والثانى عند (رأس العين) . وهى واقعة إلى الشمال الغربى منها وعلى بعد ٣٧ ميلا . وأن الماء الذى يأتيها من النبع الثانى لأغزر من الأول . وهناك أيضاً (برك سليمان) والينابيع التى حولها . و (وادى العروب) ، مما قد فصلناه فى غير هذا الموضع من الكتاب . فليرجع إليه من شاء .

وما نريد أن نقوله هنا هو أن القدس تشرب الماء فى يومنا هذا بكثرة وانتظام أكثر من أى وقت سبق .

مساحة أراضيها

٢٠,١٩٩ دونماً — منها ٨٦٨ دونماً فى المدينة القديمة داخل السور ، و ١٩,٣٣١ دونماً فى المدينة الجديدة خارجه . يملك العرب منها فى المدينة القديمة ٧٦٨ (أى ٨٨,٤٧ ٪) واليهود ١٠٠ (١١,٥٣ ٪) وأما فى المدينة الجديدة فللعرب ١٠,٤١١ (٥٣,٨٧ ٪) ولليهود ٥,٠٥٠ (٢٦,١٢ ٪) وللحكومة ٥٦٠ (٢,٨٩ ٪) ، وهناك ٣,٣١٠ دونمات (١٧,١٢ ٪) عبارة عن طرق وميادين عامة وسكة حديدية وما إلى ذلك مما يشترك الجميع فى ملكيته .

ويمكننا تلخيص الأرقام المتقدم ذكرها ، من حيث الملكية فى المدينة كلها داخل الأسوار وخارجها ، كما يلى :

	دونم			
للعرب	١١,١٧٩	أى	٥٥,٣٤ ٪	(يدخل فى هذا الرقم أراضى الطوائف المسيحية)
لليهود	٥,١٥٠	«	٢٥,٥٥ ٪	
للحكومة	٥٦٠	«	٢,٧٧ ٪	
طرق وميادين عامة	٣,٣١٠	«	١٦,٣٤ ٪	
	٢٠,١٩٩		١٠٠ ٪	

هده الأرقام اقتبسناها من مصلحة تسوية الأراضى (فرع الضرائب) التابع لحكومة فلسطين . والدونم عبارة عن ألف متر مربع .

سكانها

كان عدد سكان مدينة القدس فى ٨ تشرين الثانى ١٩٤٧ ، مئة وأربعة وستين ألفاً وخمسمئة ، موزعين كما يلى :

	عربى	يهودى	مجموع
فى البلدة القديمة داخل السور	٣٣,٦٠٠	٢,٤٠٠	٣٦,٠٠٠
فى الجزء العربى من البلدة الجديدة	٣٠,٠٠٠	٩,٠٠٠	٣٩,٠٠٠
فى الجزء اليهودى من البلدة الجديدة	١,٥٠٠	٨٨,٠٠٠	٨٩,٥٠٠
	٦٥,١٠٠	٩٩,٤٠٠	١٦٤,٥٠٠

وهذه الأرقام اقتبسناها من تقرير رفعه المستر جون مارتن المستشار البريطانى لمندوبى إنجلترة فى هيئة الأمم المتحدة بليك سكسس .

وإنّا لا نرى بدأً من الرجوع إلى السنين الفائتة لنرى كم كان

الطوائف المختلفة التى كانت تعيش فيها ، وعدد كل طائفة منها بالنسبة للطوائف الأخرى فنقول :

كان المسلمون فيما مضى كثرة والمسيحيون قلة فى المدينة . وظلوا كذلك من الفتح العمرى حتى الفتح الصلاحى . فقد أشار إلى هذه الحقيقة سبط بن الجوزى فى كتابه (مرآة الزمان) . إذ قال إنه كان فى القدس عندما احتلها الصليبيون (١٠٩٩ م) مئتا ألف نسمة . وفى اعتقادى أن نصف هذا العدد جدير بأن يعتبر من سكان المدينة الأصليين والنصف الآخر من سكان المدن والقرى المجاورة جاءوا ليشتركوا مع سكانها فى الدفاع عنها . ولم يكن فيها يومئذ يهودى واحد .

ولما احتلها صلاح الدين (١١٨٧ م)غادرها معظم المسيحيين ممن استطاعوا دفع الجزية التى فرضها عليهم . ومن لم يستطع منهم دفع الجزية بقى فيها . وعدد هؤلاء كما ذكر المؤرخون كان يومئذ خمسة عشر ألفاً . وأما عدد سكان المدينة كلها فكان يومئذ أربعة وأربعين ألفاً . وقال السائح اليهودى بتاحيا الذى زار القدس عام ١٨٠٠ م إنه لم يكن فيها سوى يهودى واحد .

وأحصى سكان المدينة على عهد السلطان محمد الرابع (١٦٧٠ م). فكانوا ستة وأربعين ألف نسمة . منهم ١٥٠ يهودياً . ولا نعلم شيئاً عن عدد المسيحيين فى ذلك الحين .

وذكر سركيس فى كتابه (السير السليم فى تاريخ أورشليم) أن عدد سكان القدس كان فى عام ١٨٩٠ كما يلى :

مسلمون	٧,٦٠٠	١٦,٨٨ ٪
مسيحيون	٧,٢٠٠	١٦,٠١ ٪
يهود	٣٠,٢٠٠	٦٧,١١ ٪
	٤٥,٠٠٠	١٠٠ ٪

وازداد عدد السكان بعد ستة أعوام (١٨٩٦م) فبلغ خمسين ألفاً .
وعندما زارها إمبراطور الألمان (١٨٩٨ م) كان فيها ثمانون ألفاً .
وبلغ عدد سكانها قبيل الحرب الكونية الأولى (١٩١٣ م) تسعين ألفاً .
وانخفض هذا العدد بسبب الحرب فأصبح فى نهايتها (١٩١٧ م) خمسين ألفاً .

ثم عاد ، فارتفع فى أوائل الاحتلال البريطانى (١٩٢٠ م) إلى واحد وستين ألفاً مقسمين كما يلى :

مسلمون	١٦,٠٠٠	٢٦,٢٢ ٪
مسيحيون	١٥,٠٠٠	٢٤,٥٩ ٪
يهود	٣٠,٠٠٠	٤٩,١٩ ٪
	٦١,٠٠٠	١٠٠ ٪

وفى نهاية عام ١٩٤٤ ارتفع عدد السكان إلى ١٥٧,٠٨١ مقسمين كما يلى :

مسلمون	٣٢,١٢٨	٢٠,٤٥ ٪
مسيحيون	٢٨,١٤٦	١٧,٩١ ٪
يهود	٩٤,٩٤٢	٦٠,٤٤ ٪
آخرون	١,٨٦٥	١,٢٠ ٪
	١٥٧,٠٨١	١٠٠ ٪

وهم اليوم (١٩٤٧) ، كما ذكرنا فى أول هذه السطور ١٦٤,٥٠٠ نسمة .

مدارسها

فى القدس مصلحة حكومية للتعليم يقوم على رأسها (١٩١٤ — ١٩٤٧ م) مدير إنجليزى يساعده خمسة من رجال الإنجليز . ويعمل تحت إمرته فى الإدارة العامة اثنان وعشرون موظفاً فلسطينياً : اثنا عشر منهم عرب مسلمون ، وستة عرب مسيحيون ، وأربعة يهود . وهذه الآلة الحكومية مسؤولة عن شؤون التعليم فى فلسطين كلها ، وليس فى القدس وحدها .

وأما القدس نفسها فإن فيها مئتين وخمس مدارس هى ملك لمختلف الأجناس والعناصر والأديان . وفيما يلى أسماء هذه المدارس وعدد الطلاب والطالبات والمعلمين والمعلمات من كل طائفة ، كما اقتبستها من سجلات مصلحة المعارف (١٩٤٥ م)[1]

فهناك سبع مدارس إسلامية خصوصية وهى :

١ — كلية روضة المعارف الوطنية . ٢ — الكلية الإبراهيمية. ٣ — المدرسة المحمدية . ٤ — مدرسة الفلاح . ٥ — مدرسة الحكمة . ٦ — مدرسة البنات الإسلامية . ٧ — دار الأيتام الإسلامية .

وإحدى عشرة مدرسة حكومية للعرب من مسلمين ومسيحيين هى :

١ — الكلية العربية . ٢ — دار المعلمات . ٣ — المدرسة البكرية . ٤ — المدرسة العمرية . ٥ — مدرسة المصرارة . ٦ — مدرسة الشيخ جراح . ٧ — الكلية الرشيدية . ٨ — المدرسة العلوية . ٩ — مدرسة البقعة . ١٠ — المأمونية

(١) وفى كتابى المفصل عن (تاريخ القدس) ذكرت موقع كل مدرسة والتاريخ الذى أسست فيه كما ذكرت اسم مؤسسها ، وعدد الطلاب والطالبات والمعلمين والمعلمات ، ومستوى التعليم فى كل واحدة منها . فليرجع إليه من شاء التفصيل .

القديمة . ١١ ـــ المأمونية الجديدة .

والتعليم فى المدارس الحكومية ليس بإجبارى . وهو فى الصفوف الدنيا (من الصف الأول إلى الخامس) بالمجان . وأما فى الصفوف العليا فيدفع الطالب فى الصفين السادس والسابع (ابتدائى) ٥٠٠ ملا فى السنة . وفى الصفين الأول والثانى (ثانوى) جنيهاً واحداً ، وفى الثالث والرابع جنيهين .

وأما المدارس الخصوصية فلكل منها فئة خاصة ، لا تتدخل الحكومة فى تعيينها .

وسبع وثلاثون مدرسة مسيحية خصوصية هى :

١ ـــ مدرسة الروم الأرثوذكس . ٢ ـــ المدرسة الأرثوذكسية للبنات . ٣ ـــ مدرسة السريان الأرثوذكس . ٤ ـــ مدرسة الأرمن الابتدائية . ٥ ـــ كلية اللاهوت الأرمنية . ٦ ـــ مدرسة ترا سانطة للبنين . ٧ ـــ مدرسة ترا سانطة للبنات . ٨ ـــ ميتم ترا سانطة للبنين . ٩ ـــ ميتم ترا سانطة للبنات . ١٠ ـــ كلية ترا سانطة . ١١ ـــ كلية الفرير ١٢ ـــ مدرسة الفرير للبنين . ١٣ ـــ مدرسة مار يوسف . ١٤ ـــ مدرسة نوتردام دو سيون . ١٥ ـــ ميتم نوتردام دو سيون . ١٦ ـــ مدرسة مار فنسان . ١٧ ـــ مدرسة مارپير دوسيون . ١٨ ـــ مدرسة الإرسالية الفرنسية . ١٩ ـــ المدرسة الساليرية . ٢٠ ـــ مدرسة سان جورج الإنجليزية . ٢١ ـــ كلية شميت الألمانية للبنات . ٢٢ ـــ كلية البنات الإنجليزية. ٢٣ ـــ مدرسة صهيون . ٢٤ ـــ مدرسة كنيسة يسوع للبنات . ٢٥ ـــ المدرسة السويدية . ٢٦ ـــ مدرسة الأرمن البروتستانت . ٢٧ ـــ بستان لأطفال الروم . ٢٨ ـــ المدرسة الأرثوذكسية الوطنية للبنين . ٢٩ ـــ مدرسة الأرمن الكاثوليك . ٣٠ ـــ مدرسة سيدة صهيون الإنجليزية . ٣١ ـــ مدرسة الجالية الإنجليزية . ٣٢ ـــ مدرسة الأمة . ٣٣ ـــ كلية النهضة . ٣٤ ـــ مدرسة الشفقة . ٣٥ ـــ المدرسة الأسقفية . ٣٦ ـــ دار الأيتام السورية (شنلر) . ٣٧ ـــ الصلاحية .

وهناك تسع وتسعون مدرسة يهودية ، بين عمومية وخصوصية . أما العمومية فإنها تدار بأموال خصصتها حكومة فلسطين لليهود من خزانة الدولة . وأما الخصوصية فإنها تدار بأموال تبرع بها بعض المؤسسات اليهودية وعدد من أثرياء اليهود .

ومن المدارس العمومية اليهودية :

تسعة بساتين للأطفال فى زكرون موشة ، ومذكرت موشة ، ويمين موشة ، ومحنة يهودا ، وشمعون صادق ، وجبعات شاءول ، وبيت هايلد ، وكرن أبراهام .

وبستان لأطفال العمال ، ومدرسة ابتدائية للعمال أنفسهم .

وتسع مدارس ابتدائية فى رحافيا ، وتل بيوت ، وصوقولوف ، وشقولى ، وروحاما ، وتحكمونى ، وعيرونى ، وبيت مناحيم ، وكرن أبراهام .

وعدد من الكتاتيب للمزراحيين ، والسفراديم ، وأبناء اليمن

وآخر للبنات المزراحيات

وثلاث مدارس ثانوية فى بيت هاكيرم ، وبفروت ، ومعلى

ومدرسة رفقا صوماخ ، ودورش صهيون ، وبصاليل الجديدة .

ودار للتربية ، ودار لتعليم العبرية ، ودار للمعلمين المزراحيين ، ودار للمعلمات المزراحيات .

ومن المدارس الخصوصية اليهودية :

أربعة وثلاثون بستاناً للأطفال

وتسع عشرة مدرسة ابتدائية

وست مدارس ثانوية ، وثلاث وثلاثون مدرسة لتعليم التلمود ، وست دور للأيتام ، ودار للفنون ، ومدرسة تجارية للبنين ، وأخرى للبنات ، وثلاث دور للمعلمات ، ومدرسة زراعية .

وهناك (الجامعة العبرية) على جبل الزيتون . وهى الجامعة الوحيدة لا فى القدس وحدها وإنما فى فلسطين .

ويتلخص عدد الطلاب والطالبات والمعلمين والمعلمات فى المدارس المتقدم ذكرها كما يلى :

	العدد	الطلاب	الطالبات	المعلمون	المعلمات
المدارس الإسلامية الخصوصية	٧	١١٠١	٢٨٠	٤٦	١٤
المدارس العربية الحكومية					
إسلامية ومسيحية	١١	١٩٠٠	١٨٦١	٦٨	٥٧
المدارس المسيحية الخصوصية	٣٧	٤٣١١	٣٥٥٣	١٩٣	٢٦٩
المدارس اليهودية العمومية	٣٠	٤٠٤٣	٥١٨٨	٢٧٧	٢٠٣
المدارس اليهودية الخصوصية	٦٩	٦٦٣٠	٥٣٩٥	٣٦٢	٣٠٧
	١٥٤	١٧٩٨٥	١٦٢٧٧	٩٤٦	٨٥٠

وبعبارة أخرى :

	الطلاب	الطالبات	المعلمون	المعلمات
المسلمون	٣٥٠٢	٢٣٠٧	١٠٧	٥٣
المسيحيون	٣٤١٦	٣٠٩٨	٢٠٠	٢٨٧
اليهود	١١٠٦٧	١٠٨٧٢	٦٣٩	٥١٠
	١٧٩٨٥	١٦٢٧٧	٩٤٦	٨٥٠

وإنه لجدير بالذكر أن اليهود تمكنوا فى عهد الانتداب من الحصول على حصتهم من الأموال التى خصصت للتعليم ؛ فأنفقوها كما يشاءون ، وأنشأوا من المدارس ما هم فى حاجة إليه ، وساروا فى إدارة مدارسهم على مناهج وضعوا أسسها بأيديهم ، فلم يتدخل الإنجليز فى شؤونهم من هذه الناحية .

على النقيض من الخطة التى ساروا عليها فى إدارة المدارس العربية الحكومية . فقد كانوا (أى الإنجليز) يديرونها كما يشاءون، ويرسمون مناهجها كما يرغبون .

دور الكتب

وفى القدس تسع وأربعون مكتبة ، تغشاها الجماهير فى أى وقت شاءت. وإنّا لذاكروها فيما يلى حسب تاريخ تأسيسها :

١ ــ مكتبة القديس المخلص	١٥٥٨
٢ ــ مكتبة الخليلى	١٧٢٥
٣ ــ مكتبة البطريركية الأرثوذكسية	١٨٦٥
٤ ــ مكتبة كنسية القديس جورج	١٨٩٠
٥ ــ المكتبة الإنجيلية الأثرية الفرنسية	١٨٩٠
٦ ــ مكتبة الجامعة العبرية	١٨٩٢
٧ ــ مكتبة الجمعية الروسية الأرثوذكسية	١٨٩٥
٨ ــ المكتبة الخالدية	١٩٠٠
٩ ــ مكتبة المدرسة الأميركية للبحث عن الآثار الشرقية	١٩٠١
١٠ ــ مكتبة المعهد الألمانى الإنجيلى	١٩٠٢
١١ ــ مكتبة بصاليل الصناعية	١٩٠٦
١٢ ــ مكتبة الكلية العربية	١٩٢٠

١٣ ـــ مكتبة مدرسة الآثار البريطانية	١٩٢٠
١٤ ـــ مكتبة مصلحة الزراعة بحكومة فلسطين	١٩٢٠
١٥ ـــ مكتبة مصلحة المعارف بحكومة فلسطين	١٩٢٠
١٦ ـــ مكتبة القوانين فى محكمة العدل العليا	١٩٢٥
١٧ ـــ مكتبة المسجد الأقصى	١٩٢٧
١٨ ـــ مكتبة الآباء اليسوعيين	١٩٢٧
١٩ ـــ مكتبة المتحف الفلسطينى	١٩٢٨
٢٠ ـــ مكتبة مدرسة نيومن للإرساليات	١٩٢٨
٢١ ـــ مكتبة غولبنجيان الأرمنية	١٩٢٩
٢٢ ـــ مكتبة الدراسات الإنجيلية الفرنسيسية	١٩٢٩
٢٣ ـــ مكتبة بنى بريت فى أورشليم	١٩٣٠
٢٤ ـــ مكتبة جمعية الشبان المسيحيين	١٩٣٣
٢٥ ـــ مكتبة دار التموين للشؤون الاجتماعية	١٩٣٤
٢٦ ـــ مكتبة شوتن	١٩٣٥
٢٧ ـــ مكتبة مصلحة الإحصاءات بحكومة فلسطين	١٩٣٦
٢٨ ـــ مكتبة معهد الأبحاث الاقتصادية بالوكالة اليهودية	١٩٣٦
٢٩ ـــ مكتبة مصلحة الإذاعة بحكومة فلسطين	١٩٣٦
٣٠ ـــ مكتبة المعهد الثقافى الفرنسى	١٩٣٧
٣١ ـــ مكتبة يشارون	١٩٣٩
٣٢ ـــ مكتبة العمال	١٩٤٠
٣٣ ـــ مكتبة المعهد البريطانى	١٩٤٤
٣٤ ـــ مكتبة قلم المطبوعات بحكومة فلسطين	١٩٤٤

وهناك مكتبات لا نعرف تاريخ إنشائها : كمكتبة دير الصليب الأرثوذكسية ، ومكتبة الآباء الفرنسيسيين ، والمكتبة الكائنة فى دير الدومينيكان .

ومكتبات خصوصية ، يملكها بعض الأشخاص والأسر : كالمكتبة التى أنشأها الشيخ خليل الخالدى ، وعبد الله مخلص ، وإسعاف النشاشيبى ، وإسحق موسى الحسينى ، وخليل السكاكينى ، ومؤلف هذا الكتاب ، وغيرهم كثيرون .

ومكتبات عائلية كالمكتبة الحسينية ، والمكتبة الدوادية ، والمكتبة الفخرية لآل أبى السعود ، ومكتبة آل جار الله ، ومكتبة آل قطينة ، ومكتبة آل البديرى ، ومكتبة آل الإمام ، ومكتبة الترجمان .

متاحفها والجمعيات التى تبحث عن آثارها

فى القدس متاحف كثيرة : نذكر منها : (المتحف الحكومى) وهو فى طليعتها . ولقد أنشئ هذا المتحف بمال وهبه الثرى الأميركى المعروف روكفيلر J.D. Rockefeller فقد رصد هذا (١٩٢٧ م) لمشروع المتحف مليونين من الدولارات. صرف منها نصف مليون للبناء ، ونصف مليون للأثاث والكتب ، واحتفظ فى بنك إنجلترا بمليون دولار ليصرف ريعها على إدارة المتحف . وتولى عمارته كبير المهندسين الحكوميين فى ذلك الحين المستر هاريسون B. Harrison . وفتح المتحف أبوابه للجمهور سنة ١٩٣٨

إنه كائن تجاه الزاوية الشمالية الشرقية للسور ، وعلى بعد بضعة أمتار منه، بين باب الساهرة والحى المعروف بوادى الجوز . فيه مجموعة قيمة من الآثار الفلسطينية وفيه مكتبة قيمة .

وهناك (المتحف الإسلامى) أسسه المجلس الإسلامى الأعلى عام ١٩٢٣ . وهو كائن فى بناء من أبنية الحرم ، على مقربة من المسجد الأقصى . فيه مجموعة قيمة من الخزف والبلاط القاشانى النفيس ، ومجموعة من النقوش القديمة ، والكتابات العربية المكتوبة بالخط الكوفى ، والنوافذ القديمة المرصعة بالفسيفساء ومجموعة من المصاحف الشريفة والنقود التى سكت فى العهود الإسلامية الأولى

وفى القدس جمعيات عديدة تبحث عن الآثار ؛ منها : المدرسة البريطانية للبحث عن الآثار The Pale. Exploration Fund. Brit. School of Archeology وجمعية البحث عن الآثار الفلسطينية ؛ والمدرسة الفرنسية للبحث عن التوراة والآثار القديمة Ecole Biblique et Archeologique Française والمعهد الشرقى لجامعة شيكاغو The Oriental Institute of the University of Chicago والجامعة العبرية ، والجمعية اليهودية للبحث عن الآثار الفلسطينية . والمعهد الشرقى الألمانى . والمعهد الإنجيلى الألمانى للبحث عن آثار القرون الوسطى فى البلاد المقدسة والمدرسة الأميركية للبحث عن الآثار الشرقية . American School of Oriental Research

حدائقها

فى القدس ، من الحدائق والميادين العامة ، أربع عشرة حديقة وميداناً . مجموع مساحتها سبعة وسبعون دونماً ، كلها خارج السور . وليس بداخل السور حديقة واحدة ، أو ميدان يتجمع الناس فيه خلا ساحة الحرم القدسى . هذا عن الحدائق العامة ، وأما الحدائق الخاصة ، فإنها كثيرة ، ولا سيما خارج السور ، يكاد لا يخلو منها منزل واحد .

طرقها

بلغت طرق المدينة التى تصل بين الأحياء ويطرقها الجمهور من الطول ، عام ١٩٤٧ م ، مئة وستة وأربعين كيلو متراً . منها ٩٦ كيلو متراً معبّد ومرصوف بالأسفلت . والباقى غير معبّد ، ولا مرصوف .

وهناك طرق معبّدة ومرصوفة رصفاً متقناً تربط القدس بالبلاد المجاورة . منها : (طريق القدس — يافا) أنشئت لأول مرة سنة ١٢٨٤ للهجرة وعبدت فى أوائل القرن العشرين . إنها أقدم طريق معبدة . طولها ٦٣ كيلو متراً . و (طريق القدس — نابلس) بدأ الأتراك فى إنشائها سنة ١٩٠٣ م . وأتموها فى سنة ١٩٠٧م . وطولها ٦٥ كيلو متراً . وقد رصفت بالأسفلت فى أوائل الاحتلال البريطانى . و (طريق القدس — أريحا — جسر النبى) طولها ٤٦ كيلو متراً ونصف الكيلو متر . و (طريق القدس — الخليل — بئر السبع). طولها ٩٨ كيلو متراً . وهى أول طريق عبدها الإنجليز بعد الاحتلال .

وفيها محطة للسكة الحديدية ، وهى واقعة فى جنوبى المدينة ، منح امتياز هذا الخط ، بادىء ذى بدء ، إلى يوسف نافون أفندى سنة ١٨٨٨ م . وكانت مدته ٧١ سنة . ثم باع صاحب الامتياز امتيازه هذا سنة ١٨٨٩ إلى شركة الخطوط الحديدية العثمانية ليافا — القدس ، وهى شركة فرنسية . فباشرت هذه عملها فى السنة نفسها وأتمته فى شهر أيلول سنة ١٨٩٢ م . فربطت القدس بيافا بسكة حديدية .

إنه خط ضيق عرضه متر واحد وطوله ٨٧ كيلو متراً . يجتاز فى طريقه ١٧٦ جسراً . سبعة منها حديدية ، والباقى من حجر .

مجاريها

فى القدس مجرى لتصريف الأقذار ، يتبع فى معظم اتجاهاته المجرى الرومانى القديم(١) . فهذا المجرى يقطع المدينة القديمة من الشمال إلى الجنوب . فيبدأ عند باب العمود ، ثم يمر بحارة الواد وباب السلسلة وحارة المغاربة ، إلى أن ينتهى عند القرية المعروفة بسلوان قبلى المدينة ، ولقد نفع هذا المجرى المدينة قرابة خمسة عشر قرناً . وظهر من الحجارة المتنوعة التى استعملت فى بنائه أنه رمم مراراً وتكراراً بعد الفتحين : العمرى والصلاحى ، وفى زمن المماليك والأتراك .

هذا هو المجرى الأساسى فى المدينة القديمة . وله مجار فرعية تصل بينه وبين أحياء المدينة الأخرى داخل السور .

وأما فى الأحياء الجديدة ، خارج السور ؛ تلك الأحياء التى ظهرت فى أواسط القرن التاسع عشر ؛ فإن كل ما نعرفه عن مجاريها ، أن الأتراك ربطوا فى أواخر عهدهم بهذه البلاد القطاع الكائن بين باب العمود والمصرارة والكرم المعروف بسعد وسعيد بالمجرى الرومانى المتقدم ذكره .

وأنشأت حكومة فلسطين ، فى أوائل عهد الانتداب (١٩٢٠ م) ، مجرى جديداً فى القطاع الكائن بين باب الخليل وفندق اللنبى ، على بعد نصف ميل

---

(١) ورد ذكر لمجرى الأقذار فى عدد كبير من الكتب والأسفار . ومنه يفهم أن الرومان أنشأوا خلال القرن الأول للميلاد ، مجرى لتصريف الأقذار . وأنهم عادوا فى القرن الرابع فأنشأوا مجرى آخر . ويجوز أنهم فى المرة الثانية لم ينشئوا مجرى جديدا وإنما عمروا المجرى القديم . ولقد ذكرنا ذلك بشىء كثير من الإسهاب فى الكتاب الذى بحثنا فيه (تاريخ القدس) بالتفصيل . وفيه أشرنا إلى الحفريات التى قامت بها بلدية القدس فى عامى ١٩٣١ – و ١٩٤٢ والتى أدت إلى العثور على المجارى القديمة .

من الباب المذكور إلى الغرب ، وعند الباب تم اتصاله بالمجرى القديم .

وتابعت الحكومة المشار إليها عملها ؛ فأضافت بعض الأقسام الجديدة إلى المجرى القديم ، وربطت به الأحياء الآتى ذكرها : — مياشوريم . بيت إسرائيل. شنلر . كرم رصاص، طريق الحبس . شارع تشانسلور . روخاما . المركز التجارى (الشماعا) . الحى الكائن بين ماملا والمركز التجارى . فندق الملك داود . الحى الكائن بين محنة يهودا وباب الخليل . الحى الكائن بين جبل الزيتون والمتحف الفلسطينى من وادى الجوز . الحى الكائن بين قشلاق اللنبى وبركة السلطان على طريق بيت لحم .

وحفرت البلدية ، حوالى عام ١٩٣٨ ، مجرى كبيرا لتصريف الأقذار من باب العامود فوادى الجوز ، فالجسمانية ، فوادى قدرون ، إلى أن ينتهى فى وادى السواحرة قبلى قرية سلوان .

ولقد وقفت حركة إنشاء المجارى فى الحرب الكونية الثانية (١٩٣٩ — ١٩٤٤م) لقلة الأسمنت والحديد والمواد اللازمة للتعمير والإنشاء .

حدثنى الخبراء فقالوا إن فى القدس اليوم (١٩٤٦ م) مجارى، طولها ستة وخمسون كيلو متراً . ثمانية منها قديمة (ستة فى داخل السور واثنان فى خارجه) وثمانية وأربعون حديثة ، كلها خارج السور . والمجارى الحديثة أيضاً مرتبطة بالمجرى الرومانى القديم . وهى عبارة عن قساطل مصنوعة من الخزف المدهون . ذات قطر يتراوح بين الست بوصات والأربع والعشرين بوصة .

أمراضها ومستشفياتها

الأمراض المعروفة بالقدس . والمنتشرة فيها أكثر من غيرها ، هى :
النزلة الصدرية . التيفوئيد : مرض الزهرى . التدرن الرئوى . السعال الديكى

الحمرة . الحصبة . الديزانتارية . داء الخانوق . الحمى النفاسية . الالتهاب السحائى . الالتهاب الحاد فى الأعصاب . الجذام .

وفى القدس (مصلحة حكومية) أسيست لمكافحة هذه وغيرها من الأمراض وفيها ستة عشر مستشفى ، إليك أسماءها ومواقعها :

(مستشفى الحكومة) واقع غربى المدينة وفى المكان المعروف بالمسكوبية ، فيه دار للولادة وفرع للجراحة وآخر للأمراض الباطنية . وفيه مدرستان : واحدة لتدريب الممرضات ، وأخرى للقابلات . . وهو من أملاك الروس .

(المستشفى الفرنسى) واقع على مقربة من سور المدينة إلى الشمال ، تجاه الباب الجديد . بناه الكونت دى بيالا Count De piellat عام ١٨٨٠ ، إنه من أملاك الآباء الانتقاليين . ويسميه الفرنسيون (مستشفى القديس لويس)

(مستشفى مار يوحنا) واقع فى البقعة ، على طريق باب الخليل — المحطة . وهو للعيون . بنى عام ١٨٦١ . يسميه الإنجليز مستشفى سان جون . وهو تابع للإرسالية التبشيرية الإنجليزية .

(مستشفى تيخو) وهذا أيضاً مخصص لمداواة أمراض العيون . أسسته فى أول الأمر جمعية ألمانية أسست فى فرنكفورت للعناية بشؤون صهيون (١٩٠٦ م) وعهدت بإدارته إلى طبيب سويسرى يدعى الدكتور إيرلانجر . ثم تولى إدارته الدكتور تيخو . كان فى بادىء الأمر فى الحى المعروف بميشوريم . ثم انتقل إلى شارع منورا .

(مستشفى الإرسالية الإنجليزية) ويسميه الإنجليز مستشفى جمعية يهود لندن لأنه بنى بقصد مساعدة اليهود ، ولا سيما أولئك الذين يراد تنصيرهم . إنه واقع غربى المدينة على مقربة من الحى المعروف بالشيخ عكاشة . بناه المطران جورج فرنسيس بوبهام بلايث George Francis Popham Blyth (١٨٨٧ — ١٩١٤)

(المستشفى الألمانى) فى الحى المعروف بالشيخ عكاشة ، غربى المدينة

بناه الألمان عام ١٨٩٤ م . وكان المقدسيون فى بدء عهد تأسيسه يسمونه (مستشفى المجيدى) إذ كان كل مريض يدفع عن نفسه ريالا مجيدياً عثمانياً واحداً مهما طال أجل إقامته فيه . أغلق عام ١٩٣٩ بسبب الحرب الكونية الثانية التى نشبت بين الإنجليز والألمان .

(مستشفى الهداسا) كان فيما مضى يسمى مستشفى روتشلد ، وكان واقعاً فى نفس الشارع الذى يقوم عليه المستشفى الألمانى ومستشفى الإرسالية الإنجليزية ؛ شرقى الحى المعروف بالشيخ عكاشة ، وإلى الشمال من المسكوبية . فيه مدرسة للممرضات أسستها هنريتا زولد زعيمة الجمعيات النسائية اليهودية فى الولايات المتحدة والمعروفة بهداسا . ومعهد للطب أسسه الدكتور رنتوف رئيس الجمعية الطبية اليهودية فى الولايات المتحدة . ثم نقلوه إلى عمارة ضخمة بناها اليهود على جبل الزيتون . وكان ذلك فى أوائل القرن العشرين . وهو الآن أضخم مستشفى فى المدينة . فيه أقسام للجراحة والولادة والأمراض الجلدية والتناسلية وأمراض العيون والأطفال .

(المستشفى الإيطالى) عند مفترق الطرق المؤدية إلى باب الخليل وحى المصرارة وميشورم . أسسه الإيطاليون فى أوائل القرن العشرين . وظل مفتوح الأبواب للسكان حتى نشبت الحرب الكونية الثانية (١٩٣٩ م) وراح الطليان يحاربون الإنجليز فى أفريقيا الشمالية .

(مستشفى الأمراض السارية) تديره الحكومة . وهو واقع عند مفترق الطرق المؤدية إلى بيت لحم وبيت صفافا والقدس .

(مستشفى البرص) واقع فى مكان متوسط بين حى الطالبية من الشمال وحى النمامرة من الجنوب والحى الألمانى من الشرق . شيده بادىء ذى بدء المجلس البلدى وكان ذلك عام ١٨٦٧ م . وتديره الآن الجمعية المورافية بلندن . وتمده الحكومة بالمال .

(مستشفى بيكور خوليم) عند مفترق الطرق المؤدية إلى رحافيا وشنلر وباب العمود والشيخ بدر ، تجاه المستشفى الألمانى من الغرب . كان فى الأصل فى الحى اليهودى داخل السور . أسسه اليهود فى أواخر الحكم التركى . وفى أوائل الاحتلال البريطانى نقلوه إلى مكانه الجديد خارج السور .

وهناك مستشفيات يهودية أخرى منها : (شعارى صادق) ويسمونه مستشفى ولخ نسبة للدكتور ولخ الذى عمل فيه حيناً من الدهر . وهو واقع غربى المدينة على طريق يافا .

و (مزغاب لاداخ) فى حارة اليهود بالمدينة القديمة .

و (مستشفى سادوفسكى) فى حى رحافيا إلى الغرب من مدرسة شميت الألمانية ؛ سمى كذلك نسبة لمؤسسه الدكتور سادوفسكى . وهو معد للولادة فقط .

وهناك مستشفيان للأمراض العقلية : أحدهما يهودى أنشأته جمعية تعرف بـ (عزرات نشيم) وهو واقع غربى القدس عند مفترق الطريق المؤدية إلى يافا وعين كارم . والثانى للحكومة . وهو واقع فى بيت لحم .

وفيها عدد كبير من المستوصفات التى أسست لمعالجة المرضى من الفقراء وعدد كبير أيضاً من المراكز التى أسست لرعاية الأطفال ، وملاجىء للعجزة والمقعدين .

ومع ذلك فإننا لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن الخدمات الاجتماعية المجانية ، رغم جميع المستشفيات والمستوصفات التى ذكرناها فى الأسطر المتقدمة ، قليلة ؛ تكاد لا تفى بالغرض المنشود . وفى القدس ٤٩ صيدلية منها ٨ للمسلمين و ٧ للمسيحيين و ٣٤ لليهود . وفيها ١٥ مستودعاً للعقاقير وبيع الأدوية بالجملة . نصفها للعرب والنصف الآخر لليهود .

تجارتها

قلنا فى غير هذا الموضع إن القدس مدينة جبلية . وإنها ليست بمدينة زراعية ، ولا صناعية . ولهذا فإنها تستورد معظم حاجاتها ، إن لم نقل كلها ، من الخارج . أما القمح وسائر أنواع الحبوب فإنها تستوردها من شرق الأردن وحوران ، وتستورده فى بعض الأحيان من استراليا والعراق . وأما الأغنام فمن نجد والعراق وبر الأناضول .

وأما الخضر (كالبندورة والقرع والخيار والملفوف والقنبيط والجزر والبامية والملوخية والبطاطا والفاصوليا وما إلى ذلك) فمن اللد والرملة وقراهما ، ومن قلقيلية وطول كرم وضواحيهما ، ومن الشونة وأريحا وما بينهما ، ومن الخليل ورام الله وقراهما ، ومن خان يونس وغزة وقراهما ، ومن قرى القدس نفسها ، وفى بعض الأحيان من مصر والشام .

وكذلك قل عن الفواكه . فإنها تأتى من جميع الجهات :

فالموز ، مثلا ، من أريحا وبيسان . . . والبرتقال والليمون وسائر أنواع الحمضيات من يافا وأريحا واللد . . . والبطيخ من خان يونس وطول كرم . . . والشمام من النعانى وقاقون . . . والبلح من خان يونس والعريش . . . والعنب من الخليل ورام الله وقراها ومن ضواحى غزة كالجورة وحمامة وبربرة . . . والمشمش والخوخ والبرقوق والإجاص والتفاح من قالونيا وأرطاس ومن عين كارم والمالحة والولجة وبتير . . .

ويأتيها السمك من يافا وغزة ومن العقبة

وقصارى القول إن الفواكه والخضر بجميع أنواعها وألوانها ، لا تنقطع

من أسواق القدس ، لا فى الصيف ولا فى الشتاء . وكذلك قل عن جميع أنواع الطيور والأسماك .

وفى القدس أسواق عديدة ، جلها مرصوف وبعضها يقوم على قبو مرتفع . والأسواق التى فى داخل المدينة القديمة معوجة وضيقة يزدحم الناس فيها بكثرة، ويزداد هذا الازدحام فى المواسم والأعياد .

وفى القدس كلها ٥١١٠ دكاكين معدة للتجارة : — منها ١٣٥٨ للمسلمين و ٩٥٤ للمسيحيين و ٢٧٩٨ لليهود . يدخل فى هذه الأرقام الدكاكين المعدة لبيع الخبز ، والسمك ، واللحوم ، والمخابز والأفران ، ومطاحن القمح والحبوب ؛ والمحال المعدة لبيع الدواجن ، والبيض ، والألبان ؛ ومعامل الحلويات ، والثلج ؛ ومطاحن البن ؛ والمصابن ، ومعاصر الزيت والسيرج ، والمشروبات الروحية ؛ والفنادق ، والمطاعم والمقاهى ، ودور السينما ، والصيدليات ، ومعامل الورق والأحذية ، والزجاج ، والجلود ، والخياطة ، والنجارة ، والحدادة ، والسنكرة ، والتصوير ، والأمكنة المعدة لبيع السجاد والشمع والآثار والتحف القديمة ؛ وما إلى ذلك من المخازن والمستودعات والدكاكين والحوانيت المختلفة .

ولقد ذكرنا ما تملكه كل طائفة على حدة من هذه الدكاكين فى كتابنا المفصل عن (تاريخ القدس) . فليرجع إليه من شاء .

أوزانها ومقاييسها

إن الأوزان التى يفرض القانون استعمالها فى بيت المقدس هى :

(الدرهم) وقيمته ٣,٢٠٥ غرامات

(الأقة) وقيمتها ٤٠٠ درهم

(الكيلو) وقيمته ١٠٠٠ غرام

(الطن) وقيمته ١٠٠٠ كيلو غرام

(الأوقية) وقيمتها ٧٥ درهماً = ٢٤٠,٣٦٧ غراماً

(القنطار) وقيمته ١٠٠ رطل

(الرطل) وقيمته ١٢ أوقية

وأما المقاييس القانونية فهي :

(الذراع) عبارة عن ٦٧,٧٥ سنتيمتراً للثياب و ٧٥,٨٠ سنتيمتراً للأراضي والأبنية . وما عدا ذلك فإنه عبارة عن ٢٤ قيراطاً .

(الدونم) للمقاييس التي تمت في العهد التركي وهو ١٦٠٠ ذراع مربع . وقد جعل في عهد الاحتلال البريطاني ١٠٠٠ متر مربع .

صناعاتها

ليست القدس من المدن الصناعية الهامة ، وإن كان فيها صناعات قليلة لفتت إليها الأنظار : كصناعة الغزل والنسيج ؛ وصناعة القاشاني ، والخزف ، والشمع ، وخشب الزيتون ، والنخل ، وصناعة البلاط ، وقلع الحجارة وقطعها ، والقرميد ؛ وأدوات الزينة ، والهدايا ذات الرموز الدينية : واستخراج زيت السمسم .

أما صناعة الغزل فقد نشأت في أثناء الحرب الكونية الأولى (١٩١٤ — ١٩١٧ م) عن طريق جمعية الصليب الأحمر الأميركية . إذ أسست هذه أنوالا لتشغيل اللاجئين إلى القدس من أبناء الطائفة الأرمنية ، بدلا من توزيع الهبات

عليهم . فراح هؤلاء يغزلون وينسجون . وهكذا انتعشت صناعة الغزل والنسيج في المدينة .

وعملت ، بعدئذ ، جمعية أنصار القدس على تشجيع هذه الصناعة . ومن أجل الوصول إلى تلك الغاية أنفقت مبلغاً من المال على تعمير سوق القطانين (١٩١٩) . تلك السوق التي أرادت جعلها مقراً لصناعة النسيج . إلا أن هذه الفكرة لم تنجح .

وعندما نشبت الحرب الكونية الثانية (١٩٣٩ – ١٩٤٤) عادت صناعة النسيج فانتعشت . وفي القدس الآن مئة واثنان وثلاثون مصنعاً للنسيج والحياكة . منها ٥٢ للمسلمين و ١٣ للمسيحيين و ٦٧ لليهود .

وأما صناعة القاشاني فقد كانت ، في الربع الأول من القرن العشرين ، منحصرة في رجل أرمني اسمه (داود أوهانسيان) وفي دار الأيتام السورية المعروفة بـ (شنلر) ، وهي مؤسسة ألمانية . وعندما شعر المجلس الإسلامي الأعلى (١٩٢٧ م) بالحاجة لتعمير مسجد الصخرة ، وكان معظم القاشاني الموجود في هذا البناء من القرن السادس عشر قد أصابه البلى ، استحضر الخبراء من كوتاهية وإستامبول . ودرب هؤلاء عدداً من أبناء بيت المقدس ، فبنوا الأفران ، وصنعوا من البلاط القاشاني ما لا يقل جودة عما صنعه الأقدمون .

وكذلك قل عن صناعة البلاط وعن صناعة القزاز والخزف . فإن هذه وإن كانت عرفتها القدس في الأزمنة الغابرة . إلا أنها لم تنتعش هنا انتعاشها في مدينة الخليل .

وأما صناعة الشمع فإنها من الصناعات التي اشتهرت في القدس . والشمع المقدسي مرغوب لدى الأجانب والسياح . وتباع منه مقادير كبيرة في الأعياد ، ومن هنا كانت تجارة الشمع ولا تزال رائجة في هذه المدينة .

وكذلك قل عن صناعة خشب الزيتون ؛ فإن في القدس عمالا ماهرين

أتقنوا ، مع الزمن ، هذه الصناعة . فتراهم يحفرون على خشب الزيتون أشكالا متنوعة وبإتقان عجيب . ويصنعون من هذا الخشب أدوات مكتبية دقيقة الصنع ، ولعبا للأطفال ، وما إلى ذلك من آلات الزينة والهدايا ذات الرموز الدينية التى تستهوى الأجانب الذين يهبطون هذه المدينة بقصد الزيارة .

واشتهر المقدسيون أيضاً فى جدل سعف النخل ؛ وفى الصور النباتية ، تصور لك سهول فلسطين وجبالها ، ومدنها وقراها .

وأما صناعة الصابون فإنها تضعضعت مع الزمن . وقد لا يخلو من فائدة أن نلقى على ماضى هذه الصناعة نظرة ، فنقول :

إن القدس كانت فيما مضى مركزاً من المراكز الهامة فى هذا الشرق ؛ يصنع فيها الصابون ، ويصدر منها إلى مصر والبلاد المجاورة . إذ كان فيها وفيما حولها من الأراضى مساحات واسعة من أشجار الزيتون . وشجرة الزيتون شجرة مباركة جاء ذكرها فى أسفار العهد القديم وفى القرآن الكريم . ومن هنا نشأ حب الأقدمين لزراعة الزيتون . وورث المقدسيون هذا الميل عن آبائهم ، فاعتنوا به . وكان عندهم عدد كبير من معاصر الزيت . وكان الزيت من الكثرة بدرجة أن سكان بيت المقدس كبوا فى سنة من السنين الزيت القديم(1) ليتمكنوا من إيجاد أوعية كافية لخزن زيتهم الجديد . وكانوا يستعملون الزيت للأكل والضوء والعلاج . عملا بالحديث الشريف : « كلوا الزيت وادهنوا به » . ثم راحوا يصدرونه . كما راحوا ينشئون المصابن . واشتهر الصابون القدسى فى أسواق الشرق الأدنى ، ولا سيما فى مصر .

غير أن هذه الصناعة تضعضعت بعد سنة ١٨٧٦ ؛ يوم اكتسحت المدينة أسراب كثيرة من الجراد ، وأتت على قسم كبير من أشجار الزيتون(2) . ثم

---

(١) الوثيقة ٢٠ من مجموعة أسطفان .

(٢) "Jerusalem" by C. Warren. P. 500.

أتى الأتراك فى الحرب الكونية الأولى (١٩١٤ م) على ما تبقى من تلك الأشجار . استعملوها وقوداً للتدفئة وتسيير القطارات .

وهكذا أصبحت القدس فى المؤخرة . وليس فيها اليوم مصبنة واحدة ، بعد أن كانت فى الطليعة وكانت معروفة بزيتها وصابونها .

وأما صناعة استخراج زيت السمسم (السيرج) فإنها رائجة فى القدس . وكذلك قل عن صناعة قلع الحجارة وقطعها . وصناعة البسكوت والمكرونة . وخبز الفطير .

شركاتها

وكثيراً ما يتكتل التجار وأرباب الصناعات ؛ فيؤلفون شركات بلغ عددها فى عام ١٩٤٥ : ٥٢٣ شركة : منها ٦٦ شركة للتجارة العامة و ٧ شركات للزراعة و ٦٥ شركة لشراء الأراضى و ٤ للسجاير و ١٨ شركة كيمائية و ٥ شركات للخردوات و ٦٣ شركة للأشغال العامة و ٣٧ شركة للطباعة و ١٢ جمعية لنشر العلم والتدريس و ٤ شركات للمشروبات الروحية و ٢٢ شركة ميكانيكية وكهربائية و ٣١ شركة للأقمشة والنسيج و ١٢ شركة للمقاهى والمطاعم و ٩ شركات للأفلام ودور السينما و ٢٤ شركة للنقل والسفر و١٥ شركة للزيوت والأخشاب و ٤٤ شركة للتأمين على الحياة و ٣ شركات للأحذية والجلود و٥ شركات للسكب وأدوات الحديد و ٣ شركات للمطاط وشركة للساعات وشركة للحمضيات و ٣ شركات للمياه و ٢٢ شركة للتموين . والباقى شركات ليست لها أهداف معينة .

بنوكها ومصارفها

فى القدس اليوم ستة عشر مصرفاً (بنكاً) إليك أسماءها ، والتاريخ الذى بدأ كل واحد منها بالعمل فيه : بنك كوبات عام (١٩١٨ م) . والبنك العثمانى (١٩١٩ م) . بنك أنجلو — فلسطين (١٩١٩ م) . البنك الفلسطينى للرهن والتسليف (١٩٢٢ م) . البنك المركزى للمؤسسات التعاونية بفلسطين (١٩٢٢م) المجلس الفلسطينى (١٩٢٢ م) . بنك مزراحى (١٩٢٣ م) . بنك فلسطين التجارى (١٩٢٤ م) . بنك باركلز (١٩٢٦ م) . البنك البولونى الفلسطينى (١٩٢٩ م) . البنك العربى (١٩٣٠ م) بنك يعقوب يافت وشركاه (١٩٣٣م) بنك الأمة العربية (١٩٣٣ م) . بنك إيللرين (١٩٣٤ م) . بنك فويخت واغنر التجارى (١٩٣٤ م) . بنك الخصم الفلسطينى (١٩٣٥ م) .

وكان فى القدس قبل الحرب الكونية الثانية (١٩٣٩ م) . بنكان : أحدهما (بنك دى روما) وهو إيطالى ، أسس سنة ١٨٨٠ . والثانى (بنك درتمبل كيزلشافت) وهو ألمانى ، تأسس سنة ١٩٢٤ . بيد أنهما أغلقا بسبب الحرب المذكوره .

جمعياتها ونواديها

بلغ عدد الجمعيات والنوادى التى تسجلت فى القدس ، من بدء الاحتلال البريطانى حتى نهاية عام ١٩٤٥ ، ألفين وثلاثة وعشرين . منها ما هو أدبى وثقافى ، ومنها ما هو رياضى ، ومنها ما هو للخير العام ، أو لمصلحة طائفة

من الطوائف دون غيرها . و٨٥ ٪ من هذه الجمعيات والنوادى فلسطينية و١٥ ٪ أجنبية . ومن الجمعيات والنوادى الفلسطينية ٣٠ ٪ إسلامية و ٢٠ ٪ مسيحية و ٣٥ ٪ يهودية .

بريدها

كان فى القدس ، على عهد الأتراك ، مصلحة للبرق والبريد . وكان يقوم إلى جانب هذه المصلحة مؤسسات أجنبية تقوم بخدمات البريد فيها . ولكن هذا الامتياز الذى كانت تتمتع به بعض الدول الأجنبية ألغى عند الاحتلال البريطانى . فأخذت الحكومة المنتدبة على نفسها خدمات البرق والبريد والهاتف ، فجددت خطوط البرق (١٩١٨) . وأنشأت ، فى تلك السنة أيضاً ولأول مرة فى تاريخ القدس ، شبكة تلفونية . وبعد أن كانت هذه منحصرة فى مصالح الحكومة ودواوينها الرسمية ولم يجاوز عددها ١٦٣ ، أصبح فى المدينة ، سنة ١٩٤٧ : ٥٨٣٦ آلة للتلفون .

والقدس مرتبطة الآن ، من حيث المخابرات ، مع البلاد العربية المجاورة ومع القارتين الأوربية والأميركية بالبر والبحر والهواء . ولها مطار على طريق رام الله — القدس ، وعلى بعد عشرة كيلومترات من الأخيرة إلى الشمال .

وفى القدس اليوم محطتان للإذاعة : واحدة باسم محطة القدس للإذاعة الفلسطينية ، وتذاع منها الأخبار باللغات الرسمية الثلاث : العربية والعبرية والإنجليزية والثانية باسم محطة الشرق الأدنى للإذاعة العربية ، وتذاع منها الأخبار باللغة العربية فقط . أما الأولى فقد أسست عام ١٩٣٦ وهى خاضعة لحكومة فلسطين ، وتعتبر

فرعاً من فروع مصلحة البرق والبريد العامة . إلا أنها فصلت عنها عام ١٩٤٥ ، وأصبحت مصلحة مستقلة ، إلا أنها ظلت خاضعة للحكومة . وهناك فى رام الله محطة تلتقط ما يذاع من القدس وترسله إلى سائر أنحاء العالم . وكذلك قل عن محطة الشرق الأدنى تلك المحطة التى كانت فى أوائل الاحتلال البريطانى تعمل فى يافا ، ثم انتقلت إلى القدس ، ومنها نقلت فى أواخر الاحتلال إلى جزيرة قبرص ، وهى محطة إنجليزية .

بلديتها

(البلدية) هى الأداة الحكومية المحلية التى تشرف على شؤون المدينة ، وتعنى براحة السكان ؛ فتنشئ الطرق والمجارى وتصونها من العبث ، وتنظف الأزقة والشوارع وتنيرها ، وتنشئ الحدائق والميادين ؛ وترتب الأسواق ، وتحدد أسعار الحاجات ، وتراقب المكاييل والأوزان والمقاييس ؛ وتشرف على وسائل النقل ، ومسائل البناء والعمران ؛ وتنظم المسالخ ، والمحارق ؛ وتوزع المياه على السكان .

روى المؤرخون أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعد أن تم على يده فتح القدس راح يتجول فى شوارعها ويغشى أسواقها . وأنه رتب أمورها على أساس من التنظيم الإدارى والقضائى ؛ ففرض الفروض ، وأعطى العطايا ، ورتب البريد ، وأقام العيون ، وعين قاضياً (مفتشاً) يطوف على المأمورين ويحقق فى الشكاوى. وأنه أسس الحسبة (البلدية) وعين المحتسبين لمراقبة الموازين والمكاييل، لمنع الغش ، وتنظيف الأزقة والكنف ، والرفق بالحيوان . وأنه هدم البناء المحدث فى وسط السوق ، وحظر على الناس الازدحام فى الطرق . وحثهم على التجارة ، فقال :

« لاتلهينكم الرياسة وحبها . ولا يغلبنكم الغرباء على التجارة . فإنها ثلث الإمارة » . وبعد أن رتب الأمور ، ووضع كل شيء فى نصابه رجع إلى المدينة .

ذلك كان أول عهد لمدينة القدس بالحسبة، وبعبارة أخرى بالإدارة التى عرفت بعدئذ بـ (البلدية) .

ولقد أضيف هذا النوع من الأعمال البلدية ، فى العهد الفاطمى ، إلى الشرطة . فحدثنا المقدسى أنه كان يقف على أبواب القدس على عهده (فى أواخر القرن العاشر)، حراس يجبون الرسوم عن البضائع والخضر التى يستوردها التجار. وقرأنا فى الكتب الشيء الكثير عن الحسبة والمحتسبين على عهد المماليك .

ولقد اهتم الأتراك بالشؤون البلدية ، وجعلوها فى بادئ الأمر ، تحت إشراف قضاة الشرع . وفى السجلات المحفوظة فى المحكمة الشرعية بالقدس أمثلة كثيرة لما نقول . فقد قرأنا فى هذه السجلات أن محتسب القدس تاج الدين رفع إلى المحكمة الشرعية شكواه ضد إبراهيم بن خليل من قرية شعفاط لأنه باع قمحاً مختلطاً بفضول . . . وأن المعلم عمر بن الحاج محمد الجمال انتدب معماراً مسؤولا عن عمارة السور . . . وأن القاضى حسام الدين عين بحضور المحتسبين أسعار الحاجيات من خبز ولحم وزيت وسمن ودبس وجبن وصابون ، حتى الكنافة والخضر والحديد والفولاذ . . . وأنه عاقب التجار الذين باعوا هذه الحاجيات بسعر أكثر من السعر المقرر . . . وكذلك قل عن الذين غشوا زيتهم وسمنهم ...

ليس هذا فحسب . فقد قرأنا فى السجلات المتقدم ذكرها أن القاضى كان يعين (مقدم العتالين) . يعينه بعد استشارة المحتسب . وما كان لعتال أن يتعاطى مهنة العتالة فى القدس إلا بإذن منه .

ويظهر أن أعمال البلدية انفصلت بعدئذ عن المحاكم الشرعية . واكتسبت شكلا أقرب إلى النظام .

فقد سمعنا بتاريخ١٨٦٣ م ،عن أول بلدية تألفت فى القدس. وكانت هذه عبارة عن هيئة محلية صغيرة ، ذات سلطة محدودة ، وواردات ضئيلة لم تجاوز ٥٠٠ ليرة عثمانية فى السنة . وأن أول نظام عثمانى صدر وفيه تصريح عن البلديات هو نظام الولايات (١٨٦٤م) ثم نظام إدارة الولايات (١٨٧١م) . وبعدئذ ظهر قانون انتخاب المجالس البلدية (١٨٧٥ م). وراح دافعو الضرائب، بعد ذلك التاريخ يمارسون حقهم فى انتخاب الأعضاء . وكان المتصرف يختار الرئيس من بين هؤلاء الأعضاء . ووضعت الحكومة بعد ذلك بسنتين (١٨٧٧ م) قانوناً أسمته (قانون البلديات) ودامت الحال على ذلك المنوال حتى الحرب الكونية الأولى .

وإليك أسماء الأشخاص الذين تولوا رياسة البلدية فى ذلك العهد (١٨٦٣— ١٩١٣ م) :

١ — عبدالرحمن أفندى الدجانى . ٢ —الخواجا استربادى . ٣ — موسى أفندى فيض الله العلمى . ٤— يوسف ضياء الدين باشا الخالدى . ٥— عبدالقادر أفندى الخليلى . ٦ —عمر أفندى عبد السلام الحسينى . ٧ — سليم أفندى الشاكر الحسينى . ٨ — شحادة أفندى فيض الله العلمى . ٩ — سليم أفندى الحسينى . ١٠ —زكى أفندى الدجانى . ١١— ياسين أفندى الخالدى. ١٢ —محمد يوسف أفندى العلمى . ١٣ — سعيد أفندى الحسينى . ١٤ — محمد صالح أفندى الحسينى. ١٥ — فيض الله أفندى العلمى . ١٦ — حسين سليم أفندى الحسينى .

والأول والثانى والخامس والسابع والعاشر والثانى عشر والرابع عشر عينوا من لدن المتصرف تعييناً ، وأداروا البلدية بالوكالة . وأما الآخرون ، وهم الذين أشرت إليهم بخط تحت أسمائهم ، فقد انتخبوا انتخاباً .

وفى أثناء الحرب الكونية الأولى (١٩١٤ — ١٩١٧ م) منح المتصرفون حق انتخاب الرئيس ، لا من غير الأعضاء فحسب، بل ومن خارج فلسطين إذا

اقتضى الأمر . وإليك أسماء الأشخاص الذين انتدبوا للرياسة خلال تلك الحقبة من الزمن :

١ـ شاكر بك أرطغرل ٢ـ جميل بك الحلبي ٣ـ ضياء الدين بك ٤ـ صادق بك ٥ ـ عارف باشا الدجاني ٦ ـ أحمد عارف الحسيني ٧ـ إسحق أفندى الشهابي ٨ ـ حسين سليم أفندى الحسيني .

وكانت ميزانية البلدية فى أوائل عهد تنظيمها (١٨٦٣ م) ضئيلة لا تجاوز الخمسمئة ليرة. ثم ارتفعت فبلغت عند إعلان الدستور (١٩٠٨ م) عشرة آلاف ليرة . ووصلت فى أوائل الحرب الكونية الأولى (١٩١٤م) إلى أحد عشر ألفاً . وكانت عند الاحتلال البريطانى خمسة عشر ألفاً .

وسار البريطانيون ، بعد الاحتلال ، على الخطة التى سار عليها الأتراك فى أواخر عهدهم . فراح دافعو الضرائب من الأهلين ينتخبون ممثلهم فى المجلس البلدى . وكان عدد الأعضاء أربعة من العرب واثنين من اليهود . وراحت الحكومة تختار من هؤلاء الأعضاء رئيساً . وكان هذا مسلماً على الدوام . فتولى الرياسة فى بادىء الأمر حسين سليم أفندى الحسينى ، ثم تولاها موسى كاظم باشا الحسيني ، فراغب بك النشاشيبي .

وفى سنة ١٩٢٦ م . سنت الحكومة قانوناً للبلديات فجعلت عدد الأعضاء اثنى عشر . وجرى الانتخاب بموجب ذلك القانون فى ١١ نيسان ١٩٢٧ . فانتخب الأشخاص الآتية أسماؤهم : راغب النشاشيبي ،زكى نسيبة ، سعدالدين الخليلى ، جمال الحسيني ، الدكتور حسام الدين أبو السعود (عن المسلمين) .

يعقوب فراج ، فرنسيس بطاطو ، نخله كتن (عن المسيحيين) . حايم سلامون ، إسحق بن زفى ، إسحق الياشار ، إلياهو شماع (عن اليهود) . واختارت الحكومة من بين هؤلاء راغب النشاشيبي رئيساً .

وعدل القانون عام ١٩٣٤ . فجرت الانتخابات على طريقة تمثيل المناطق ، وقسمت المدينة إلى اثنتى عشرة منطقة انتخابية . وكان عدد الناخبين الذين سجلت أسماؤهم كما يلى :

عدد الناخبين		عدد الممثلين
٢٨٢٥	من المسلمين	٤
١٥٨٦	من المسيحيين	٢
٤٣٩٢	من اليهود	٦
		١٢

وخول المندوب حق تعيين ما لا يزيد على اثنين فى المجلس البلدى ، بالإضافة إلى الأعضاء المنتخبين . وأسفرت الانتخابات عن فوز الأشخاص الآتية أسماؤهم :

الدكتور حسين فخرى الخالدى ، سعد الدين الخليلى ، حسن صدقى الدجانى ، إبراهيم درويش (عن المسلمين) .

يعقوب فراج ، أنسطاس حنانيا (عن المسيحيين) .

دانيال أوستر ، حايم سلامون ، شموئيل عدن ، أبراهام المالح ، يوسف حاخام شويلى ، إسحق بن زفى (عن اليهود) . فانتدب الدكتور حسين الخالدى رئيساً ، وكل من دانيال أوستر (عن اليهود) ويعقوب فراج (عن المسيحيين) نائباً للرئيس . فاهتم هذا المجلس بالمدينة القديمة ، ورصف معظم شوارعها بالأسفلت .

وارتفعت أرقام الميزانية من ١٤٦,٤٣٦ جنيهاً فى عام ١٩٣٥ إلى ١٩٠,٨٦٩ فى عام ١٩٣٧ . هذا من حيث الواردات . وأما من حيث النفقات فقد ارتفعت من ١٠٩,٣٧٢ فى عام ١٩٣٥ إلى ١٥٤,٣٦٧ فى عام ١٩٣٧ .

ولما اعتقلت الحكومة الرئيس الدكتور الخالدى بسبب نزعته الوطنية ، ونفته مع من نفتهم من زعماء البلاد ، إلى جزيرة سيشل (١٩٣٧ م) . عهدت بالرياسة

إلى مصطفى بك الخالدى . ولما توفى هذا سنة ١٩٤٤ تسلمها بالوكالة العضو اليهودى الآدون دانيال أوستر . فما كان من الأعضاء العرب إلا أن استقالوا . إذ لم يسبق للمجلس البلدى فى القدس أن ترأسه يهودى . عندئذ ألغت الحكومة المجلس ، وعينت (فى ١١ تموز ١٩٤٥) لجنة بلدية رئيسها وجميع أعضائها من الإنجليز . وهم :

المستر ولستر	— المدير العام لمصلحة البرق والبريد	(رئيساً)
الدكتور مكوين	— المدير العام لمصلحة الصحة	
المستر فروك	— نائب مدير الأشغال العامة	أعضاء
المستر هيلتون	— نائب حاكم لواء القدس	
المستر ديوبس	— مساعد السكرتير العام	

وكانت المبالغ التى حصلتها بلدية القدس عن طريق الضرائب والرخص والخدمات المتنوعة التى قامت بها خلال السنة المنتهية فى ٣١ آذار ١٩٤٦ كما يلى :

	جنيه فلسطينى	النسبة المئوية
أثمان المياه	١٤٠,٨٠٥	٪ ٢٧,٠٢
ضريبة الأملاك	١٣٣,٤٢٥	٪ ٢٥,٦١
أمانات واردة وسلفات مستردة	٨٤,٢٨٥	٪ ١٦,١٧
مساعدات حكومية	٤٠,٠٠٠	٪ ٧,٦٨
رسوم ورخص	٢٩,٣١٥	٪ ٥,٨٠
خدمات صحية (رسوم ذبح الحيوانات وتفريغ المراحيض)	٢٦,٤١٠	٪ ٥,٠٧
متفرقة	١٦,٦٣٥	٪ ٣,١٩
رخص الحرف والمهن	٢٠,٠٧٥	٪ ٣,٨٥

	جنيه فلسطيني	النسبة المئوية
ضريبة المعارف	١١,٥٨٥	٢,٢٣ ٪
ضريبة المجارى	٦,٦٤٥	١,٢٨ ٪
مجارى القدس	٥,٨٤٥	١,١٢ ٪
إجارات أملاك البلدية	٤,٠٢٠	٠,٧٧ ٪
فوائد	١,٠٧٥	٠,٢١ ٪
	٥٢٠,١٢٠	١٠٠ ٪

وأما المبالغ التى تكبدتها البلدية لقاء رواتب الموظفين ونفقات الإنشاء والتعمير فقد بلغت ، خلال السنة نفسها ، ٤٧٥,٩٢٠ جنيهاً فلسطينياً .

القدس من الناحية الإدارية

القدس من أكبر المدن الفلسطينية وأكثرها أهمية . إنها من الناحية الإدارية ليست مركزاً للواء الأول المعروف بلواء القدس فحسب . بل هى عاصمة فلسطين بأجمعها . وفلسطين واقعة تحت الانتداب البريطانى . يديرها مندوب سام[1] أقامته بريطانيا بوصفها الدولة التى انتدبتها عصبة الأمم لإدارة البلاد . ويساعده فى إدارته مجلسان : مجلس استشارى ، وآخر تنفيذى . فالمجلس الاستشارى مؤلف من المندوب السامى (رئيساً) والسكرتير العام ، والنائب العام ، والسكرتير المالى ، ومدير البوليس ، ومدير الصحة ، ومدير الأشغال ، ومدير المعارف ، ومدير الزراعة ومصايد الأسماك ، ومدير الجمارك والتجارة والمكوس ، ومدير السكك الحديدية ، وحكام الألوية ، ومدير البرق والبريد ، ومفوض

---

(١) ذكرنا فى غير هذا الموضع من الكتاب أسماء جميع المندوبين الذين تولوا حكم فلسطين فى عهد الانتداب ، وأهم الحوادث التى وقعت على عهد كل واحد منهم .

مصلحة الإحصاء والمهاجرة ، ومدير تسجيل الأراضى ، والمستشار الاقتصادى ، ومدير مصلحة العمل (أعضاء) .

وأما المجلس التنفيذى فمؤلف من المندوب السامى (رئيساً) والسكرتير العام ، والنائب العام ، والسكرتير المالى ، وحاكم لواء القدس فقط (أعضاء) .

والقدس كما قلنا مركز للواء الذى يحمل نفس الاسم : لواء القدس . وهو مؤلف من أربعة أقضية هى : (١) القدس (٢) بيت لحم — أريحا (٣) خليل الرحمن (٤) رام الله .

أما قضاء القدس فيتبعه ٦٦ قرية هى : أبو ديس . أم طوبا . بتير ، بيت دقو . بيت حنينا . بيت أجزا . بيت أكسا . بيت عنان . بيت جمال . بيت محسير . بيت نقوبا . بيت صفافا . بيت سوريك . بيت ثول . بيت أم الميس . بدو . بيرنبالا . البريج . جبعة . جريش الجيب . الجديرة . الجورة . حزما . خربة اسم الله . خربة العمور . خربة اللوز . دير أبان . دير الشيخ . دير رافات . دير يسن . دير عمرو . رافات . الرام . ساريس . سلوان . شرفات . شعفاط . أشوع . صاطاف . صوبا . صرعة . صورياهر . الطور . عسلين . العيزرية . العيسوية . عين كارم . عين رافا . عرطوف . عقور . لفتا . عناتا . العنب . قالونيا . قطنة . قلندية . القسطل . القبيبة . كسلا . كفر عقب . المالحة . مخماس . النبى صموئيل . نطاف . الولجة .

وهناك عشيرة واحدة هى : السواحرة . وثمانى مستعمرات يهودية هى : موتزا الفوقا . موتزا التحتا . رامات راحيل . معلى . قريات عنافيم . نبى يعقوب . عطاروت . هارطوف . وتشغل هذه القرى والمستعمرات مساحة قدرها ٥٥٨,٦٤٧ دونمـــاً .

وأما قضاء بيت لحم — أريحا . ففيه أربع نواح هى : بيت لحم . بيت جالا . بيت ساحور . أريحا . وست عشرة قرية هى : أرطاس . بيت فجار . بيت

عطاب . البحر الميت . الخضر . حسان . راس أبو عمار . دير الهوى . السفلى . علار . العوجا . القبو . المغطس . نحالين . النويعمة . وادى فوكين .

وهناك سبع عشائر هي :— الرشايدة .العبيدية .التعامرة .الديوك . العريقات . السعايدة . النصيرات . وأربع مستعمرات يهودية هى : كوتسات هاهوكيم . كفار عصيون . ماسوت . كاليا .

وأما قضاء الخليل فيتبعه ٣٥ قرية هي : أدنا . بيت جبرين . بيت نتيف بيت كاحل . بيت أولا . بيت أومر . برقوسيا . بنى نعيم . تفوح . ترقوميا . تل الصافى . جبعة . حلحول . خاراس . دير الدبان . دير نحاس . الدوايمة . دورة . رعنا . الريحية . زكريا . زكرين . زيتا . سعير . سنابرة وأم برج . السموع . الشيوخ . صوريف . الظاهرية . عجور . القبيبة . كدنا . مغلس . نوبا . يطا .

وهناك ثلاث عشائر هي : الجهالين الزويديون. الجهالين الفرحات. الصرايعة .

وأما قضاء رام الله فيتألف من مدينتين هما :— رام الله والبيرة . ومن ٥٨ قرية هى : أبلو شخيدم . أبو قش . أم صفا . برقا . بيتين . بير زيت . برهام. بيت ريما . بيتللو . بيت عور الفوقا . بيت عور التحتا . بيت سيرا . بيت لقيا . بيتونيا . ترمسعيا . جفنا . جمالا . الجانية . جلجليا . جيبيا . خربة أبو فلاح . خربتا المصباح . دورا القرع . دير دبوان . دير بزيع . دير جرير . دير عمار . دير أبو مشعل . دير نظام . دير السودان . دير غسانة . رأس كركر . رمون . سلواد . سنجل . سردة . صفا . الطيبة . الطيرة . عبوين . عين سينيا . عارورة . عجول . عين قينيا . عير عريك . عابود . عين يبرود . عطارة . قراوة . كفر نعمة . كفر مالك . كفر عين . كوبر . المزرعة القبلية . المزرعة الشرقية . مزارع النوباني . النبي صالح . يبرود .

وليس فى قضاء رام الله عشائر بدوية ، ولا مستعمرات يهودية .

وفى القدس اليوم (١٩٤٧ م) عشرة آلاف موظف بين كبير وصغير ومن جميع الأجناس والأديان. بعضهم مسؤول عن إدارة فلسطين كلها. والبعض الآخر عن إدارة قطاع القدس فقط.

قوات الأمن فيها

وفى قطاع القدس قوة كبيرة من البوليس لحفظ الأمن. فى المدينة، مثلا، ثمانية مراكز للبوليس؛ فيها بن الضباط وافراد الشرطه ما نكتبه فى البيان التالى:

عدد المراكز	اسم المركز	عدد أفراد الشرطه				عدد الضباط			
		إنجليز	عرب	يهود	مجموع	إنجليز	عرب	يهود	مجموع
١	قشلاق باب الخليل	٤٠	٨٠	—	١٢٠	١	١	—	٢
٢	حارة اليهود	—	—	٢٥	٢٥	—	—	١	١
٣	الحرم	—	٦	—	٦	—	١	—	١
٤	مياشوريم	٧٠	١٢	٢٥	١٠٧	١	١	—	٢
٥	محنة يهودا	٨٠	٩٥	٦٠	٢٣٥	١	—	١	٢
٦	كولونية الألمان	٥٠	٣٣٠	١٣	٣٩٣	١	١	—	٢
٧	أنجلو بالستين	٢٥٠	٢٢٥	٩٣	٥٦٨	١	١	—	٢
٨	المركز	—	—	—	—	٨	—	—	٨
		٤٩٠	٧٤٨	٢١٦	١٤٥٤	١٣	٥	٢	٢٠

وعلى رأس هذه القوة نائب لمدير البوليس العام يحمل تاجاً، وهو إنجليزى. وخمسة مساعدين للنائب بثلاث نجوم. وهؤلاء أيضاً إنجليز، ومفتشان أولان بنجمة واحدة هما أيضاً إنجليز. وبلغت نفقات قوة البوليس فى مدينة القدس فى آخر سنة من سنوات الاحتلال (١٩٤٧ م) ٩٦,١٥٠ جنيهاً فلسطينياً.

وأما فى الأقضية التالية لقطاع القدس . فإليك مجموع الأفراد والضباط فى كل منها :

	أفراد	ضباط
بيت لحم وقراها	٢٥٨	٨
أريحا وقراها	١٦١	٢
الخليل وقراها	١٢٦	٨
رام الله وقراها	١٩١	٣

وبلغت نفقات البوليس فى لواء القدس كله وفى آخر سنة من سنوات الاحتلال (١٩٤٧ م) ٤٩٨,٦٢٠ جنيهاً فلسطينياً . وعلى رأس هذه القوة مدير إنجليزى . يتبع فى أعماله الأوامر التى يتلقاها من مدير الأمن العام .

وهناك فى القدس سجن للرجال ، يعمل فيه مئة وعشرة من رجال البوليس ؛ خمسة منهم ضباط (ثلاثة إنجليز وعربيان) ، ومئة وخمسة أنفار برتب مختلفة :

خمسة عشر منهم إنجليز ، وسبعون عربيا ، وعشرون يهوديا . وأما سجن النساء فإنه فى بيت لحم . فيه واحد وأربعون سجاناً وسجانة : خمسة إنجليز ، والباقون عرب .

والمقر العام لقوة البوليس الفلسطينية فى عمارة كبيرة من عمارات المسكوبية . تلك العمارات القائمة بين الأحياء العربية واليهودية . يعمل فيه ثمانية مديرون بتاج ونجمة (ستة إنجليز وعربيان) وعشرة نواب للمديرين بتاج (سبعة إنجليز وعربيان ويهودى واحد) وعشرة مساعدون لنواب المديرين بثلاث نجوم (ثمانية إنجليز وعربيان ويهودى واحد) وستة عشر مفتشاً أولا بنجمتين (تسعة إنجليز وخمسة عرب ويهوديان) ومئة وخمسون كاتباً من مختلف الدرجات والرتب (خمسة عشر إنجليز وتسعون عرب وخمسون يهود) .

وعلى رأس هذه القوة مفتش عام للبوليس والسجون بتاج وسيفين هو الكولونيل غرى Colonel Grey .

ولقد بلغت نفقات هذه القوة (أى قوة البوليس فى فلسطين كلها) فى آخر سنة من سنوات الانتداب (١٩٤٧ - ١٩٤٨) ٧,٠١٠,٥٠٨ جنيهات هذا من ميزانية بلغت مجموع نفقاتها فى تلك السنة ٢٤,٦٣٥,٠٦٦ جنيهاً .

وكثيراً ما كان حبل الأمن يضطرب فى القدس ، وفى سائر مدن فلسطين ، بسبب اقتتال العرب واليهود . فتعجز قوات البوليس التى ذكرناها فى الأسطر المتقدمة عن تهدئة الفتنة . وفى مثل تلك الحال كان الجيش البريطانى ينزل إلى الميدان . وكان هذا يرابط فى قشلاق تلافيرا ، فى البقعة الفوقا ، على طريق القدس - بيت لحم .

مستوى المعيشة فيها

من الإنصاف أن نذكر أن سكان القدس بالرغم من اليأس الذى ألمّ بهم بسبب السياسة التى اتبعتها الحكومة طوال عهد الانتداب ، يعيشون فى رغد من العيش . لا بل أستطيع أن أؤكد أن مستوى المعيشة فى القدس أرقى منه فى غيرها من المدن المجاورة العربية . فليس فيها عمال عاطلون عن العمل « تجارة رائجة . . وأعمال متوفرة . . وأموال كثيرة . . ومنازل واسعة . . ورياش فاخرة . . واجتماعات وحفلات وسهرات تنم عن هناء البال » .

ويعتمد أبناء القدس فى معيشتهم على موارد مختلفة . منها وأهمها السياحة ، ورواتب الموظفين ، والمهن الحرة ، ثم تأتى الزراعة ، والتجارة ، ومقالع الحجارة وأعمال البناء . . . .

أما السياحة ، فإنها من أغنى الموارد . إذ يحج إلى القدس فى كل عام عدد كبير من السياح والزائرين . . يفدون إليها من مختلف أنحاء المعمورة . . من الشرق والغرب . . . فيزورون الأماكن المقدسة ويعودون إلى بلادهم . ولقد قدرت الحكومة فى إحصائها الرسمى عدد السياح الذين دخلوا فلسطين فى الأعوام العشرة التى مرت بين ١٩٢٦ و ١٩٣٦ بما يقرب من خمسين ألفاً فى السنة . فإذا ما قدرنا أن جميع هؤلاء السياح يهبطون القدس ، إذ أن الغاية من زيارتهم كما قدمنا زيارة الأماكن المقدسة ، وهذه لا تتحقق إلا بزيارة القدس — وأن معدل ما ينفقه الواحد منهم فى زيارته لهذه المدينة لا يقل عن عشرين جنيهاً ، علمنا أن إيراد القدس من هذا المورد لا يقل عن مليون جنيه فى السنة .

وأما الرواتب التى يتقاضاها الموظفون ، سواء أكان هؤلاء من أبناء القدس أم ممن وفدوا إليها بقصد العمل فى مختلف المصالح التجارية والدواوين الرسمية فإنها مورد غزير لا يستهان به . لا بل إنه قد يفوق الموارد الأخرى . أنه وإن لم تكن لدينا أرقام موثوقة عن الموظفين المستخدمين فى مختلف المصالح التجارية ، إلا أننا نستطيع الجزم — استناداً إلى ما لدينا من أرقام رسمية — أنه يعيش فى القدس فى يومنا هذا (١٩٤٧ م) عشرة آلاف موظف حكومى فى رتب ودرجات مختلفة وأن الأموال التى ينفقها هؤلاء فى المدينة من أجل إعاشتهم وإعاشة عيالهم وملابسهم ومساكنهم من الضخامة بحيث تستحق التدوين .

وأما الزراعة فإنها ليست بذات بال فى المدينة المقدسة . هذه المدينة التى قاست على مر الدهور ، الأمرّين من جراء قلة الماء . وهى تعتمد فى زراعتها على مياه الأمطار . ومع ذلك فإنها اشتهرت بزراعة الزيتون والعنب والتين وما إلى ذلك من الأشجار المثمرة . وكانت هذه الأشجار تزرع فى القدس وما حولها من الأراضى بكثرة . إلا أنها أخذت مع الوقت تتضاءل . فقد جاء فى الإحصاء الرسمى أن مساحة الأراضى المغروسة زيتوناً فى قطاع القدس بلغت (١٩٣٥ م)

٣١,٣٨٨ دونماً ، وأن عدد الأشجار التى غرست فيها ٤٠٨,٠٤٤ شجرة ، وقدر محصول الزيت بـ ٦٦١ طناً .

وأما مساحة الأراضى التى غرست عنباً فى السنة نفسها (١٩٣٥ م) فقد قدرت بـ ٦,٥٧٩ دونماً ، وأنتجت ٣,٩٩٠ طناً من العنب .

وأما الأراضى التى غرست تيناً ، فقد بلغت مساحتها ٣,٦٥٣ دونماً فيها من الأشجار ٥٤,٧٩٥ شجرة ، وكان ناتجها ٦٢٥ طناً .

وأما حركة البناء والعمران فحدث عنها ولا حرج . إنها تدر على القدس أموالا كثيرة . فإن الازدياد المستمر فى عدد السكان جعل حركة البناء أيضاً فى تقدم مستمر . وعادت هذه بالربح الوفير لا على العمال والبنائين فحسب ، بل على تجار الخشب والحديد والأسمنت وسائر مواد البناء ، وعلى أصحاب مقالع الحجارة ، فإن القدس مليئة بهذا النوع من المقالع . ويخرج منها أنواع كثيرة من الحجارة ذات الأنواع والألوان المختلفة . وحجر القدس من أحسن الحجارة وأجملها وأقواها . ولا سيما النوع المعروف بالحجر المزى الصلب ، ومن اللون الأحمر . ويشتغل فى هذه المحاجر عدد كبير من أصحاب الأراضى والعمال الخبيرين فى قلع الأحجار وقطعها وتهذيبها وبنائها ، وجميعهم من العرب. والعامل العربى فى يسر . يتقاضى أجراً لا بأس به إذا ما قيس بالأجور التى يتقاضاها العمال فى البلاد الأخرى . فقد بلغ أجر العامل فى اليوم الواحد ٧٥٠ ملا . وأكثرهم عمال البناء . فواحدهم يتناول جنيهاً واحدا فى اليوم. وأقل العمال أجوراً هم عمال الطرق . فإن الواحد منهم يتقاضى ٢٥٠ ملا . وما كانت القدس تعرف ساعات العمل . لا ، ولا كان فيها قوانين للعمال . وأما اليوم فإن ذلك كله مرتبط بنظام .

والتجارة رائجة . وفى القدس عدد كبير من التجار يملكون ثروات طائلة . وما عرف هؤلاء الركود والإفلاس سوى مرة أو مرتين خلال الثلاثين سنة .

ومع هذا فإن نفقات العيش فى القدس غالية بمقدار ما فيها من حركة ربح. فإن الأسرة الواحدة المؤلفة من خمسة أشخاص (رب بيت وامرأته وأولاده الثلاثة) لا يكفيها من أجل عيشها عيشة شريفة راضية أقل من ثلاثين جنيها فى الشهر.

ذلك لأن مستوى المعيشة قد ارتفع فى السنين الأخيرة ارتفاعاً يلفت الأنظار. وحدث ، منذ الحرب ، تغيير فى ذوق أبناء المدينة من حيث اللباس والطعام والأثاث المنزلى . وهم من الرقى والتمدن على جانب عظيم يقرأون من الكتب والمجلات أكثر بكثير مما يقرؤه أبناء الشرقين — الأوسط والأدنى ، والمتعلمون الذين أرسلهم آباؤهم للدراسة فى جامعات الغرب كثيرون وعددهم ما برح فى ازدياد مستمر.

الباب الثامن

الأماكن المقدسة ودور العبادة

المقدسات اليهودية — المقدسات المسيحية — المقدسات الإسلامية

المقدسات اليهودية

حائط المبكى :

ليس لليهود فى القدس سوى (حائط المبكى) وبضع كنائس حديثة العهد والقبور التى ذكرناها فى غير هذا المكان ، نذكر منها قبر أبشالوم ، وقبر يهو شافاط ، وقبر زكريا ، ويعقوب . وأما المقبرة التى يدفنون فيها اليوم موتاهم ، فإنها وقف إسلامى . إنها واقعة فى الوادى المعروف بوادى قدرون ، ويسميه المقدسيون وادى جهنم . وقد أذن لهم المسلمون باستعمالها لقاء جعل معين يدفعونه فى كل سنة لأصحاب الوقف . ودفعوا فعلا[1] مئتى دينار ذهب عن سنتى ٩٦٨ و ٩٦٩ للهجرة .

وأما حائط المبكى فالاعتقاد سائد أنه بقية من سور أورشليم القديم وأنه الحائط الخارجى للهيكل الذى رممه هيرودس (١١ ق . م) ودمره تيطس (٧٠م) ويقدسه اليهود ، ويزورونه بين كل آونة وأخرى . وكلما زاروه تذكروا مجدهم الضائع . فبكوا . . .

إنه حائط كبير ، مبنى من حجارة ضخمة ، يبلغ طول بعضها ١٦ قدماً . وأما الحائط نفسه فطوله ١٥٦ قدماً ، وارتفاعه ٥٦ قدماً .

وكثيراً ما حدثت اختلافات بين اليهود والمسلمين من أجله . ذلك لأن المسلمين أيضاً يقدسونه . لا ، بل إن تقديس المسلمين له يفوق — إلى حد كبير — تقديس اليهود . إنهم (أى المسلمين) يعتقدون أنه المكان الذى ربط

---

(١) ارجع إلى الصفحة ٥٧٤ من السجل ٤٤ من سجلات المحكمة الشرعية بالقدس .

عنده جبرائيل براق النبي ليلة الإسراء . « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى . . . . »

ومن هنا جاء اسمه الإسلامى (البراق) . وقد كان ، ولا يزال إلى يومنا هذا ، يؤلف جزءاً من الحرم القدسى : أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين .. إنه جداره الغربى(١) .

تشتت اليهود :

قد يتساءل المرء : كيف ؟ وما الذى جرى ؟ ولماذا لا نرى لليهود فى القدس مقدسات كثيرة ؟ وهم القائلون إنها مدينة يهودية الأصل(٢) ، وإن صلتهم بها لم تنقطع على مر الدهور . فإنا إذا ما أعدنا نظرنا إلى تاريخهم القديم علمنا السبب .

فقد تشتت اليهود تحت كل كوكب بعد أن ضربهم الرومان هاتين الضربتين الأولى على يد تيطس (٧٠ م) يوم احتل هذا أورشليم بعد أن ذاقت من جراء حصاره الأمرين . والثانية على عهد أدريانوس (١٣٥ م) يوم دكها دكاً . وجعل عاليها سافلها . وقتل منهم خمسمئة وثمانين ألفاً . ومن لم يمت منهم طرد من المدينة وحظر عليه الرجوع إليها . فحقت عليهم نبوءة أرميا النبي إذ قال : « الذين للموت فإلى الموت . والذين للسيف فإلى السيف . والذين للجوع فإلى الجوع ، والذين للسبي فإلى السبي » .

ولم نعد نسمع عن يهود القدس شيئاً قروناً عديدة . حتى إن السائح اليهودى

---

(١) اقرأ ما كتبناه عن الخلافات التى قامت بين المسلمين واليهود حول البراق فى الفصل الذى خصصناه للقدس فى عهد الانتداب البريطانى .

(٢) اقرأ ما كتبناه عن بناتها الأولين فى الفصل الذى خصصناه للقدس فى عهد اليبوسيين .

(بتاحيا) الذى زار القدس خلال القرن الثانى عشر للميلاد لم يجد فيها سوى يهودى واحد .

والسائح اليهودى (موسى بن نحمان جيروندى) الذى هبطها بعد ذلك بقرن واحد لم يجد فيها سوى عائلتين يهوديتين .

وأحصى يهود القدس سنة ١٥٧٢ م ، فثبت لمجلس الشرع الشريف أنه كان يعيش فيها يومئذ ١١٥ نفراً : منهم ٥٥ فى جهة الحرم والباقى وقدرهم ٦٠ فى غيرها من الجهات . وقرأت أسماءهم فى السجل ٥٥ الصفحة ٢٠٧ من سجلات المحكمة الشرعية فى القدس . وكان هؤلاء يعيشون عيشة الفقر والذل والحرمان . حتى إنهم عجزوا عن دفع دينهم الذى بلغ عام ١٦٦٢ م ألف قرش أسدى . فأمر قاضى المسلمين بتأجيل الدفع سنة كاملة ، ورضى الدائنون وهم من المسلمين بهذا التأجيل ، على شريطة أن يضع اليهود بيدهم رهناً . فرهنوا كنيسهم الكبير الكائن بحوش السيرجانى بحارة اليهود .

ونرى بعد ذلك بست سنين (١٦٨٨ م) أن عدد اليهود لم يكن سوى مئة وخمسين .

المسألة الشرقية وبعث فكرة إسرائيل :

وهكذا ظل اليهود قلة فى القدس ، ولا شأن لهم يذكر ، إلى أن جاء القرن التاسع عشر . ووضعت المسألة الشرقية على بساط البحث . ففكر (١٨٣٠ م) فريق من رجال السياسة فى إنجلترة وعلى رأسهم اللورد بالمرستون وبيكونسفيلد ، فى إنشاء دولة إسرائيلية فى فلسطين ، تحميها بريطانيا ، وتؤمن طريق الهند .

وأذكت هذه النظرية أحلام اليهود . فراحوا يحاولون امتلاك الأراضى فى القدس وفى فلسطين . ولكن سكان البلاد عارضوا فى ذلك وأيدتهم السلطة .

ولقد اطلعنا فى فصل الأوراق السياسية لسنة ١٢٥٣ هـ (١٨٣٧ م) من مجموعة الأصول العربية لتاريخ سورية فى عهد محمد على باشا للأستاذ أسد رستم على قرار أصدره مجلس الإدارة فى القدس يمنع اليهود من شراء الأراضى وتملكها . وجاء الأمر من مصر إلى متسلم القدس مؤيداً لذلك القرار .

وأصدرت الحكومة التركية ، عام ١٨٨٢ م ، قانوناً حرمت فيه الهجرة اليهودية وشراء الأراضى . إلا أنها عادت فعدلته بفضل تدخل ستراوس الوزير الأميركى المفوض فى إستانبول . ومنحت اليهود حق الدخول إلى فلسطين والبقاء فيها ثلاثة أشهر بقصد العبادة . وهنا تلعب الرشوة دورها . فيدخل البلاد عدد غير قليل من اليهود ويبقون فيها . فما يكاد القرن التاسع عشر يقترب من نهايته حتى نرى لليهود فى القدس ست كنائس : اثنتان منها لليهود الاشكنازيم ويسميهم المقدسيون (السكناج) وهم من روسيا وبولونيا وسائر أنحاء أوربا الشرقية ؛ وثلاث للسفراديم ، وهم من أسبانيا والبرتغال ؛ وواحدة للقرائين . وأربع مدارس هى : (الأليانس) الزراعية و (مدرسة الأيتام) و (المدرسة العمومية) و (إيفلين روتشيلد) ، وهذه الأخيرة للبنات . وثلاثة مستشفيات هى : مستشفى ولخ ، ومستشفى روتشيلد ، ومستشفى ميكورخوليم .

الحركة الصهيونية :

وفى تلك الحقبة من الدهر وضعت النواة الأولى للحركة اليهودية التى عرفت بعدئذ بالصهيونية .

وجاء بعد قليل الدكتور تيودور هرتسل ، من يهود النمسا ، فقلبها من حركة ثقافية دينية إلى حركة سياسية (١٨٩٧ م) . وأنشأ جمعية أسماها (الجمعية الصهيونية) .

ولما أعلنت الحرب الكونية الأولى (١٩١٤) راح الأتراك يطاردون الصهيونيين وأصدر جمال باشا بوصفه القائد الأعلى للجيش الرابع المرابط فى فلسطين أمراً منع فيه رفع العلم الصهيونى فى أى أرض تقع تحت حكمه . كما منع رفع أى لافتة تكتب باللغة العبرية . وصادر جميع الطوابع والأوراق المالية التى تخص الحركة الصهيونية . وألغى جميع المؤسسات اليهودية التى تكونت فى فلسطين بعد أن دخلتها خفية . وجاء فى البيان الذى صدر يومئذ (٢٥ كانون الثانى ١٩١٥) أن الحكومة فعلت ذلك بناء على ما لديها من معلومات تثبت أن بعض العناصر تتآمر باسم الصهيونية لإقامة مملكة يهودية فى فلسطين .

وعد بلفور :

ولقد تزعم الحركة الصهيونية بعد موت هرتسل الدكتور حاييم وايزمن . ولهذا يعود الفضل الأكبر فى الحصول على وعد بلفور . . . وزير خارجية بريطانيا . . ذلك الوعد الذى ذكرناه وما أحدثه من قلاقل وثورات فى القدس وفى سائر أنحاء فلسطين فى موضع آخر من هذا الكتاب ، فليرجع إليه من شاء . ونكتفى بالإشارة هنا إلى أن عدد اليهود فى القدس أصبح فى نهاية عهد الانتداب مئة ألف ، وفى فلسطين كلها ستمئة ألف ، وأن هذا العدد الذى دخل بفضل الحراب الإنجليزية لم يجد أمامه من ذكريات الماضى سوى (حائط المبكى) . والمقابر الآتى ذكرها .

المقابر اليهودية :

لليهود مقبرة واحدة تقع شرقى السور ، فى الوادى المعروف بوادى قدرون ،

ويسميه العرب وادى جهنم . وتمتد هذه المقبرة من الوادى المذكور حتى رأس العمود والسنح القبلى من جبل الزيتون . وفيها أربعة قبور يقصدها اليهود فى أيام معينة ، هى :

(قبر أبشالوم) الابن الثالث لداود الملك ؛ ذلك الابن الذى ثار على أبيه ، وحاول إسقاطه عن عرشه . ويعتقد قوندر أن الكسندريانوس مدفون فيه . إنه بناء فخم مربع الشكل ، فى كل ركن من أركانه الأربعة أربعة أعمدة يعلوه إفريز يونانى . وفوقه قبة هرمية الشكل . يسميه المقدسيون (طنطور فرعون) .

(قبر يهوشافاط) لم يجزم المؤرخون فى معرفة أسماء المدفونين فيه . وإن قال بعضهم إن يهوشافاط مدفون فيه . وقال آخرون إنه دفن فى نفس الموقع الذى دفن فيه داود على جبل صهيون .

(قبر يعقوب) مدفن إسرائيلى ضخم . يعتقد المسيحيون أن القديس يعقوب ، أحد الرسل الاثنى عشر ، قد توارى فيه بعد صلب المسيح .

(قبر النبى زكريا) ينسبه اليهود إلى زكريا بن يهوياراع . ويقول بعضهم إنه قبر حفيده الذى كان كاهناً فى أيام أحاذيا ويهواش . وقد مات رجماً بالحجارة بأمر من الملك .

المقدسات المسيحية

قلنا فى غير هذا الموضع من الكتاب أن عدد المسيحيين فى بيت المقدس بلغ عام ١٩٤٤ ثمانية وعشرين ألفاً ومئة وستة وأربعين شخصاً . ونود الآن أن نقول إن هؤلاء منقسمون إلى طوائف وشيع ومذاهب ، حتى وأجناس مختلفة . ولكل طائفة من هذه الطوائف معابدها ومؤسساتها الدينية والاجتماعية . ولها كلها مجتمعة ، خلا طائفة البروتستانت ، كنيسة القيامة . فلنبدأ الآن بذكر المؤسسات التى تملكها كل طائفة . ثم نختمها بذكر الكنيسة التى يقدسها الجميع ، وما دار حولها من اختلافات دينية على مر الدهور .

الروم الأرثوذكس :

دياراتهم كثيرة نذكر منها :

(دير أبينا إبراهيم) فى ساحة كنيسة القيامة ، فى الناحية الشرقية إلى الجنوب . عمرته الملكة هيلانة حوالى سنة ٣٣٥ م . وخربه الفرس ٦١٤ م . وظل موضعه خراباً إلى أن أخذه الروس من الأتراك (١٨٨٧ م) . فأعطوا قسما منه للروم حيث بنوا ديرهم هذا . وبنوا على القسم الآخر ديرهم القريب من باب خان الزيت والمعروف بـ (المسكوبية) .

فيه اليوم كنيستان : إحداهما صغيرة باسم (أبينا إبراهيم) . والأخرى كبيرة باسم (الرسل الأثنى عشر) .

(دير مار يوحنا المعمدان) بين سويقة علون والشارع المؤدى إلى حارة

النصارى . فيه كنيستان : واحدة تحت الأرض . . طرازها بيزنطى . . بنيت سنة ٤٥٠ م . والأخرى فوقها بنيت عام ١٠٤٨ . وعندها ما احتل الصليبيون القدس اتخذوا الدير والكنيستين مستشفى ومقراً لفرسان مار يوحنا (١٠٩٩ م) . وعند ما استرد صلاح الدين القدس أعاد البناء مع ما أعاده من الأبنية الأخرى إلى الروم (١١٨٧ م) .

(كنيسة ستنا مريم) فى وادى قدرون عند ملتقى الطرق المؤدية إلى باب الأسباط وسلوان وجبل الطور . بناها ماركيانوس إمبراطور بيزنطية (٤٥٠ — ٤٥٧ م) . فيها قبور يواكيم وحنة والدى مريم البتول ، وقبر مريم نفسها ويوسف النجار . إنها للروم والأمن . وفيها حجرة يصلى فيها الأقباط والسريان .

(دير مارسابا) على مقربة من سلوان . بناه[1] القديس سابا حوالى ٤٨٤م. فيه كنيسة أنشئت عام ٥٠٢ م . وعمارات أضيفت إليه على عهد الإمبراطور جوستانيان (٥٢٧ — ٥٦٥ م) . وفيه مكتبة فيها ثلاثة آلاف مجلد . ولا يجوز دخول النساء لهذا الدير عملا بوصية القديس سابا الذى لم يسمح حتى لأمه بدخوله .

(دير العذراء) ويسمونه ديرستنا مريم . واقع إلى الجنوب من كنيسة القيامة بينها وبين المسجد العمرى . إنه دير بيزنطى قديم . بنى فى عهد البطريرك إلياس الأول (٤٩٤ م) .

(الدير الكبير) ويعرف بدير قسطنطين . يسميه اليونان (كندركسون مناستريون) أى الدير المركزى. واقع إلى الجنوب من بطريركية الروم فى حارة النصارى . بناه البطريرك إلياس الأول (إيليا) الذى تولى شؤون البطريركية سنة ٤٩٤ ميلادية . ويعتبر اليوم قاعدة أديار الروم فى فلسطين . فيه ثلاث

(١) (كلام فى وصف الأرض المقدسة) لمؤلفه باسيلى نقولا ختروفو. عربه عن الروسية حنا عيسى .

كنائس(١) كنيسة القديسة هيلانة (٢) كنيسة القديسة تقلا (٣) كنيسة مار يعقوب . وفى هذه الكنيسة معبدان صغيران : — واحد باسم (الشهداء الأربعين) والثانى باسم (حاملات الطيب) .

(دير القديس تيؤدوسيوس) أنشئ فى نفس التاريخ الذى أنشئ فيه دير مارسابا (٤٨٤ م) . واقع بين بيت لحم ومارسابا . ويسميه العرب دير ابن عبيد. لأنه كائن فى المنطقة التى تعيش فيها عشيرة العبيديين . ذكره ابن البطريق فقال إنه دير الدواكس . وكان به مود سطس الراهب الذى عمر كنيسة القيامة بعد أن دمرها الفرس .

(دير المصلبة) فى ظاهر القدس إلى الغرب . إنه دير قديم . أنشأه[1]. الأمير ماريام الكرجى أيام الملك قسطنطين حوالى سنة ٣٣٠ للميلاد وفى قول آخر إن الذى بناه هو الإمبراطور يوستنيانوس وأن ذلك جرى بين عامى ٥٢٧ و ٥٦٥ للميلاد .

(دير البنات) مجاور لخان الأقباط من ناحية الشمال . بناه البطريرك إلياس (٥٩٤ م) . فيه كنيستان : إحداهما أرضية باسم (القديسة ميلانيا) . والأخرى فوقها باسم (مريم الكبيرة) أو (العذراء البكر) .

(دير مار إلياس) قبلى القدس ، على طريق بيت لحم . إنه دير قديم . أنشأه هرقل الملك خلال القرن السابع للميلاد (٦١٠م) فهدمه الفرس (٦١٤م). وأعيد بناؤه سنة ١١٦٥ م من لدن عمانوئيل قومنينوس . وتجدد فى زمن البطريرك ذوستيوس سنة ١٦٧٨ م .

(دير الخليل) فوق جبل الطور . فيه كنيسة قديمة يسميها الروم (غاليليا) والمقدسيون (إليليا) . يعتقد المسيحيون أن السيد المسيح ظهر لتلاميذه بعد

---

(١) هذا ما قاله المؤرخ اليونانى بنيامين يواتيدس فى الصفحة ٢٦٤ من كتابه الذى طبعه فى مطبعة دير الروم بالقدس سنة ١٨٧٧ م .

قيامه لأول مرة فى هذا المكان . وقد بنوا فى الموضع نفسه كنيسة أسموها (العذراء).

(دير القطمون) فى الحى المعروف بالقطمون غربى القدس . كان بيد الكرج ، ثم صار إلى الروم . فيه كنيسة وفى داخل الكنيسة قبر القديس سمعان . وكانوا يسمونه (دير سمعان) . إنه مقر الكرسى البطريركى فى فصل الصيف . وكان الروم يُنزلون فيه الحكام والمتصرفين . وهناك ديارات أخرى صغيرة نذكر منها : (حبس المسيح) على طريق الآلام . و (دير مار خرالامبوس) بعيد الخانقاه الصلاحية من الجهة الشرقية . و (دير السيدة) على مقربة من الخانقاه المتقدم ذكرها . و (دير مار افتيموس) وهو ملاصق لدير السيدة من الشمال . و (دير العدس) ويسمونه دير مار نيكوديمس ، فوق حبس المسيح فى حارة السعدية . و (دير صهيون) على جبل صهيون . و (دير مار جرجس) وهو ملاصق لدير اللاتين من الشرق . وهناك دير آخر بهذا الاسم إلى الشرق من دير الأرمن . و (دير مار ميخائيل) مجاور لبطريركية الروم من الشمال . و (دير القديسة كاترين) فى حارة النصارى بين الخانقاه الصلاحية ودير اللاتين. و (دير مار سبيريدون) فى حارة الحدادين . و (دير مار ديمترى) فى حارة النصارى على طريق الكازانوفا . و (دير مار نقولا) غرب البطريركية . و (دير مار تادرس) بجانب الدار الجديدة المعروفة بالكازانوفا . و (دير القديس أنوفريوس) فى الوادى الكائن بين جبل صهيون وجبل أبى ثور . و (دير أبى ثور) على جبل المكبر . و (دير العازر) فى العيزرية على مقربة من القدس إلى الشرق .

وللروم الأرثوذكس بطريرك هو اليوم (تيوئيوس) وتولى البطريركية قبله خمسة وتسعون بطريركاً . أولهم الأسقف (يوفيناليوس) وهو أول من سمى بطريركاً لأورشليم . وقد تم ذلك سنة ٤٥١ ميلادية . وهو الذى أقر الاحتفاء بعيد الميلاد فى اليوم الخامس والعشرين من شهر كانون الأول (ديسمبر) .

ومن بطاركة الروم الذين اشتهروا فى عهدهم البطريرك إلياس (إليا) ٤٩٤ م ، وكان هذا عربي الأصل من نجد . وله آثار فى القدس منها دير قسطنطين . ومنهم صفرونيوس الأول (٦٣٤ م) . وعلى عهده فتح المسلمون بيت المقدس . وصفرونيوس هذا عربى الأصل ، وإن كان اسمه يونانياً (معناه العفيف أو ذو العقل السليم) ذلك لأن البطاركة درجوا على عادة تسميتهم بالأسماء اليونانية .

وعندما احتل الصليبيون البلاد (١٠٩٩ م) ، ساد فيها حكم الكنيسة الغربية (اللاتين) بدلا من الكنيسة الشرقية (الروم) . وعند ما انهزم الصليبيون على يد صلاح الدين تنفس الروم الصعداء . وكان جميع البطاركة الأورشليميين (ومن سنة ١٢٩١ إلى سنة ١٥٣٤) عرباً أى أن الأساقفة العرب انفردوا فى فى إدارة شؤون الكنيسة الأورشليمية مدة ٢٣٤ سنة .

وعلى عهد البطريرك داميانوس الأول (١٨٩٧ م) اشتد الخلاف بين طائفة الروم من أبناء البلاد ورجال الإكليروس اليونانيين . وقد حاول أبناء البلاد ولا يزالون يحاولون التخلص من سيطرة رجال الدين الأجانب . مما قد فصلناه فى كتابنا المفصل عن (تاريخ القدس) فليرجع إليه من شاء .

الروم الكاثوليك :

فى القدس أبرشية للروم الكاثوليك ، أنشأها البطريرك مكسيموس مظلوم سنة ١٨٤٨ م . تقوم هذه الأبرشية فى يومنا هذا فى حارة الموارنة . وفيها نائب بطريركى هو الارشمندريت جبرائيل أبو سعدى . يرجع فى أموره إلى بطريرك الروم الكاثوليك فى دمشق .

وللروم الكاثوليك فى القدس كنائس وأديرة نذكر منها :

١ (كنيسة القديسة حنة) بين باب حطة وباب الأسباط ، إلى الشمال من الحرم القدسى . هنا ، كما يعتقد المسيحيون ، أنه كان فيما فرط من الأيام مسكن يواكيم وحنة والدى مريم البتول . وفى هذا المكان بركت الغنم حيث أتى السيد المسيح بإحدى معجزاته . وفيه بنى فى القرن الرابع للميلاد معبد كما بنيت كنيسة باسم مريم البتول فى سنة ٥٣٠ م . ويظهر أن هذه الكنيسة احترقت مع ما احترق من كنائس النصارى على يد الفرس عام ٦١٤ م فأعاد الصليبيون بناءها عند ما فتحوا القدس ١٠٩٩ م . وكانت تدعى كنيسة القديسة حنة . وجعل صلاح الدين هذه الكنيسة رباطاً للصالحين ومدرسة للفقهاء الشافعيين سنة ١١٧٨ م . وكانت هذه تعرف فيما مضى بـ (صند حنة) وسميت بعد الفتح الصلاحى بالصلاحية . وحدث زلزال خلال المدة الواقعة بين ١٨٢١ و ١٨٤٢م. هدمت على إثره جدران الدير . فنقلت الحكومة العثمانية حجارته وبنت بها الثكنة العسكرية المجاورة لها .

وعندما انتهت حرب القرم بانتصار تركيا (١٨٥٥ م) سلم السلطان عبد المجيد هذا المكان إلى نابليون الثالث اعترافاً بخدمته . ذلك لأن فرنسا عاضدت تركيا فى حربها مع الروس . وسلمه المتصرف كامل باشا إلى الفرنسيين (١٨٥٦م) فأنشئت فيه مدرسة (١٨٧٨ م) . وانقلبت هذه إلى كلية إكليركية (١٨٨٢ م) وفى الحرب الكونية الأولى (١٩١٤ م) احتلها الجيش التركى ، وحولها القائد التركى جمال باشا إلى كلية إسلامية أسماها (كلية صلاح الدين) . وأما الكنيسة فلم يمسها ضرر . ولما احتل الإنجليز القدس (١٩١٧ م) أعادوا العمارة إلى الآباء البيض . فأنشأ هؤلاء فيها مكتبة ومتحفاً .

فيها الآن مدرستان : — إحداهما صغرى ، لتعليم العلوم الأولية والثانوية . والثانية كبرى لتدريس الفلسفة والكهنوت .

وللروم الكاثوليك فى القدس دار يسمونها (دار القديسة فيرونيكا) . واقعة

فى عقبة المفتى ، على درب الآلام . بنيت فى المكان الذى مسحت فيه هذه القديسة وجه السيد المسيح وهو مار من هناك حاملا صليبه . وكانت الأرض ملكاً لمسلم من سكان القدس (عبد الرحمن حدوثة العلم) . فباعها بثلاثة آلاف ليرة فرنسية ذهباً . وحصل الروم الكاثوليك على فرمان من السلطان بتاريخ ١٨٩٤ م فأنشأوا فوقها كنيسة باسم القديسة فيرونيكا .

الإرساليات الكاثوليكية وبطاركة اللاتين :

عندما أنشأ البابا بيوس التاسع عشر بطريركية اللاتين فى أورشليم (١٨٤٧) نشأ خلاف بين البطريرك (يوسف فاليركا) الذى أقامه قداسة البابا وبين الآباء الفرنسيسين. إذ اعتقد هؤلاء أنهم أحق من غيرهم فى إدارة الأماكن اللاتينية . وانقسم اللاتين إلى فئتين — فئة تؤيد البابا ومندوبه البطريرك . وأخرى تعضد الآباء الفرنسيسين. وراح البطريرك يحث الرهبان فى القارة الأوربية على المجىء إلى فلسطين. ومما شجع هؤلاء على المجىء إلى هذه الديار الضغط الذى ألمّ بالجمعيات الدينية بفرنسا ، والتشريعات الجديدة التى سنت فيها لمطاردة الرهبان بإيعاز من المحافل الماسونية ، وقال المطران مكسيموس مظلوم فى الصفحة ٣٧١ من كتاب (تاريخ الحروب المقدسة فى الشرق) ذلك الكتاب الذى ترجمه عن الفرنسية لمؤلفه (مكسيموس مونروند) إن المسيحيين راحوا يزورون القدس فى الجيل السادس عشر وما بعده بكثرة ، لا بقصد العبادة فحسب بل وحماية الأماكن المقدسة بالطرق السلمية ، إذ كان المسلمون يومئذ أقوياء . وما كان من السهل إشهار حرب صليبية عليهم كالحرب التى قامت فى القرن الحادى عشر. ومن الرهبنات التى تأسست فى القدس :

(الآباء الفرنسيسيون) ويلقبهم المقدسيون بـ (رهبان أبى حبلة) ، عهد إليهم

البابا غريغوريوس التاسع بخدمة كنيسة القيامة عام ١٢٣٦ م . وتزعموا حراسة الأماكن اللاتينية المقدسة من سنة ١٢٩١ إلى سنة ١٨٤٧ م . وبيدهم فرمانات من المماليك والأتراك . ومن أملاكهم فى القدس :

(دير المخلص) ويعرف بدير اللاتين . واقع فى الجهة الغربية الشمالية من حارة النصارى . ابتاعوه من الكرج سنة ١٥٥٩ م . فيه مكتبة قيمة وفيه مدرسة وكنيسة وميتم وصيدلية ومطبعة وفرن ومطحنة وعدة معامل .

(الكازانوفا) ويسمونها الدار الجديدة . واقعة بين الباب الجديد ودير الإفرنج ومعدة لنزول الحجاج والزوار المسيحيين .

(دار البطريركية) على مقربة من الكازانوفا ودير المخلص. أنشأها البطريرك يوسف فاليركا سنة ١٨٦٣ م . فيها يقيم بطريرك اللاتين . وفيها مدرسة إكليركية وكنيسة باسم يسوع .

(الجسمانية) كنيسة جميلة واقعة فى وادى قدرون عند ملتقى الطرق بين القدس والطور وساوان . بنيت سنة ١٩٢٤ . واشترك فى بنائها جميع اللاتين فى العالم . والمعتقد أن رئيس كهنة اليهود وجنده ألقوا القبض على السيد المسيح بدلالة يهوذا الأسخريوطى فى هذا المكان .

(كنيسة مار فرنسيس) واقعة إلى الشمال من مقام النبى داود . بنيت فوق أرض كانت فى الأصل ملكاً لجماعة من آل الدجانى (أسرة الشيخ محمود) . وقد ابتاعها الآباء الفرنسيون حوالى عام ١٩٣٠ .

(حبس المسيح) واقع إلى الشمال من القشلة القديمة ، أمام الروضة ، وعلى مقربة من الطريق المؤدية إلى باب الأسباط . يعتقد اللاتين أن السيد المسيح جلد وأهين فى هذا المكان من قبل جند الرومان .

الآباء الدومنيكيون :

ومن أسمائهم (رهبان مار عبد الأحد) . جاءوا إلى القدس عام ١٨٨٢ م. ولهم فيها دير وكتدرائية تدعى (سانت اتيان) أو (كنيسة القديس أسطفان) . بنيت فى عهد البطريرك جوفينال (٤٢٨ — ٤٥٨) . إنها واقعة على بعد نصف كيلومتر من باب العمود إلى الشمال . خربها الفرس عام ٦١٤ م . وبنى على أنقاضها البطريرك صفرونيوس (٦٣٨ م) معبداً صغيراً باسم القديس أسطفان . خربه الصليبيون خشية أن يلجأ إليه المسلمون الذين جاءوا يومئذ (١١٨٧) لحصار أورشليم . والكنيسة الحالية بنيت عام ١٨٩٨ م . وسميت الكنيسة الملوكية الصغرى .

الآباء الكرمليون :

هبطوا البلاد عام ١٦٣٦ م . لهم فى حيفا وعلى جبل الكرمل كنائس وأديار . وأما فى القدس فليس لهم سوى دير صغير فى الطالبية ، ومعبد صغير باسم (القديسة تريزا) .

(راهبات مار يوسف) هبطن القدس عام ١٨٤٨ م . ولهن فيها (مستشفى القديس لويس) تجاه السور من الشمال وعلى بعد بضع خطوات من الباب الجديد . بنى عام ١٨٨٠ م .

(دير مار يوسف) فى حارة الموارنة على مقربة من بطريركية الروم الكاثوليك . أنشئ عام ١٨٥٠ وتم تجديده فى ١٩٣٠ م . وفيه مدرسة للبنات . ولراهبات مار يوسف مدرسة ثانوية للبنات خارج السور . وميتم على مقربة من المدرسة المذكورة .

(راهبات صهيون) جئن إلى القدس عام ١٨٥٦ م . لهن فيها دير على طريق الآلام ، فيه مدرسة وكنيسة وميتم .

(رهبان صهيون) جاءوا إلى القدس عام ١٨٧٣ . ولهم فيها مدرسة هى التى عرفت بالراتزبون ، وتعرف أيضاً بمدرسة القديس بطرس . وهى مدرسة صناعية واقعة على بعد بضعة أمتار من مقبرة ماملا إلى الغرب .

(النزل النمساوى) ويسمونه هوسبيس النمسا . واقع فى حارة الواد على طريق الآلام . بنى عام ١٨٥٦ م . وبات فيه إمبراطور النمسا فرنسوا جوزيف عند ما زار القدس ١٨٦٩ .

(راهبات الكرمل) جئن إلى القدس عام ١٨٧٣ م . وشيدن على جبل الزيتون ديراً يعرف باسمهن . إنهن لا يظهرن على أحد من الناس طيلة حياتهن .

(الفرير) ويسمونهم (إخوة المدارس المسيحية) . جاءوا إلى هذه البلاد عام ١٨٧٦ م . ولهم فى حارة الجوالدة من حارات القدس دير وكنيسة ومدرسة كبيرة .

(الآباء البيض) جاءوا إلى القدس عام ١٨٧٨ م . وأسسوا فيها كنيسة القديسة حنة المعروفة فى يومنا هذا بالصلاحية . ذكرنا عنهم الشيء الكثير فى الفصل الذى خصصناه للروم الكاثوليك .

(الراهبات الوردية) ينتمين إلى رهبنة أسسها الأب يوسف طنوس الناصرى عام ١٨٧٩ م . لهن فى القدس مدرسة للبنات أنشئت عام ١٨٨٣ م . ومستوصف وديران : واحد بجوار بطركية اللاتين والآخر إلى الجنوب من مقبرة ماملا .

(رهبان مار يوسف) جاءوا إلى القدس عام ١٨٧٩ م . فأسسوا مستشفاهم الكائن فى الطنطور بين القدس وبيت لحم .

(آباء القلب المقدس) جاءوا عام ١٨٧٩ م . وأنشأوا ديرهم القريب من بيت لحم . كانت لهم مدرسة إكليركية . إلا أنهم نقلوها إلى فرنسا فى آخر سنة من الانتداب .

(راهبات مار فرنسيس) ويعرفن بالفرنسيسيات الثالثيات . جئن إلى القدس عام ١٨٨٤ م . وأنشأن ديرهن الكائن فى حارة النصارى إلى الشمال الشرقى من دير اللاتين . فيه مدرسة داخلية تعرف ببيت اليتامى .

(راهبات مار كلارا) جئن إلى هذه البلاد عام ١٨٨٤ م . وأسسن ديراً على جبل المكبر فى الطريق المؤدية إلى الكلية العربية . لا يختلطن بأحد من الناس .

(راهبات المحبة) ويعرفن براهبات مار منصور . جئن إلى القدس عام ١٨٨٦ م، لهن معهد واقع على طريق ماملا . فيه عدد كبير من الأطفال والأيتام والعجزة والمعتوهين والعميان .

(الآباء الانتقاليون) ويسمونهم الرهبان الأغسطونيين وهناك من يسميهم غلطاً بالصعوديين . جاءوا إلى القدس عام ١٨٨٧ م . وأسسوا فيها نزلا هو المعروف بـ(نوتردام دو فرانس) . إنه عبارة عن عمارة ضخمة، لا تبعد إلا بضعة أمتار من الباب الجديد ، من أبواب السور الشمالية . بنى عام ١٨٩٩ م ، بقصد إيواء الحجاج الفرنسيين ونشر الدعاية لفرنسا، فيه كنيستان ،واحدة كبيرة والأخرى صغيرة . وفيه متحف ومكتبة ومدرسة إكليركية . وهو مشرف على المدينة إشرافاً تاماً .

(راهبات السجود) ويسمونهم راهبات التعويض والقربان . جئن إلى القدس عام ١٨٨٨ م . وأسسن فيها ديراً هو الذى نراه أمام المستشفى الفرنسى على طريق سليمان . وفى الدير معبد باسم (القربان المقدس) ، ترى أمامه ، فى أى وقت دخلته راهبتين ساجدتين . ويتبادل الراهبات السجود مرة كل ساعة .

(الآباء العازريون) هبطوا هذه البلاد عام ١٨٩٠ م . لهم فى القدس العمارة الكائنة بباب العمود ، التى اتخذت فى أوائل الاحتلال البريطانى مقراً لحاكم القدس . ولهم فيها أيضاً دير إلى الجنوب من مقبرة ماملا .

(الآباء الترابيون) جاءوا حوالى عام ١٨٩١ م . وأسسوا ديرهم الشهير فى اللطرون . عددهم أربعون يعيشون فى صمت تام . وهم ماهرون بزراعة الكرمة وصناعة الألبان والخمور .

(راهبات مريم الفرنسيسيات المرسلات) جئن إلى القدس عام ١٩١٨ م . ويسمين الراهبات البيض ، لهن دير بباب العمود تجاه نزل القديس بولس للألمان الكاثوليك . بنى هذا الدير عام ١٩٣٣ م . وفيه كنيسة ومصنع للتصوير والخياطة وميتم .

(الآباء الكبوشيون) جاءوا سنة ١٩٣٥ م . ولهم فى الطالبية دير ومدرسة .

(الجزويت) ويقال لهم الآباء اليسوعيون . لهم فى القدس (المعهد البابوى الأثرى) فى حى النيقوفورية . أسس عام ١٩٢٧ م . ومهمته دراسة الآثار القيمة بفلسطين .

وهناك (الرهبان الساليزيون) و (الراهبات السالزيات) فى حى المصرارة . و (الرهبان البندكتيون) و (الراهبات البندكتيات) على جبل صهيون . و (راهبات الجلجلة) و (الآباء المعزون) وغيرهم كثيرون .

تلك هى الإرساليات الكاثوليكية فى القدس . وهى خاضعة للبابا فى روما . وفى القدس بطريرك ينتدبه البابا ، لإدارة شؤون الطائفة اللاتينية . وفيما يلى أسماء البطاركة الذين تسلموا كرسى البطريركية : يوسف فاليركا ١٨٤٧ ، فنسان براكو ١٨٧٣ ، لودوفيكو بيافى ١٨٨٩ ، فيلبس كمساتى ١٩٠٦ ، لويجى برلاسينا ١٩٢٠ ، منصور جلاد (وكيل بطريرك) ١٩٤٨ ، ألبرتو غورى ١٩٥٠

الأرمن :

فى القدس اليوم (١٩٤٥ م) خمسة آلاف أرمنى . وهم فئتان : فئة قديمة تعيش فى (دير مار آركانجل) شرقى مار يعقوب . وأخرى حديثة العهد هبطت القدس يوم غضب الأتراك على الأرمن فى بلادهم فذبحوهم (١٩١٤ م) .

وتعيش هذه الفئة فى (دير مار يعقوب) .

وللأرمن فى القدس ممتلكات — نذكر منها :

(دير مار يعقوب) ويسمونه دير القديس جيمس الكبير . واقع بين قشلاق البوليس وباب النبي داود . فيه دار البطريركية ، ومدرسة للاهوت ، ومطبعة ، ومكتبة فيها أربعة آلاف مخطوط وثلاثون ألف كتاب مطبوع . كان فى هذا الدير كنيسة قديمة هدمها الفرس عام ٦١٤ م . ثم أعيد بناؤها فى أواسط القرن الثانى عشر . وقال بعض المؤرخين[١] إن هذا الدير كان فى الأصل للكرج ، ثم صار للروم ، وكان يدعى فيما مضى دير القديس يعقوب الزبدى . ثم أخذه الأرمن من الروم بالأجرة . فصار لهم .

(دير الزيتونة) ويسمونه دير مار آركانجل . واقع خلف دير مار يعقوب من الشرق . فيه مدرسة للبنات وكنيسة .

(حبس المسيح) دير للأرمن واقع فى حى النبي داود على جبل صهيون . فيه كنيسة صغيرة وفى ساحته عدد من قبور بطاركة الأرمن وأساقفتهم المتأخرين.

وللأرمن فى كنيسة القيامة كنائس منها : (الجلجلة الثانية) وهى أمام القبر المقدس . و (كنيسة ماركريكورلوسا فوريتش) ويسمونها كنيسة القديسة هيلانة . و (كنيسة المريمات) أمام قبر المسيح . و (كنيسة مار يوحنا) فى ساحة القيامة .

ولهم جانب من (كنيسة ستنا مريم) عند مفترق الطرق المؤدية إلى القدس وسلوان وجبل الزيتون .

ولهم مدرستان : إحداهما أولية ويسمونها (تركمنشاتس) . وأخرى كبيرة يدرسون فيها علم اللاهوت . وفى القدس أربع جمعيات أرمنية هى : (١) آغ كداخنام

---

(١) عن مخطوط عثر عليه فى برلين ص ٤٤ لمؤلفه الخورى ميخائيل بريك الدمشقى . وقد اطلعت عليه فى مكتبة الأستاذ عيسى إسكندر المعلوف بزحلة .

وهى تعنى بالفقراء (٢) جمعية الصليب الأحمر الأرمنية (٣) الاتحاد الخيرى لأرمن القدس (٤) هاى بارى قورجاغان أو نزانور ميوثيون. وهذه الأخيرة تعنى بصورة خاصة بإرجاع الأرمن إلى بلادهم (أرمنيا). وقد رجع قسم كبير منهم.

وللأرمن فى القدس بطريركية يقوم عليها فى يومنا هذا البطريرك كوريخ الثانى واسمه إسرائيليان نور شوغايتى. وهو الرابع والتسعون بين البطاركة الذين تولوا رعاية الكنيسة والطائفة الأرمنية.

والأرمن أيضاً من حيث العقيدة، فئتان: أرمن أرثوذكس. وأرمن كاثوليك. وللأرمن الكاثوليك بطريركية أنشأها النائب البطريركى (أنطون يواكيم تومايان) وكان ذلك سنة ١٨٨٦ م. ولهم دير بنى فى الموضع الذى التقت فيه مريم العذراء بالسيد المسيح وهو ذاهب للصلب. وكنيسة أسموها (أوجاع العذراء).

الأقباط:

هبطت أول قافلة قبطية مدينة القدس بقصد الاشتراك فى تدشين القيامة. وكان ذلك فى أواسط القرن الرابع للميلاد. وجاءت بعد ذلك قافلة أكبر من الأولى وكان ذلك على عهد صلاح الدين، وكان الأقباط له مخلصين. فأراد أن يكافئهم على إخلاصهم، فرد إليهم أملاكهم التى اغتصبها منهم الصليبيون.

كانت شؤون القبط فى القدس[1] تدار من لدن رجال الكنيسة الأنطاكية السريانية. ولكنهم راحوا ينفرون من السريان فى أواخر القرن الحادى عشر. وفى عام ١٢٣٥ م. استقلوا فصار لهم مطران يدير شؤونهم، وتم بعدئذ الاتفاق

(١) (تاريخ الكرسى الأورشليمى للأقباط الأرثوذكس) للشماس كامل صالح نخلة الإسكندرى مخطوط ص ٢.

بين الكرسيين (الأنطاكى والإسكندرى) على أن يتولى أبرشية القدس حبر قبطى يعينه البابا الجالس على الكرسى المرقسى ، وأن يجرى التكريز باسم البطريرك الأنطاكى .

إن أول مطران قبطى رسم على القدس هو الأنبا باسيليوس (١٢٣٦ م) . وجاء من بعده سبعة عشر مطراناً . آخرهم المطران الحالى الأنبا ياكوبوس (١٩٤٦ م) .

فى القدس اليوم زهاء خمسمئة قبطى . وللقبط فيها أملاك نذكر منها :

(دير السلطان) وهو ملاصق لكنيسة القيامة من الناحية الجنوبية الشرقية . وفيه كنيستان : (كنيسة الملاك) و (كنيسة الحيوانات الأربعة) . اغتصبه الصليبيون من الأقباط ، ورده إليهم صلاح الدين . ولهذا أسموه دير السلطان .

(دير مار أنطونيوس) يعرف بالدير الكبير . وهو ملاصق لكنيسة القيامة من الناحية الشمالية الشرقية وفيه كنيستان : (كنيسة القديس أنطونيوس) و (كنيسة الملكة هيلانة) . وفيه أيضاً دار الأسقفية .

(دير مار جرجس) فى حارة الموارنة على مقربة من باب الخليل .

(خان القبط) فى حارة النصارى بين باب الخليل وكنيسة القيامة . بناه المطران الأنبا إبراهيم عام ١٨٣٩ م .

وللأقباط كنيسة باسم السيدة فى الجسمانية ، وهيكل على جبل الزيتون ، وكنيسة باسم مار يوحنا خارج القيامة ، ومقبرة على جبل صهيون ، يدفن موتاهم فيها أيضاً السريان والأرمن والأحباش . وللأقباط فى كنيسة القيامة أيضاً كنيسة صغيرة ملاصقة للقبر المقدس من الغرب .

الأحباش :

تنصروا خلال القرن الرابع ، وهبطوا القدس بعد ذلك التاريخ . وكان لهم فيها كنائس وأديار(١) . إلا أنهم أضاعوا مع الزمن أكثرها . فلم يبق بأيديهم منها سوى :

(دير الحبش) ملاصق لكنيسة القيامة فوق مغارة الصليب . وقيل إنه جزء من دير السلطان للأقباط ، ذلك الدير الذى لم ينقطع الخلاف حوله بين الأقباط والأحباش منذ سنين .

(كنيسة الحبش) فى ظاهر المدينة خارج السور ، وإلى الشمال الغربى من المسكوبية . تم بناؤها حوالى عام ١٨٩٠ م .

وللأحباش عمارات كبيرة شيدها الأب جرجس سمايت باسم الملكة (تايتو)(٢) وينفق ريعها على الرهبان . هذا بالإضافة إلى المبلغ الذى تبرع به إمبراطور الحبشة منليك سنة ١٩٠٥ م . وقدره مئتا ألف تاليرا(٣) .

وكان لهم فيما مضى حق التقدم على الطوائف المسيحية الأخرى(٤) . ولكنهم ضعفوا مع تقادم العهد وراحت الطوائف الأخرى تنازعهم فى هذا الحق . وساءت حالتهم فى أوائل القرن التاسع عشر ، وتناقص عددهم ، فلم يبق فى القدس منهم فى يومنا هذا أكثر من سبعين نسمة . كلهم ينتمون إلى الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية . يعيشون فى ديرهم عيشة الفقر والمسكنة .

---

(١) Enrico Cerulli كتاب وضعه باللاتينية Ethopi In Palestine. وضع فى روما سنة ١٩٤٣ .

(٢) (المرسليات اللاتينية) لألفونس والونصو ج ٢ ص ١٠٧ .

(٣) عملة ألمانية تساوى ٧٠ و ٣ فرنك بالوجه التقريبى .

(٤) سجل المحكمة الشرعية بالقدس ذو التاريخ ١٩ من ذى الحجة ٩٤٩ هـ - ١٥٤٢ م

السريان :

هبطت أول قافلة منهم فى القرن الأول للميلاد ، وكانت قليلة العدد ، إلا أن معظمهم جاءوا إلى القدس مع الصليبيين . ولما احتل القدس صلاح الدين ، ورحل هؤلاء ، رحلوا معهم فلم يبق منهم فى القدس سوى عدد قليل .

واليوم هم فئتان : أرثوذكس وكاثوليك . أما الأرثوذكس فقد كان عددهم فى القدس فى أواخر الاحتلال البريطانى ألفين ، وأما السريان الكاثوليك فإنهم أربعمئة . جاء أكثرهم من شمال العراق والبلاد الواقعة شرقى ماردين .

وللأرثوذكسيين فى فلسطين أبرشية مركزها القدس . وعليها الآن نائب بطريركى يرجع فى أموره إلى البطريرك الأنطاكى . ولقد جاء ذكرهم فى العهدة العمرية التى منحها الخليفة الثانى عمر بن الخطاب إلى نصارى القدس (١٥ هـ — ٦٣٦ م) . وفى الفتح الصليبى احتل الصليبيون أماكن السريان ثم ردوها إليهم . ولهم فى القدس اليوم ممتلكات نذكر منها :

(دير مار مرقس) فى حارة الجواعنة بين حارة الأرمن واليهود . وفى الدير كنيسة بيزنطية باسم العذراء ، ودار للأسقفية . ولقد خربت الكنيسة البيزنطية على عهد الحاكم بأمر الله الفاطمى (١٠٠٩ م) . وهجر الدير فى غضون الحكم التركى . ولكن السريان عادوا إليه وعمروه سنة ١٨٥٥ . ثم وسعوه سنة ١٨٨٠ م .

(دير العدس) شمال القوس المعروف بـ (إيكوهومو) على درب الآلام . عمروه بتاريخ ١٥٧١ م .

(دير مار توما) فى الشارع المؤدى إلى حى النبى داود .

(معبد صغير) فى كنيسة القيامة باسم (يوسف ونيقوديموس) .

معبد فى الكنيسة المعروفة بـ (ستنا مريم) على مقربة من الجسمانية .
معبد على جبل الزيتون .

وللسريان الأرثوذكس فى القدس جمعيتان : (١) جمعية مار مرقس . ولها مدرسة فى شارع الأنبياء ومطبعة ومكتبة . (٢) وجمعية الشبان السريان .

وأما السريان الكاثوليك فلهم دير فى طريق سليمان بين باب العمود والنوتردام على بعد خمسين متراً من السور الشمالى . بنى هذا الدير حوالى سنة ١٩٠١ وفيه كنيسة صغيرة .

ولهم دير يدعى (دير مار مبارك) أنشىء سنة ١٩٠٣ م . وهو واقع فى باطن الهواء إلى الشرق من سلوان ؛ فيه كنيسة ، ومدرسة يديرها الآباء البندكتيون.

الموارنة :

لا نعرف متى هبطوا القدس . وإن كنا نعرف أنهم ينتمون إلى مار مارون الذى عاش فى لبنان حوالى القرن الرابع للميلاد .

كانت لهم ، فيما مضى ، مكانة مرموقة فى القدس . وكانوا فى القرنين السابع والثامن للميلاد يأتون بعد الفرنجة من حيث الأهمية . وأما اليوم ، فإنهم قلة بين الطوائف المسيحية التى تعيش فى القدس . وليس لهم فيها سوى الدير الذى يعيشون فيه . وهو واقع فى الحى المعروف بحى الموارنة ، بين سويقة علون وحارة الأمن . ولقد بنى هذا الدير فى ٦ أيار ١٨٩٥ .

الروس :

للروس مكان واسع الأرجاء يعرف بـ (المسكوبية) . وهو خارج السور ،

لا بل إنهم (أى الروس) أول من شيد البناء فى خارج السور . وكان ذلك حوالى سنة ١٨٥٦ م . والمكان المذكور واقع على طريق يافا على بعد نصف ميل من باب الخليل إلى الغرب . يحيط به سور غير مرتفع . وفيه دار للأسقفية الروسية ، وأخرى للقنصلية ، ومستشفى ، وكنيستان . . . . إحداهما كبيرة تسمى (كنيسة الثالوث الأقدس) ولها سبع قباب مصفحة بالرصاص . والأخرى صغيرة بنيت على اسم القديس إسكندر نيفسكى . ومنازل عديدة لنزول الحجاج من الروس . الأول مخصص لنزول الأشراف الروسيين ، والثانى للكهنة المرسلين وفيه عدد من القسوس . والثالث للنساء ويستوعب زهاء ألفى امرأة ، والرابع لطبقات الشعب الأخرى وهذا يتسع لألف وخمسمئة شخص .

وهناك دار للقنصلية وأخرى للقنصل وعائلته . كما أن هناك منازل أخرى للكتبة والحجاب وسائر المستخدمين .ولقد قامت معظم هذه المبانى حوالى سنة ١٨٦٠ للميلاد .

وفى عام ١٨٨٧ شيد نزل آخر على نفقة الجمعية الفلسطينية الروسية التى يرأسها شقيق الإمبراطور إسكندر الثالث قيصر روسيا . واستعملت أبنية المسكوبية وعماراتها المختلفة فى عهد الاحتلال البريطانى (١٩١٧-١٩٤٧م) لإدارة بعض المصالح الحكومية (كالبوليس والعدلية) واستعمل بعضها كمستشفى حكومى .

وللروس دير يعرف بـ (المسكوبية) أيضاً . وهو قريب من باب خان الزيت وإلى الشرق من كنيسة القيامة .

ولهم كنيسة باسم (القديسة مريم المجدلية) على مقربة من الجسمانية ومنها إلى الشرق على سفح جبل الزيتون من الجنوب . ولقد أنشئت هذه الكنيسة على نفقة العائلة المالكة تخليداً لذكرى والدة القيصر . وكان ذلك عام ١٨٨٩ م .

ولهم أيضاً (كنيسة الصعود) على جبل الزيتون . ولهذه الكنيسة جرسية مرتفعة ، هى أعلى بناء فى القدس على الإطلاق .

الألمان :

هبط القدس عدد من الألمان بين القرن الثالث عشر والقرن السادس عشر ، بقصد الزيارة . وقد استوطنها عدد قليل منهم فى أواخر القرن الثامن عشر . ووطدت الإرسالية الألمانية أقدامها سنة ١٨٥٣ عند ما أسس القس (فريدريخ أدولف شتراوس) جمعية أسماها (جروزاليم فيراين) .

وكان فى القدس فى أواخر الانتداب البريطانى (١٩٤٧) جالية ألمانية هى من حيث العنصر والوطنية واحدة ومن حيث الدين فئتان — واحدة بروتستانتية والأخرى كاثوليكية . وللألمان حى يعرف بـ (الكولونية الألمانية) قريب من المحطة إلى الجنوب من المدينة .

أما الألمان البروتستانت فلهم ممتلكات — نذكر منها :

(مدرسة شنلر) ويسمونها دار الأيتام السورية . أسسها يوحنا لودفيغ شنلر عام ١٨٦٠ ، واقعة فى ظاهر المدينة إلى الشمال الغربى . لها فروع للتعليم والصناعة والتبشير . وفى الفرع الصناعى تعلم النجارة والحدادة والخياطة والطباعة وصناعة الخزف والفخار والأحذية والموسيقى . وفيها فرع لإيواء المكفوفين وتعليمهم .

(مدرسة طاليتا قومى) ويسمونها شرلوطة . فى ظاهر المدينة لجهة الغرب على طريق الملك جورج ، بنيت عام ١٨٦٨ م .

(مدرسة ترازيا) أسستها ترازيا سكس الألمانية حوالى عام ١٨٧١ م . وهى واقعة إلى الغرب من بركة ماملا .

(المستشفى الألمانى) واقع فى ظاهر المدينة إلى الغرب وفى الحى المعروف بالشيخ عكاشة . بنى عام ١٨٩٤ م .

(كنيسة المخلص) وتعرف بكنيسة الدباغة . ذلك لأنها واقعة فى شارع

يطلق عليه هذا الاسم على مقربة من كنيسة القيامة إلى الشرق القبلى . بنيت على أرض كانت فى الأصل تؤلف قسما من المرستان الصلاحى . وقد أهداها السلطان عبد العزيز إلى ولى عهد بروسيا البرنس فردريك ويلهلم (تسلم عرش الإمبراطورية فيما بعد) . ولقد جرى تدشينها بحضور الإمبراطور غليوم الثانى عام ١٨٩٨ م .

(نزل أوغوستا فكتوريا) على جبل الزيتون ، ويسميه العرب (أم الطلعة) بناه الألمان سنة ١٩٠٥م . وأهدوه للإمبراطور والإمبراطورة تذكاراً لعيد زواجهما الفضى . وقد اتخذه الإنجليز فى أوائل الاحتلال مقراً للحكم (١٩١٨ م) . وكان يقيم فيه المندوب السامى .

وأما أملاك الألمان الكاثوليك فهى :

(كلية شميت) للبنات تأسست عام ١٨٨٦م . من لدن (الجمعية الألمانية الكاثوليكية للأرض المقدسة) . وتولى إدارتها يومئذ الأب ويلهلم شميت . ويقوم بمهمة التعليم فيها راهبات ألمانيات يدعين (راهبات القديس شارل بروميوس) يساعدهن عدد من الراهبات العربيات . والمدرسة واقعة إلى الشمال من مقبرة ماملا .

(دير القديس شارل بروميوس) تأسس عام ١٨٨٧ م . وهو مخصص لنزول الحجاج الألمان الكاثوليكيين . كان فى بادئ الأمر واقعاً إلى الغرب من مقبرة ماملا . ثم انتقل إلى حى الألمان فى البقعة .

(نزل القديس بولس) على بعد مئة متر من باب العمود إلى الشمال . بنى عام ١٩٠٨ م . واحتلته حكومة فلسطين عام ١٩١٧ م . فاتخذته مقراً لحاكم القدس .

(كنيسة نياحة العذراء) . ويسمونها الدورميثيو واقعة على جبل صهيون ، وإلى الغرب من مقام النبى داود . بنيت فوق قطعة من الأرض أهداها السلطان

عبد الحميد[1] إلى إمبراطور الألمان غليوم الثانى ، وأعطاها هذا للألمان الكاثوليك ليبنوا عليها كنيسة كما بنى الألمان البروتستانت كنيستهم (الدباغة) على الأرض التى أهداها السلطان عبد العزيز إلى والد الإمبراطور . ولقد تم بناؤها فى سنة ١٩١٠ م . لها قبة مزينة بالفسيفساء وجرسية عالية .

الإرسالية الإنجليزية :

إن أول قنصل انتدب لحماية المصالح الإنجليزية فى القدس هو المستر يونغ W.T. Young وكان ذلك سنة ١٨٣٨ . والسبب الذى حدا بإنجلترا يومئذ للاهتمام بالقدس هو ميلها لتأييد تركيا حيال فكرة التوسع التى كان يرمى إليها مؤسس الدولة العلوية بمصر محمد على باشا . وعملت القنصلية الإنجليزية عند بدء تأسيسها على حماية اليهود . وكان المستر جيمس فين الذى تولى القنصلية عام ١٨٤٥ م . ومكث فيها سبعة عشر عاماً أشد عطفاً على اليهود من سلفه يانغ حتى لقد أسماه بعضهم (حامى اليهود وقائدهم غير المتوج) . مع هذا لم يسلم من أذاهم . إذ شكوه بعد قليل وكانوا السبب فى نقله إلى جهة أخرى .

وتوالى القناصل بعدئذ فجاء المستر نويل تمبل مور Noel Temple Moore (١٨٦٢ م) والمستر جون ديكسون John Dickson ١٨٩٠ والمستر بلاك Black ١٩٠٦ والمستر ساتو Sutow ١٩٠٩ م . والمستر ماك غريغور McGregor ١٩١١م . والمستر هاف G. Hough ١٩١٤ م . ولما نشبت الحرب الكونية الأولى ١٩١٤ غادر هذا القدس كما غادرها جميع الرعايا الإنجليز . ولما انتهت تلك الحرب ١٩١٧ م ، عادوا إليها كفاتحين .

هذا من الناحية السياسية . وأما من الناحية الدينية فقد رأينا حركة التبشير

(١) (الرحلة الإمبراطورية فى الممالك العثمانية) لمؤلفه إبراهيم الأسود ص ١٣٠ .

للدين المسيحى من ناحية البروتستانت تبدأ فى القدس سنة ١٨٢٢ م . وكان يتزعم هذه الحركة يهودى تنصر اسمه يوسف وولف . ولم تكن نقمة المسلمين على هذا الرجل بأقل من نقمة اليهود أنفسهم وحاخاميهم . وكذلك قل عن اللاتين ورهبانهم . وانتعشت حركة التبشير على عهد المطران نيقولا يسون سنة ١٨٣٣ م . والمطران ميخائيل سولومون الكسندر الذى تولى رعاية الكنيسة الإنجليكانية (كنيسة مار يعقوب) بالقدس عام ١٨٤١ م . وهذا أيضاً يهودى تنصر وكان فى إنجلترا حاخاماً . وأراد الإنكليز أن يستخدموه لبث الدعاية بين أبناء قومه اليهود فى القدس . وعلى عهده بنيت كنيسة يسوع تجاه القلعة .

والمطران صموئيل غوبات ١٨٤٦ م . ولقد قضى هذا فى القدس اثنين وثلاثين عاماً أسس خلالها (مدرسة المطران) على جبل صهيون ،، وتعرف أيضاً بمدرسة صهيون .

والمطران يوسف باركلى ١٨٧٩ م . والمطران جورج فرنسيس بوبهام بلايت ١٨٨٧ م . وفى زمنه تأسست مدرسة القديسة مريم لليتامى من اليهود . وكذلك قل عن الكنيسة والمدرسة المعروفتين باسمه . ومستشفى الإرسالية التبشيرية الإنجيلية فى ظاهر المدينة . وقد بنى أيضاً داراً للمطران ومكتبة ودوراً للممرضات باسم القديسة هيلانة .

والمطران جورج فرنسيس غراهام برون ١٩٣٢ م .

وللإنجليز فى القدس مستشفى يسمونه (مستشفى مار يوحنا) ويسميه المقدسيون (مستشفى البقعة) لأنه واقع فى الحى المعروف بهذا الاسم . فقد تأسس هذا المستشفى سنة ١٨٦١ م . وهو مخصص لمعالجة أمراض العيون .

ولهم المكان المعروف بـ Garden Toom على مقربة من باب العمود ، وإلى الشمال من السور ويعتقدون أن السيد المسيح صلب فى هذا المكان ، لا فى المكان الذى تقوم عليه كنيسة القيامة الآن .

الجالية الأميركية :

أنشئت في القدس سنة ١٨٥٧م أول قنصلية أميركية . ولم يكن هدفها يومئذ تجارياً أو سياسياً بل كان دينياً . وقامت مشادة عنيفة بين القنصل الأميركي الأول الدكتور جون دارن غورهام وبين المتصرف التركي إذ رفض هذا تحية العلم عند ما رفع على دار القنصلية لأول مرة ورفض إطلاق مدافع القلعة إكراماً له . ولما فعل ذلك امتثالا للأمر الذي تلقاه من السلطان ثارت ثائرة المسلمين ولم يكن في القدس آنئذ سوى عدد ضئيل من الأميركيين لا يجاوز عدد أصابع اليد .

وقام بعد ذلك بثلاثة أعوام رجل أميركي يدعى آدمز يحث الناس على زيارة القدس وانتظار عودة المسيح فيها ، فتبعه زهاء ثلاثين عائلة أميركية . إلا أن أقدام هذه القافلة ما كادت تطأ يافا (١٨٦٠ م) حتى قامت قيامة المسلمين ضدهم ، فعادوا من حيث أتوا . واختفى الرجل الذي حثهم على المجيء بعد أن سلبهم كل ما يملكون من أمتعة ونقود .

وجاءت سنة ١٨٨١ أول قافلة أميركية(١) . وكانت هذه مؤلفة من ثلاثة عشر شخصاً على رأسهم هوراثيو سبافورد Horatio G. Spafford وامرأته وطفلاهما أنا وغريس . فكانت هذه هي النواة الأولى التي تكونت منها بعد قليل المؤسسة المعروفة بالكولونية الأميركية بحي الشيخ جراح .

ونشبت بين رجال هذه القافلة والقنصل الأميركي بالقدس في ذلك الحين صلاح مريل خلاف شديد بسبب قطعة من الأرض كانت للأميركان على جبل صهيون باعها القنصل المذكور إلى الآباء الفرنسيين (١٨٩٨م) وكان الأميركان قبلا يدفنون فيها موتاهم . فاشتروا على إثر ذلك أرضاً على سفح

---

(١) "Our Jerusalem" by Bertha spafford Vester, 1950.

الجبل (جبل الزيتون) واتخذوها مقبرة لهم .

وفى القدس اليوم (١٩٤٥ م) زهاء مئة وخمسين أميركياً مسيحياً . خلا اليهود والعرب الذين تجنسوا بالجنسية الأميركية بحكم مولدهم أو بدافع المصلحة الشخصية . وللأميركيين فيها خلا الكولونية الأميركية المتقدم ذكرها كنيسة واقعة فى شارع الأنبياء ومدرسة للبحث عن الآثار الشرقية ، ومخزن للتجارة ، ومرسم للتصوير ، ومنزل معد لقبول الزائرين والمسافرين ، ودار للقنصلية ، وهى واقعة فى الناحية القبلية من مقبرة ماملا . اشتراها الأميركيون من أصحابها أحمد الحسينى العباسى وإخوته من سلوان . ومن آثارهم البناء الحالى الذى تقيم فيه جمعية الشبان المسيحية .

جمعية الشبان المسيحيين :

إنها جمعية تأسست فى القدس عام ١٨٧٦ م . وكانت تابعة للجمعية المركزية بلندن . وقد انفصلت عنها فى ١٨٩٢ م وكان عدد الأعضاء المنتمين إليها يومئذ أربعين . وفى سنة ١٩٠٩ م ازدادوا إلى مئتين . وفى الحرب الكونية الأولى (١٩١٤ — ١٩١٧ م) أغلقت الجمعية أبوابها . وعندما احتل اللورد اللنبى القدس استأنفت أعمالها . وفى ١٩٢٤ م . تبرع المستر جيمس نيوبيكن جارفى الأميركى بمبلغ من المال أنشئت به دار الجمعية الكائنة فى شارع سان جوليان فى الناحية القبلية الغربية من المدينة الجديدة . ولقد تم بناء هذه الدار فى عام ١٩٤٦ على يد مهندس أميركى اسمه أرنور لوميس هارمون .

إنها من أجمل عمارات المدينة وأضخمها ، وهى مؤلفة من عدة طوابق . فيها بهو واسع وغرف عديدة للقراءة والجلوس وقاعة واسعة للمحاضرات وغرف للألعاب الرياضية ومكتبة فيها خمسون ألف مجلد، وحمام للسباحة واثنتان وثمانون

غرفة وسرر كثيرة معدة لنزول الزائرين . وللبناية برج مرتفع يسمونه (برج المسيح) يشرف المرء منه على جميع أحياء المدينة . وفى البرج خمسة وثلاثون جرساً أكبرها فى وزن طن ونصف الطن . وقد نقشت عليه الكلمات التالية . . (المجد لله فى العلى وعلى الأرض السلام) .

والبناء من الطراز البيزنطى القديم ، ونقشت على واجهته الأمامية كلمة (لا إله إلاّ الله) باللغات الثلاث : العربية والعبرية والآرامية . وفى داخل العمارة آيات من الإنجيل . وصور تمثل حياة السيد المسيح .

وللمسيحيين فى القدس مقابر عديدة ، معظمها على جبل صهيون . وإنا لذاكرون منها :

(مقبرة الروم الأرثوذكس) إلى الجنوب من مقبرة الأرمن والسريان ، يفصل بينهما زقاق ضيق يؤدى إلى مدرسة صهيون . تلك المدرسة المعروفة بمدرسة المطران غوبات .

و (مقبرة اللاتين) إلى الشرق من مقام النبى داود .

و (مقبرة البروتستانت) ملاصقة لمدرسة صهيون .

و (مقبرة الأرمن) إلى الغرب من كنيسة نياحة العذراء المعروفة بالدورميثيو ، يفصل بينهما زقاق ضيق مرصوف . ويشترك السريان والأقباط والأحباش مع الأرمن فى استعمال هذه المقبرة لدفن موتاهم ، وهى على جبل صهيون .

ويستعمل الإنجليز مقبرة البروتستانت من نصارى بيت المقدس لدفن موتاهم .

وأما الأميركيون فلهم مقبرتان : واحدة : على سفح جبل الزيتون وإلى الغرب من الجامعة العبرية . اشترى أرضها رجال الكولونية الأميركية سنة ١٨٩٨ م . واتخذوها مقبرة لدفن موتاهم . والثانية اشتراها المبشرون بعد ذلك بقليل . واستعملوها لدفن الأميركيين ممن لا ينتمون للكولونية المتقدم ذكرها . وهى واقعة عند مفترق الطرق المؤدية إلى البقعتين الفوقا والتحتا وإلى حارتى النمامرة والقطمون .

وللروس مقبرتان : واحدة على جبل الزيتون ، إلى جانب كنيسة الصعود . وأخرى على جبل صهيون . وفى الثانية يدفن الرجال ، وفى الأولى تدفن الراهبات فقط .

وهناك (مقبرة الحرب) بين جبل الزيتون وتل أسكوبس . إنها مقبرة حربية ، أنشأها الإنجليز[١] بعيد احتلالهم للمدينة (١٩١٧ م) وقد دفنوا فيها رفات موتاهم من ضباط وجنود ، هم الذين لاقوا حتفهم فى المعارك التى قامت فى القدس وفيما حولها من الضياع خلال الحرب الكونية الأولى (١٩١٤ — ١٩١٧ م) فيها اليوم ألفان وخمسمئة وخمسة عشر قبراً : ٢١٨٠ منهم إنجليز و إيرلنديون وأسكتلانديون و ١٤٣ أوستراليون و ٥١ أفريقيون و ٤١ هنود و ٣٤ نيوزيلنديون و ٦٦ لم تعرف هوياتهم . وفيها ١٦ ألمانياً و ٣ أتراك ماتوا وهم فى الأسر . فدفنهم الإنجليز فيها .

وفى هذه المقبرة نصب تذكارى ، شاده الإنجليز هناك ، تخليداً لذكرى الضباط والجنود الذين لاقوا حتفهم فى المعارك نفسها ، ولكن السلطة لم توفق فى العثور على قبورهم ، وعددهم ٣٫٣٥٤ : منهم ٣٫٠٤٩ إنجليز وإيرلنديون وأسكتلانديون و ٢٤٢ أوستراليون و ٦٠ نيوزيلنديون و ٣ أفريقيون .

كنيسة القيامة :

بنتها الملكة هيلانة أم الملك قسطنطين (٣٣٥ م) . وأحرقها الفرس (٦١٤م) وأحرقوا معها جميع الكنائس والأديار التى كانت يومئذ فى القدس . فأعاد بناءها (٦٣٦ م) الراهب مودسطس رئيس دير العبيديين فى ذلك الحين . ولما فتح

(١) "The War Graves of the British Empire" by the Imperial War Graves Commission, London, 1928.

عمر بن الخطاب بيت المقدس (٦٣٦ م) أعطى النصارى أماناً لأنفسهم ولكنائسهم ، ولم يصبها بأذى ؛ حتى إنه أبى أن يصلى فى كنيسة القيامة وقد حان وقت الصلاة وهو فيها ، رغم أن البطريرك صفرونيوس أشار عليه بأن يصلى حيث كان ، إلا أنه اعتذر وصلى على مقربة منها . وخشى إن هو صلى فى الكنيسة أن يتخذ المسلمون ذلك من بعده حجة فيطالبوا بحق لم يكن لهم فيها .

ولقد رمم البناء الذى أقامه مودسطس البطريرك توما الأول (٨١٧ م) وكان ذلك فى عهد الخليفة العباسى المأمون. أحرقت الكنيسة وسقطت قبتها فى عهد الإخشيد سلطان مصر (٩٦٥ م) . وجرت بعد ذلك محاولات كثيرة لبناء القبة من جديد إلا أن تلك المحاولات انتهت بالفشل . ولكنهم عادوا فعمروها فى زمن البطريرك يوسف الثانى (٩٨٠ م) . وأمر الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله بهدمها فهدمت (١٠٠٩ م) وهدم معها الأوقرانيون وكنيسة قسطنطين . ولكنه عاد فأجاز للنصارى أن يعيدوا البناء من جديد . فشيدوا يومئذ كنيسة القبر المقدس فقط . شيدوها على غير شكلها الأصلى ، وحال فقرهم دون إتمام الباقى . وسمح الخليفة الفاطمى المستنصر بالله (١٠٣٥ م) للنصارى ببناء الكنيسة من جديد . فشرعوا فى بنائها وتم ، البناء الجديد على عهد قسطنطين منوماخس (١٠٤٨ م).

ولما احتل الصليبيون القدس (١٠٩٩ م) وجهوا اهتمامهم إلى تعميرها . ولقد حافظوا على ما كان فيها من مبان . غير أنهم جمعوا المعابد فى كنيسة واحدة ، فوحدوا كنيسة أنسطاسيا وكنيسة الشهداء والمعابد الأخرى . وبنوا شرقى القبر كنيسة هى التى عرفت بعدئذ بكنيسة (نصف الدنيا) . وشادوا برجاً للأجراس .

وعند ما احتل صلاح الدين القدس (١١٨٧ م) أشار عليه بعض أصحابه أن يهدمها ، كى لا يبقى لنصارى الغرب حجة لغزو البلاد المقدسة ، فرفض إشارتهم بل آثر ، الاقتداء بعمر بن الخطاب ، فأبقاها ، وأمر المسلمين بألا يصيبوها بسوء . غير أنه اقتطع جانباً من دار القسوس المجاورة ، فاتخذها مسجداً

ورباطاً (خانقاه) للصلحاء الصوفيين . وفى العهد الصلاحى سلمت مفاتيح الكنيسة إلى عائلتين مسلمتين : نسيبة ، وجودة . ولا يزال أحفاد هاتين العائلتين يحتفظون بهذا الحق إلى الآن . فترى المفاتيح بيد آل جودة ، وأما فتح الأبواب وإغلاقها فإنه من واجب آل نسيبة .

ولقد رممت كنيسة القيامة بعد ذلك التاريخ مراراً عديدة . كما رمم بناء القبر المقدس فى وسطها . وكان أهم الحوادث ما جرى لها فى ١٨٠٨ م ، يوم استعرت النار فى معبد الأرمن وامتد اللهب إلى أنحاء الكنيسة ، فسقطت القبة . ولم يسلم من الأذى سوى جانب من الجلجلة وكنيسة القديسة هيلانة ومعبد اللاتين . .

وحصل الروم على إذن من السلطان محمود الثانى بترميم الكنيسة فرمموها (١٨١٠ م) وشادوا فوق القبر المقدس البناء الذى تراه فى يومنا هذا . وتصدعت الكنيسة إثر الزلزال الذى حدث فى القدس على عهد إبراهيم باشا (١٨٣٤ م) . وآخر ترميم جرى لها فى أواخر القرن التاسع عشر ، يوم اتفقت الدول الثلاثة (فرنسا وروسيا وتركيا) على أن تقوم الدولتان (فرنسا وروسيا) بنفقات التعمير وأن تتولى تركيا الإشراف على التعمير ، وهذا ما جرى . ولقد بلغت النفقات التى صرفت لتعميرها يومئذ (١٨٦٩ م) أربعين ألف ليرة ذهباً .

ولقد أصاب كنيسة القيامة ما أصاب غيرها من العمارات القديمة إثر الهزة الأرضية التى ألمت بالقدس عام ١٩٢٧ م . فتداركت الحكومة البريطانية المنتدبة الأمر بما تيسر من الوسائل التى تساعد قليلاً فى درء خطر عاجل ، ولا تنفع كثيراً فى إزالة خطر آجل . وشدت البناء فى مواضع معينة بالخشب والأسمنت المسلح بالحديد (١٩٣٠ — ١٩٣٣ م) .

وكذلك قل عن الزلزال الأخير الذى حدث سنة ١٩٣٧ م . وكان هذا أكثر خطراً على الكنيسة من الزلزال الذى سبقه . حتى إن الحكومة نصحت الناس ألا يدخلوا الكنيسة قائلة إنها لا تتحمل أية مسؤلية إذا هم أصروا على

الدخول ، ولكنهم يدخلونها كما فى السابق . وظلت الحال على ذلك المنوال إلى أن انتهى الاحتلال (١٩٤٨ م) .

الاختلافات الطائفية حول الأماكن المقدسة :

قال المستر آشبى[1] . « إن السلام الذى بشر به السيد المسيح قد يكون ظاهراً فى أى مكان آخر ، إلا بين جدران كنيسة القيامة حيث تأصلت العداوة والبغضاء منذ عصور وأجيال بين الروم واللاتين والأرمن والأقباط وما إلى ذلك من الطوائف المسيحية المتنافرة . . . من منهم يصلى قبل الآخر . . . ومن منهم يكنس هذه الناحية أو تلك من أنحاء الكنيسة . . . وأيهم على صواب فى اعتقاده أكثر من الآخر . . . . وإنه ليخيل للمرء الذى يتتبع أنباء هذه الاختلافات أنه ليس لهذه الكنيسة التى يقدسها جميع الطوائف المسيحية فى العالم أية صلة بتعاليم السيد المسيح » .

ولو أردنا أن نأتى على ذكر جميع الخلافات التى قامت بين مختلف الطوائف مذ بنت الكنيسة لما وسعها هذا الموجز . ولكننا لا نرى بدأ من ذكر الحوادث الهامة على سبيل الإيجاز فنقول . . .

بلغ الخلاف أشده بين الروم واللاتين خلال احتلال الصليبيين للقدس (١٠٩٩ م) إذ كانت كلمة اللاتين فى غضون ذلك الاحتلال هى العليا . فاستبدوا بالروم . واغتصبوا منهم بعض أملاكهم . ولما احتل صلاح الدين القدس (١١٨٧ م) تقلص النفوذ اللاتينى وتنفس الروم الصعداء . فردت إليهم أملاكهم .

A Palestine Notebook (1918-19-5). by C.R. Ashbee P. 1. (١)

وفى عام ١٢١٣ قام بين الفريقين خصام شديد أدى إلى هرب بطريرك الروم إلى القسطنطينية . ومكث فيها إلى أن مات[1] .

واطلعت على فرمان صدر سنة ١٣٩٥ م أيد فيه السلطان برقوق اللاتين فى مساكنهم .

واختلف اللاتين والكرج حول كنيسة الجلجلة سنة ١٤٩٣ م فحكم قاضى المسلمين فى القدس للكرج بالقسم الشمالى منها على أن يكون الجنوبى مشتركاً بينهما .

وفى أواسط القرن الخامس عشر ظهر فى الميدان منافس آخر هم الأرمن . فما كان ينقضى يوم دون أن يلجأ فيه أحد الأطراف الأربعة (الروم واللاتين والكرج والأرمن) إلى قاضى المسلمين بالقدس يشكو أمره . وكثيراً ما كانت الشكاوى ترفع إلى دار الخلافة فى القسطنطينية .

ووضعت السلطة إثر ذلك نظاماً يفرض على الحجاج والزائرين المسيحيين أن يقفوا عند أبواب المدينة ، وأن ينتظروا صدور الإذن لهم بدخول المدينة وزيارة الكنيسة . وعند ما يؤذن لهم بالدخول يصطحبهم دليل أقامته الدولة لهذه الغاية . وكان عليهم أن يدفعوا للدليل وللحراس القائمين على الأبواب مبلغاً من المال . وكانوا يدخلون الكنيسة فى الميعاد المضروب (بعد الظهر) ويخرجون منها فى ساعة معينة من صباح اليوم التالى .

واختلفت الطوائف المسيحية فى أواسط القرن السادس عشر : من منها يحق لها أن تدخل القبر المقدس قبل الأخرى فى سبت النور . فانعقد على الأثر مجلس فى دار المحكمة الشرعية حضره[2] عدد من قضاة المسلمين ورؤسائهم

---

(١) تاريخ الكنيسة الرسولية الأورشليمية) ص ٨١ .

(٢) السجل المؤرخ ١٩ ذى الحجة ٩٤٩ هـ — ١٥٤٢ م من سجلات المحكمة الشرعية بالقدس .

ومن ممثلي الطوائف المختلفة ، وشهد الشهود ، فتقرر أن يكون الدخول إلى القبر المقدس على الترتيب التالى :

(١) رئيس الأحباش (٢) رئيس الروم (٣) رئيس الأرمن (٤) رئيس الكرج (٥) رئيس السريان (٦) رئيس الأقباط . وتقرر أيضاً أن يحمل هؤلاء الرؤساء الشموع المضاءة عند خروجهم من الكنيسة على الترتيب نفسه .

واختلفت الطوائف فى أوائل القرن السابع عشر (١٦٠٧ م) حول الجلجلة فأصدر السلطان أحمد الأول فرماناً جاء فيه : (إن محل الجلجلة يخص الروم).

وفى سنة ١٦٣٢ حصل اللاتين على أمر من السلطان يقضى على الروم والأرمن بإخلاء القبب الثلاثة الكائنة فى كنيسة القيامة وتسليمها مع المفاتيح للآباء الفرنسيسيين .

وفى سنة ١٦٣٤م حصل الروم على فرمان من السلطان مراد الرابع يمنحهم فيه حق التقدم على الأرمن فى احتفالات كنيسة القيامة . ويمنع اللاتين من التعرض لهم فى الكنيسة المذكورة . ولقد وردت العبارات التالية فى الفرمان الذى وجهه السلطان إلى نائبه فى القدس ، قال . . « اعمل بموجب أمرى الشريف هذا وإلا قطعت رأسك هكذا ، فاعلم » .

وفى سنة ١٦٣٦ صدر بمساعى البابا وفرنسا فرمان ينقض ما جاء فى فرمان ١٦٣٤م ويثبت حقوق اللاتين .

وفى المدة الواقعة بين ١٦٤٠ و ١٦٥٨ قامت منازعات خطيرة بين الروم والأرمن من أجل بعض الأماكن المقدسة ومنها الدير المعروف بـ (دير مار يعقوب). فاستولى عليه الأرمن فى بداية الأمر . ثم استصدر الروم أمراً من السلطان بانتزاعه منهم . ثم عاد الأرمن فتغلبوا ، وحصلوا على أمر باسترجاعه . وما كان الخلاف حول هذا الدير ينتهى فى كل مرة إلا بسفك الدماء وتدخل السلطة الحاكمة .

وفى سنة ١٦٦٠م أيضاً حصل خلاف بين الروم واللاتين من أجل الصلاة

فى أحد الشعانين ودام النضال بينهما سبع سنين .

وفى سنة ١٦٧٣ اتفق الأرمن واللاتين ضد الروم . فقام على أثر ذلك شغب قتل من جرائه راهب رومى وجرح اثنان . . . واستحصل الروم على فرمان من السلطان (١٦٧٥) يقضى بنزع كل ما وضعه اللاتين فوق القبر المقدس ، وسلم القبر للروم .

وفى سنة ١٦٨٩ عاد اللاتين فتغلبوا ، وحصلوا على فرمان يقضى بمنحهم القباب التى فى كنيسة القيامة مع المغتسل ونصف الجلاجل . كما منحوا حق الصلاة على القبر المقدس . تم ذلك كله أثر تهديد الحكومة الفرنسية لتركيا . وكانت هذه قد غلبت على أمرها فى الحرب التى قامت بينها وبين روسيا وبولونيا والنمسا .

وفى سنة ١٧١٠ حصل اللاتين على أمر بتعمير الأماكن المقدسة . وأعفى رهبان الروم من المثول أمام المحاكم لا فى القدس ولا فى الشام ، وإنما فى إستانبول . واتفق الفريقان (الروم واللاتين) على أن تبقى كنيسة القيامة على حالها ، فلا يجرى تعمير فيها ولا تجديد .

واصطدم الروم بالأرمن عام ١٧٣١ إذ حصل الأرمن على حقوق قال الروم إنهم ما كانوا ليحصلوا عليها لولا أنهم حرفوا الفرمان الذى صدر فى زمن السلطان سليم الأول فاستبدلوا اسم (عطا الله) بـ (سركيس) وكلمة (الروم) بـ (الأرمن) ولكن السلطان محمود عاد فألغى ذلك الفرمان . وأعاد للروم ما أخذه منهم . وازدادت النار تأججاً عند ما أخذت فرنسا بعد معاهدة ١٧٤٠ تؤيد اللاتين وروسيا تؤيد الروم . ووصل الخلاف إلى درجة أن اللاتين أدخلوا إلى الكنيسة فى أحد الشعانين (١٧٥٦م)رجالا مسلحين . وفى أثناء الصلاة هاجموا الروم . وراح الفريقان يتضاربان ويتشاكيان ، فحصل الروم على بعض الحقوق ، واللاتين على البعض الآخر ، وأما قبر يسوع فقد اعتبر مزاراً للفريقين .

وفى ١٨٠٣م أصدر السلطان سليم الثالث أمراً خص فيه الروم بعطفه . ويظهر أن هذا الأمر قد أغاظ الأرمن فراحوا يبحثون عن طريقة للانتقام . فأحرقوا كنيسة القيامة (١٨٠٨ م) وأقفلوا أبواب الكنيسة فى وجوه رهبان الروم واللاتين الذين هرعوا إلى المكان ليطفئوا النار . ولم تنطفئ النار إلا بعد أن كانت قد أتت على الكنيسة ، ولم يسلم منها سوى جزء ضئيل .

واستحصل الروم على أمر من السلطان بتعمير الكنيسة . وقامت إثر ذلك بين الروم والأرمن مشاغبات لم يكن فى القدس عدد كاف من الجند لإخمادها . لولا أن جاءت قوة من الجند أرسلها أمير الشام . فشتتت هذه شمل الثائرين وحكمت على ٣٤ شخصاً منهم بالموت . فأعدموا شنقاً (١٨١٠ م) .

ويظهر أن سنة ١٨١١م كانت أشد السنين وأقساها على نصارى بيت المقدس إذ توترت الصلات بين الروم واللاتين وبين الروم والأرمن بسبب اختلافاتهم المتكررة . وكانت هذه تحوم حول شؤون تتعلق بالكنيسة . ووصلوا إلى حد الهجوم وسفك الدماء . وانتهت تلك الاختلافات بمنح الروم حق تعمير ما احترق من الكنيسة . وتسلم الأرمن جميع الأماكن التى كانت لهم من قبل ، على أن يدفعوا للروم المبالغ التى أنفقها هؤلاء من أجل تعميرها . وفيما عدا ذلك فقد تقرر أن يبقى كل شىء فى الكنيسة وفى الأماكن المقدسة الأخرى على ما كان عليه من قبل .

وفى سنة ١٨٢٩م حصل الأرمن على فرمان من السلطان يخولهم فيه نفس الحقوق التى يملكها الروم واللاتين فى كنيسة القيامة .

وفى سنة ١٨٣٣م اختصم الروم والأرمن من أجل كنيسة القيامة ووصلا إلى حد التضارب فى داخل الكنيسة بالعصى والحجارة . ودام الخصام اثنين وعشرين يوماً ، ولم ينته إلا عند ما صدر الأمر بأن يرجع الأرمن الحجر الذي رفعوه إلى مكانه على مقربة من القبر المقدس .

وقامت مشادة عنيفة بين الروم واللاتين على عهد إبراهيم باشا يوم زعم الروم أن اللاتين مروا فى طريقهم إلى الجلجلة من أمام القبر بينما كانوا هم يصلون . وكانت العادة فى ظرف كهذا أن يمروا من وراء القبر لا من أمامه . فاستعمل الفريقان السلاح وتراشقا بالأخشاب والحجارة .

وفى ١٨٥٢م نشأ بين الروم واللاتين خلاف من أجل نجم فضى وضعه اللاتين فى المحل الذى ولد فيه السيد المسيح بمغارة بيت لحم ، زاعمين أنه كان فى ذلك المكان نجم آخر سرقه الروم ، وتدخلت روسيا فى الأمر . واعتبرت تركيا تدخلها هذا ماساً باستقلالها . وكانت هناك عوامل أخرى أدت إلى نشوب الحرب بين الفريقين وعرفت هذه بعدئذ بحرب القرم . وانتهت بانتصار الأتراك (١٨٥٦ م) وربح الإنجليز والفرنسيون إثر ذلك بعض الامتيازات . ذلك لأنهم وقفوا إلى جانب الأتراك ، يؤيدونهم ضد الروس .

وفى ١٨٦٢ م اختلفت الطوائف . . من منها تعمر قبة القيامة . فتم الاتفاق بين تركيا وروسيا وفرنسا على أن تعمر تلك القبة على نفقة روسيا وفرنسا باسم الطوائف المختلفة وأن تتولى تركيا نفسها التعمير . فعمرت (١٨٦٩ م) .

وفى سنة ١٨٩٣ قتل فى كنيسة القيامة راهب لاتينى وجرح ثلاثة من رفاقه من ، رصاص أطلقه القواس الذى كان يرافق الحجاج الروس . ولما سئل زعم أن ذلك جرى عفواً .

وفى سنة ١٩٠١م قامت مشادة عنيفة بين الروم واللاتين انتهت إلى معركة دامية جرح فيها سبعة عشر شخصاً من الرهبان الفرنسيسيين جروحاً بالغة . وجرح مثل هذا العدد من خورة الروم . وسبب المعركة أن الروم اعترضوا على اللاتين لأنهم (كنسوا) بعض الدرجات فى ساحة الكنيسة . وقال اللاتين إن ذلك من حقوقهم ، فتدخل الجنود الأتراك فى الحال . وأعادوا النظام إلى نصابه بعد عناء شديد .

وإنى لذاكر الآن أننى عند ما سمعت بالحادث وكنت يومئذ شاباً يافعاً هرعت إلى مكانه وكانت الكنيسة قريبة من منزلنا ، ورأيت الجرحى من الحورة والرهبان ينقلون إلى المستشفيات فى حالة من الإعياء . وقد أصيب يوسف آغا الدزدار قائد الدرك يومئذ بحجر قلعت على أثره عينه .

المقدسات الإسلامية

(القدس) مدينة من أقدس المدن الإسلامية ، لا ، بل إنها ، بعد مكة والمدينة ، أقدسها طراً . يدل على ذلك اسمها ، والأماكن المقدسة التى فيها ، والتى يقدسها المسلمون على اختلاف مذاهبهم وطوائفهم ويفدون إليها من جميع أنحاء العالم .

ولا بدع فإن فيها المسجد الأقصى أولى القبلتين ، وثالث الحرمين الشريفين . بلى وربك . فقد اتخذ المسلمون القدس فى أوائل عهد الرسول ، قبلة وكانوا فى صلواتهم يولون وجوههم نحوها . ومضوا فى ذلك نحو سبعة عشر شهراً ، إلى أن اتخذوا (الكعبة) قبلة .

ولقد جاء فى الحديث الشريف عن النبى عليه الصلاة والسلام ، أنه قال : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاث : المسجد الحرام ، ومسجدى هذا ، والمسجد الأقصى » . والمقصود من المسجد الحرام مسجد مكة . ويقصد بالثانى مسجد الرسول فى المدينة .

وروى عن النبى أيضاً أنه قال : « إن الصلاة فى المسجد الأقصى أفضل من الصلاة فى غيره بخمسمئة مرة » ولهذا أمر المسلمون بأن يحرموا للحج من بيت المقدس وفى ذلك قال : « من أهلّ بالحج والعمرة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . ووجبت له الجنة » .

هذا ما حدا بالمسلمين للعناية بالقدس ، وإن شئت فقل بيت المقدس والبيت المقدس ، طول العصور الغابرة . ومن هنا جاء العدد العديد من الحجاج المسلمين الذين كانوا وما برحوا يفدون إليها فى كل سنة ، ومن كل صوب .

ومن هنا أيضاً : جاء هذا العدد الكبير من المساجد والجوامع التى نراها فى كل شارع من شوارعها ، وفى كل حى من أحيائها . وهأنذا ذاكر فيما يلى المساجد والجوامع التى رأيتها فى القدس (١٩٤٥) ومواضعها وما هى عليه اليوم من حيث البناء والعمران . وكذلك قل عن الترب والمقابر والزوايا التى ينظر إليها المسلمون بعين الإجلال والتكريم . والمسجد الإسلامى الأعلى الذى يسيطر على هذه المؤسسات وعلى جميع شؤون الوقف والمحاكم الشرعية .

المجلس الشرعى الإسلامى الأعلى :

هو المسؤول عن إدارة الشؤون والمعاهد الإسلامية التى جاء ذكرها فى هذا الفصل ، ليس فى القدس وحدها ، وإنما فى فلسطين كلها :

كانت المحاكم الشرعية الإسلامية ومصلحة الوقف وما يتبعها من مساجد وجوامع ومدارس ومؤسسات إسلامية تدار ، فى أوائل الاحتلال البريطانى ، من لدن رجال القضاء . وكان هؤلاء يعتبرون جزءاً من حكومة فلسطين . وكان يرأس دوائر القضاء مستشار هو المستر بنتويش . ولم يكن هذا يهودياً فحسب ، بل كان من رجال الحركة الصهيونية الأقحاح . وذلك قد أغضب المسلمين ، وجعلهم يلحون فى تكوين أداة إسلامية بحتة تتولى الإشراف على المحاكم الشرعية والأوقاف الإسلامية فحسب ، بل على جميع الشؤون الإسلامية . وما كادت هذه الفكرة تسود الأوساط الإسلامية حتى راحوا يتنادون . فعقدوا فى ٩ تشرين الثانى ١٩٢٠م مؤتمراً إسلامياً ضم جميع المفتين والقضاة والعلماء من أبناء فلسطين وقرروا تأسيس (مجلس شرعى إسلامى أعلى) يتولى جميع الشؤون الإسلامية بفلسطين . ووافقت حكومة فلسطين على هذه الفكرة . فصدر فى ١٢ آذار ١٩٢١م نظام نشر فى الجريدة الفلسطينية بتاريخ ١٥ آيار ١٩٢١م وتتلخص

سلطته التى حددت فى المادة الثانية بإدارة الأوقاف الإسلامية وترشيح قضاة الشرع الإسلامى وأعضاء محكمة الاستئناف ومفتش المحاكم وتعيين المفتين ومأمورى الأوقاف وموظفى الشرع وعزلهم .

ولقد ألف المجلس الأول فى ٩ كانون الثانى ١٩٢٢م من المفتى الأكبر الحاج أمين الحسينى رئيساً ومن الحاج سعيد الشوا (غزة) وعبد الله الدجانى (يافا) والشيخ محمد مراد (حيفا) وعبد اللطيف صلاح (نابلس) أعضاء . وفى البرهة الواقعة بين ١٩٢٢ – ١٩٣٥ استقال بعض الأعضاء فحل محلهم آخرون . ومن الذين تولوا العضوية ، خلال تلك المدة : أمين التميمى (نابلس) والشيخ محيي الدين عبد الشافى (غزة) وعبد الرحمن التاجى (الرملة) وأمين عبد الهادى (نابلس) والشيخ كمال إسماعيل (عنبتا) والشيخ يوسف طهبوب (الخليل) .

وتشتت المجلس الإسلامى إبان الثورة الفلسطينية (١٩٣٦ – ١٩٣٨) . إذ غادر رئيسه البلاد . وبقى بعيداً عنها إلى يومنا هذا . كما نفى التميمى إلى سيشل حيث قضى نحبه . وأعلنت الحكومة حالة الطوارىء (١٩٣٧) ؛ فعنيت أمين عبد الهادى والشيخ كمال إسماعيل والشيخ محيي الدين عبد الشافى والشيخ يوسف طهبوب لإدارة الشؤون الإسلامية . ثم استبدلت (١٩٤٧) الاثنين الأخيرين بعلى حسنا (القدس) وحسن أبى الوفا الدجانى (يافا) . وانتدبت (لجنة ثلاثية) للإشراف على أعمال المجلس من الناحية المالية : رئيسها إنجليزى (كركبرايد) وعضواها من المسلمين . ثم جعلتها كلها من المسلمين كما هى الحال فى يومنا هذا (١٩٤٧) وهم : روحى عبد الهادى (نابلس) رئيساً والشيخ توفيق الطيبى (طيبة طول كرم) ووصفى عنبتاوى (نابلس) أعضاء .

وهاجم اليهود المجلس الإسلامى مهاجمة شديدة طوال عهد الانتداب ، ولا سيما عند ما كان فيه المفتى رئيسه الأول . إذ اعتبروه مصدر القوة والإلهام للحركة العربية الوطنية فى البلاد .

جوامعها ومساجدها :

فى مدينة القدس اليوم ستة وثلاثون جامعاً ، خلا مسجدى الأقصى والصخرة تسعة وعشرون منها فى المدينة القديمة ، داخل السور . وسبعة فى المدينة الجديدة ، خارج السور . وستة من جوامع المدينة القديمة واقعة فى ساحة الحرم . وثلاثة وعشرون فى خارجه . وفى القدس كلها خمس عشرة مئذنة ، أربعة منها فى داخل الحرم وإحدى عشرة خارجه .

وإليك أسماءها والأحياء التى تقع فيها كما رأيتها بعينى سنة ١٩٤٥ :

(ا) الجوامع التى فى ساحة الحرم :

١ — جامع قبة موسى تجاه باب السلسلة من الشرق تقام فيه الصلوات الخمس
٢ — جامع باب حطة تجاه باب حطة من الجنوب تقام فيه الصلوات الخمس
٣ — جامع كرسى سليمان ملاصق للسور الشرقى تقام فيه الصلوات الخمس
٤ — جامع المغاربة عند باب المغاربة من الشرق تقام فيه الصلوات الخمس
٥ — جامع باب الغوانمة عند باب الغوانمة من الشرق فيه الآن دار الكتب والمتحف الإسلامى .
٦ — جامع دار الإمام عند باب المجاهدين مهجور

(ب) الجوامع التى فى خارج الحرم وداخل السور :

١ — جامع باب خان الزيت فى سوق خان الزيت وتقام فيه الصلوات الخمس

٢ ـــ جامع حارة اليهود الكبير	فى الطرف القبلى لحارة اليهود له مئذنة ، ولكنه اليوم مهجور . وقد اتخذته الحكومة مخفراً للبوليس .
٣ ـــ جامع حارة اليهود الصغير	فى الطرف الشمالى لحارة اليهود يصلى فيه أهل السوق صلاة الظهر والعصر فقط .
٤ ـــ جامع سويقة علون	فى سويقة علون تقام فيه الصلوات الخمس
٥ ـــ جامع القلعة	داخل القلعة بباب الخليل له مئذنة ولكن قلّ أن تقام فيه الصلاة .
٦ ـــ جامع الخانقاة	إلى الشمال الغربى من كنيسة القيامة . تقام فيه الصلوات الخمس وله مئذنة .
٧ ـــ جامع قمبر	ملاصق للسور الشمالى عند الباب الجديد . تقام فيه الصلوات الخمس .
٨ ـــ الجامع العمرى	فى حارة النصارى قبلى كنيسة القيامة . له مئذنة وتقام فيه الصلوات الخمس .
٩ ـــ الجامع اليعقوبى	تجاه القلعة من الشرق بباب الخليل . تقام فيه الصلوات الخمس .
١٠ ـــ جامع بنى حسن	تجاه القلعة من الشرق بباب الخليل . مهجور
١١ ـــ جامع حارة الأرمن على	مقربة من دير الأرمن . مهجور
١٢ ـــ جامع طريق النبى داود	على طريق النبى داود . مهجور
١٣ ـــ جامع حارة الجوالدية	أمام دير الإفرنج من الغرب . مهجور
١٤ ـــ جامع الشيخ لولو	عند باب العمود على مقربة من السور . تقام فيه الصلوات الخمس .
١٥ ـــ الجامع الصغير	عند مفترق طريقى الواد وباب العمود . تقام فيه الصلوات الخمس .

١٦ — جامع البراق ملاصق لحائط البراق فى حارة المغاربة . تقام فيه الصلوات الخمس .

١٧ — جامع خان السلطان فى خان السلطان بسوق باب السلسلة . تقام فيه الصلوات الخمس .

١٨ — جامع القرمى فى حارة القرمى مهجور

١٩ — جامع حارة النصارى على طريق باب خان الزيت . تقام فيه الصلوات الخمس .

٢٠ — جامع البازار فى سوق البازار تقام فيه الصلوات الخمس

٢١ — جامع الزاوية النقشبندية فى داخل الزاوية النقشبندية على درب الآلام . تقام فيه الصلوات الخمس .

٢٢ — جامع المولوية فى داخل الزاوية المولوية بحارة السعدية . يصلى فيه أهل الزاوية فقط . وله مئذنة .

٢٣ — جامع زاوية الهنود فى داخل زاوية الهنود تجاه باب الساهرة. تقام فيه الصلوات الخمس

(حـ) الجوامع التى فى المدينة الجديدة خارج السور .

١ — جامع الشيخ جراح فى حى الشيخ جراح على طريق نابلس . له مئذنة . وتقام فيه الصلوات الخمس .

٢ — الجامع المسعودى فى حى سعد وسعيد على طريق نابلس . له مئذنة . وتقام فيه الصلوات الخمس .

٣ — جامع وادى الجوز فى حى وادى الجوز له مئذنة . وتقام فيه الصلوات الخمس .

٤ — جامع حجازى في حى باب الساهرة . له مئذنة . وتقام فيه الصلوات الخمس .

٥ — جامع النبي داود في حى النبي داود . له مئذنة . وتقام فيه الصلوات الخمس .

٦ — جامع عكاشة في حى زخرون موشه اليهودى . له مئذنة . وتقام فيه الصلوات الخمس .

٧ — جامع المطحنة بين النبي داود وحارة الشرف مهجور .

زواياها :

في القدس اليوم عدد من الزوايا أعدت لاجتماع الدراويش من مختلف الطرق ونزول الغرباء من المسلمين الذين ينتمون إلى تلك الطرق ويهبطون القدس بقصد الزيارة . نذكر منها :

(الزاوية النقشبندية) ويسمونها الأزبكية . واقعة في حارة الواد على درب الآلام ، وعلى مقربة من باب الغوانمة إلى الغرب . بناها مؤسس الطريقة النقشبندية الشيخ محمد بهاء الدين نقشبند البخارى (١٦١٦ م) لإيواء الغرباء ، وإطعام الفقراء من مسلمى بخارا وجاوا وتركستان .

(زاوية الهنود) واقعة تجاه باب الساهرة من أبواب المدينة ، على بعد بضع خطوات من سورها الشمالى . أسسها بابا فريد شكركنج من مسلمى الهند . وكان ذلك في أواسط القرن السادس للميلاد . ذكرها مجير الدين فقال إنها قديمة العهد . كانت بادئ ذى بدء مخصصة لفقراء الطريقة الرفاعية . ثم راح الهنود ينزلون بها . وللزاوية أملاك موقوفة بباب حطة . ولقد تبرع لهذه الزاوية بعض أغنياء

الهنود ، ومنهم نظام حيدر آباد ، وصادق محمد خان ، بأموالهم . فأضافوا إليها (١٩٢٤ – ١٩٤٣) العمارات الجديدة التي يراها الداخل إلى يمينه (دهلى منزل) وإلى يساره (ترافنقور منزل) وأمامه (عثمان منزل) .

وفى هذه الزاوية مسجد بنى فى أواخر القرن التاسع عشر .

(الزاوية الأدهمية) بين باب العمود وباب الساهرة ، خارج السور ، وعلى بعد مئتى متر منه إلى الشمال . ويعتقد البحاثة الأثرى كليرمان غانو أنها مغارة أرميا النبي . ويقيم فيها الآن جماعة من آل البديري .

(الزاوية الرفاعية) ويسمونها زاوية أبى السعود . واقعة فى داخل الحرم ، تحت مئذنة باب الغوانمة .

(زاوية الشيخ جراح) فى حى الشيخ جراح على طريق نابلس . واقفها الأمير حسام الدين الحسين بن شرف الدين عيسى الجراحى من أمراء الملك صلاح الدين (١٢٠١ م) . وفى ظاهرها من الناحية القبلية قبور جماعة من آل الجراح وآخرين من المجاهدين .

(الزاوية اللؤلؤية) بباب العمود فى داخل السور . وهى وقف بدر الدين لؤلؤ غازى .

(الزاوية البسطامية) بحارة المشارقة . واقفها الشيخ عبد الله البسطامى .

(الزاوية القادرية) ويسمونها زاوية الأفغان . لأن أكثر المنتمين إليها من بلاد الأفغان ، إنها فى حارة الواد ، وعلى بعد بضعة أمتار من الزاوية النقشبندية إلى الجنوب الغربى : هناك على بابها بلاطة نقشت عليها كلمات تدل على أنها زاوية مولانا وسيدنا قطب العارفين وسلطان الأولياء الشيخ عبد القادر « الجيلانى » وكان ذلك سنة ١٦٣٣ م .

(الزاوية المولوية) واقعة فى حارة السعدية . يقيم فيها أشخاص ينتمون إلى

الطريقة المولوية، تلك الطريقة التى ، أنشأها مولانا جلال الدين الرومى . أصله من فارس . وقد استقر به المقام ، بعد أن حج إلى بيت الله الحرام ، فى قونية من أعمال سلطنة بنى عثمان ، وكان ذلك فى أوائل القرن الثالث عشر .

دخلت هذه الطريقة بيت المقدس فى أوائل الحكم العثمانى (١٥١٩ م) وبعد ذلك بقليل أسس أتباعها فى القدس مكاناً أسموه (الخانقاه المولوية) . ويظهر أن الطابق الأرضى لهذه الخانقاة كان فى غابر الأزمان ديراً . وكان فيه كنيسة للاتين .

واتخذت هذه ، بعدئذ ، مسجداً . ولقد تم ذلك فى العهد الأيوبى . ومن قائل إنه تم فى أوائل حكم المماليك . وأما الطابق العلوى والمئذنة التى بجانبه فإنهما من عمل الأتراك العثمانيين (١٥٨٦ م) .

(الزاوية المجيدية) واقعة فى حى النبى داود ، وإلى الشمال من ضريحه . شيدت على عهد السلطان عبد المجيد (١٨٤٩ م) .

وهناك فى الحقيقة أربع زوايا ، لا زاوية واحدة ؛ هى : الزاوية المجيدية . وزاوية عيال طه ، وزاوية عيال شاكر ، وزاوية عيال خليل . كلها على مقربة من مقام الضريح الذى دفن فيه النبى داود . ويقع المقام على ربوة عالية من الربى التى تؤلف مدينة القدس . ويقوم على سدانته جماعة من آل الدجانى ، ويعرفون بالدواهدة نسبة إلى النبى داود . وهذا المكان بيد المسلمين من أوائل الفتح الإسلامى . وكثيراً ما اختصم المسلمون مع الطوائف الأخرى من أجل الاحتفاظ به . إذ يدعى المسيحيون أن السيد المسيح تناول عشاءه السرى الأخير فى هذه البقعة من المدينة ، وهى التى يسمونها (علية صهيون) .

تربها ومقابرها :

فى القدس مقابر إسلامية كثيرة ، وترب لا تعد ولا تحصى . منها ما كان مستعملا فيما مضى : وقد اندثر مع الزمن ؛ ومنها ما لا يزال مستعملا حتى يومنا هذا .

فمن المقابر المطروقة فى يومنا هذا (١٩٤٧ م) :

(مقبرة باب الساهرة) للمسلمين . واقعة عند سور المدينة من الشمال ، على بعد بضعة أمتار من الباب المعروف بالساهرة ، إنها قديمة العهد ، ذكرها النابلسى فى رحلته والحنبلى فى تاريخه . ويقال إن أول من استعملها كان صلاح الدين . إذ دفن فيها المجاهدين الذين لاقوا حتفهم عند فتح المدينة وتخليصها من الصليبيين .

(المقبرة اليوسفية) للمسلمين أيضاً . وهى واقعة عند باب الأسباط وإلى الشمال من مقبرة باب الرحمة ، عمرها الأمير قانصوه اليحياوى كافل المملكة الشامية فى عهد المماليك (١٤٦٧ م) .

(مقبرة باب الرحمة) عند سور الحرم من الشرق . كانت فيما مضى أوسع منها فى يومنا هذا . وكانت ممتدة من السور حتى الموضع التى تقوم عليه الآن كنيسة ستنا مريم . فيها قبور عدد من الصحابة والمجاهدين الذين اشتركوا فى الفتحين : الفتح العمرى والفتح الصلاحى . ولقد ذكرها العالم الهولندى الشهير (ماكس فان برشام) فقال إنها كانت مدفناً للإخشيديين .

(مقبرة النبي داود) واقعة على جبل صهيون ، فى الحى المعروف بالنبى داود . وفى الحقيقة أنه يوجد هناك ثلاث مقابر : كلها لآل الدجانى . إحداها وهى الكبرى واقعة شرقى مقام النبي داود . وهذه مخصصة لعائلة الشيخ سليمان

الدجانى وحفدته . والثانية متوسطة وهى لعائلة الشيخ أنيس الدجانى وحفدته . والثالثة وهى الصغرى مخصصة لدفن الأطفال ، ويسمونها (تربة المنسى) نسبة إلى الشيخ محمد المنسى الجد الأول للعائلة الدجانية ، ويقال إنه صحابى .

هذه هى مقابر المسلمين المطروقة فى يومنا هذا . وهناك المقبرة التى يسمونها (ماملا) فقد كانت هذه من أكبر المقابر الإسلامية فى بيت المقدس، لا ، بل أكبرها طراً . ولما اتسع العمران وأصبحت فى وسط البنيان أصدر المجلس الإسلامى الأعلى أمراً (١٩٢٧ م) حظر به دفن الأموات فيها .

ويسمونها أيضاً (مأمن الله) . ذكرها معظم المؤرخين فقالوا إنها مدفن الخلاصة الأبرار ، وأن من دفن فيها كأنما دفن فى السماء . وقال بعضهم إنها كانت فيما مضى من الأيام للنصارى(١) . وقال قائل إنها كانت لليهود . ومهما قيل فيها وفى أصلها فإنه مما لا شك فيه أن تاريخهاساير تاريخ المدينة من أوله إلى آخره .

فى هذا المكان مسح سليمان ملكاً (١٠١٥ ق م) . وفيه عسكر سنحاريب ملك الأشورين (٧١٠ ق م) . وفيه ألقى الفرس بجثث القتلى من المسيحيين عند ما احتلوا المدينة (٦١٤ م) . وفيه دفن عدد كبير من الصحابة والمجاهدين فى الفتحين : العمرى (٦٣٦ م) والصلاحى (١١٨٧ م) . وهى الآن وقف من أوقاف المسلمين . يجلونها إجلالا منقطع النظير .

وفى القدس ترب قديمة أصبحت ، مع تقادم العهد ، مهجورة ، نذكر منها : —

(تربة علاء الدين البصرى) عند باب الناظر من أبواب الحرم من الناحية الغربية إلى الشمال . مدفون فيها الأمير علاء الدين آيد وغدى (١٢٩٣ م) . من أمراء المماليك . .

---

(١) "Archeological Researches in Palestine" by Charles Clermont Gannean, Vol. 2. P. 279.

(التربة الأوحدية) على مقربة من باب حطة شمالى الحرم . أنشأها الملك الأوحد نجم الدين يوسف بن الملك الناصر صلاح الدين داود (١٣٩٨ م) .

(التربة الجالقية) عند ملتقى طريق باب السلسلة بطريق الواد . ذكرها مجير الدين فقال إنها وقف ركن الدين بيبرس الصالحي المعروف بالجالق وهو من أمراء الملك المنصور قلاون . وهو مدفون بها (١٣٠٧ م) .

(التربة السعدية) بباب السلسلة تجاه المدرسة البكرية . واقفها الأمير سعد الدين مسعود بن الأمير أسفهسلار بدر الدين منتصر بن عبد الله الجاشنكر الروى (١٣١٣ م) من أمراء الملك الناصر محمد بن قلاون .

(التربة الكيلانية) غربى المدرسة الطازية على طريق باب السلسلة . عمرها الحاج جمال الدين بهلوان بن الأمير شمس الدين قراد شاه المشهور بابن الصاحب كيلان (١٣٥٢ م) ، وبها ضريحه .

(التربة الطشتمرية) على مقربة من الكيلانية . وقفها الأمير طشتمر العلائى (١٣٨٢ م) وهو مدفون بها .

(تربة توركان خاتون) إلى الشمال من طريق باب السلسلة عند التقاء هذه الطريق بطريق الواد ، مدفون بها توركان خاتون بنت طقتاى بن سلجوتاى الأزبكى (١٣٥٢ م) .

(تربة حسام الدين بركة خان) مقابل المدرسة الطازية بخط داود . عمرت سنة ٧٩٢ هـ . وفيها الآن المكتبة الخالدية .

(تربة القرمى) فى حارة الواد ، بين باب خان الزيت والحرم القدسى . مدفون بها الشيخ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد القرمى (١٣٨٦ م) . وكان رجلا صالحاً من أعيان بيت المقدس .

(تربة المثبت) على بعد بضعة أمتار من تربة القرمى ، ومنها إلى الشمال . مدفون بها الشيخ أحمد المثبت ، نقيب الشيخ القرمى

(تربة الست) واقعة فى عقبة التكية إلى الشمال من دار الأيتام الإسلامية . ويسمونها أيضاً تربة خاصكى سلطان . مدفون بها خاصكى سلطان زوجة السلطان سليمان القانونى (١٥٥٢ م) .

(تربة عكاشة) فى حى معروف بظاهر القدس بجهة الشمال مما يلى الغرب . لا نعرف عنها سوى أنه مدفون بها الصحابى المعروف عكاشة .

(تربة الشيخ جراح) على طريق نابلس ، وعلى بعد كيلو مترين من سور المدينة إلى الشمال .وقفها الأمير حسام الدين الحسين بن شرف الدين عيسى الجراحى (١٢٠١ م) ، من أمراء الملك صلاح الدين . وهو مدفون بها .

(تربة القيمرية) واقعة بالقرب من ضريح الصحابى عكاشة وفى الحى المعروف باسمه غربى المدينة . مدفون بها جماعة من الشهداء الصالحين ، وهم الأمير حسام الدين أبو الحسن بن أبى الفوارس القيمرى (١٢٥٠ م) . والأمير ضياء الدين موسى بن أبى الفوارس (١٢٥٠ م) . والأمير حسام الدين حصر القيمرى (١٢٦٢ م) والأمير ناصر الدين بن الحسن القيمرى (١٢٦٦ م) . والأمير ناصر الدين محمد جابر بك ناظر الحرمين الشريفين بالقدس والخليل (١٣٧٤ م) .

تلك هى مقابر المسلمين وتربهم .

ويتناول بحثنا فى السطور التالية الكلام عن الحرم . ذلك المكان الإسلامى الرفيع الذى يقوم عليه مسجد الصخرة المشرفة والمسجد الأقصى وما بينهما وحولهما من مساجد ومنشآت . فنقول :

مسجد الصخرة :

بناه الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان ؛ بعد أن استشار المسل

ورصد لبنائه خراج مصر لسبع سنين ، وعهد بإدارة العمل إلى اثنين من رجاله هما : رجاء بن حياة بن جود الكندى أحد العلماء الأعلام فى صدر الإسلام ، وهو من بيان ، ويزيد بن سلام من مواليه ، وهو من القدس .

شرع البناءون فى البناء سنة ٦٦ هـ — ٦٨٥ م وفرغوا منه سنة ٧٢ — ٦٩١ م هذا هو القول الصحيح ، وإن قال غيره بعض المؤرخين .

ولما كان قد بقى من المبالغ المخصصة للبناء مئة ألف دينار ، فقد أمر عبد الملك بها جائزة إلى رجاء ويزيد . إلا أنهما رفضاها قائلين : نحن أولى أن نزيده من حلى نسائنا ، فضلا عن أموالنا . فاصرفها فى أحب الأشياء إليك . « فأمر بأن تسبك ذهباً وتفرغ على القبة والأبواب » .

نقش اسم عبد الملك بن مروان بالخط الكوفى المذهب على قناطر التثمينة الوسسى من الناحية الجنوبية الشرقية من الداخل .

وراح الناس يزورون المسجد من كل فج ، ويطوفون حول الصخرة ، كما كانوا يفعلون حول الكعبة . ولقد أعجبوا به وبقبته الجميلة وبنائه المتين ، وتكوينه الرائع . ذلك لأنهم رأوا فيه جمال الهندسة العربية والذوق العربى ممتزجاً بشيء من الطراز الفارسى والأسلوب البيزنطى . ووصفه المؤرخون ، فأجمعوا على أنه من أجمل الأبنية الكائنة على وجه البسيطة . لا ، بل إنه — كما قال الأستاذ هايتر لويس[١] — من أجمل الآثار التى خلدها التاريخ » .

ذهب بعض المؤرخين ، ومنهم اليعقوبى ، إلى أن الغاية من بناء مسجد الصخرة بهذا الشكل البديع الاستعاضة عن الكعبة . إذ كان عبد الله بن الزبير قد ثار على الأمويين ، وأعلن استقلاله فى الحجاز (٦٨٠ م) . فأراد عبد الملك أن يصرف الناس عن الكعبة ، لئلا يأخذهم ابن الزبير ، عند الحج ، بالبيعة .

---

(١) The Holy Places of Jerusalem, By Hayter Lewis, P. 26.

ويقول اليعقوبى إن المسلمين ضجوا عند ما أدركوا الغاية من بناء الصخرة وهى صدهم عن الحج .

ولكن عبد الملك تمكن من إقناعهم بالإشارة إلى ما قاله النبى عليه الصلاة والسلام : لا تشد الرحال إلا إلى ثلاث : المسجد الحرام ، ومسجدى هذا ، والمسجد الأقصى » .

ومنهم من يرى أن عبد الملك إنما بناه ليكون للمسلمين مسجداً يضاهى فى بهائه وسحره ما لكنائس النصارى من الروعة ، ولا سيما كنيسة القيامة . فقد روى المقدسى أنه، أى عبد الملك، عند ما رأى قبة القيامة ، وكان المسيحيون يحجون إليها من كل صوب ، خشى أن تؤثر بفخامتها وروعتها على قلوب المسلمين . فاعتزم أن يبنى فى القدس قبة مثلها أو أحسن . وفعل .

وقد أصاب المسجد ما أصابه مذ بناه عبد الملك بن مروان بسبب الزلازل والعواصف والأمطار . فقد حدثنا التاريخ أنه ما من ملك من ملوك العرب والمسلمين حكم القدس إلا وكان له بعض الفضل فى ترميمه . منهم الوليد بن عبد الملك (٧٠٥ م) والخليفة العباسى المأمون (٨٣١ م) . حتى إن العمال الذين تولوا الترميم يومئذ أرادوا أن يتزلفوا للمأمون ، فاستبدلوا اسمه باسم الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان . ولكنهم ، لحسن حظ التاريخ ، غفلوا عن تغيير السنة التى جرى فيها الترميم .

وسقط بعض أجزاء القبة إثر زلزال حدث فى زمن الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله (١٠١٦ م) . فرممت فى خلافة ولده الظاهر لإعزاز دين الله (١٠٢٢م).

وحول الصليبيون مسجد الصخرة ، عند ما احتلوا القدس (١٠٩٩ م) ، إلى كنيسة . وبنوا على الصخرة مذبحاً. وكانوا يسمونها Templum Domini أى هيكل السيد العظيم . وأنشأوا الحاجز المصنوع من الحديد المشبك ، وهو الذى يفصل الصخرة عن المسجد . وكان قسوس النصارى فى بادئ الأمر

يقطعون من الصخرة قطعاً يحملونها إلى بلادهم ، فيبيعونها بوزنها ذهباً . وذلك مما جعل الصليبيين يكسونها بالرخام .

ولما فتحت القدس على يد صلاح الدين ، أزال هذا عن الصخرة معالم الكنيسة . فرفع المذبح ، ومحا الصور والتماثيل . كما رفع الرخام الذى وضعه الصليبيون، وستر جدران المسجد بالرخام ، وزين القبة من الداخل بالنقوش الجميلة . ولقد أشير إلى ذلك فى الكتابة التى نقشت يومئذ فى القبة من الداخل .

وعنى ملوك بنى أيوب كلهم ، بعد موت صلاح الدين بمسجد الصخرة . فكانوا يكنسونها بأيديهم ، ويغسلونها بماء الورد، وإن الحاجز الخشبى الذى يحيط بالصخرة نفسها من صنع الملك العزيز عثمان .

وكذلك قل عن المماليك ، فقد اعتنوا جميعاً بعمارة المسجد . ومن هؤلاء الملك الظاهر بيبرس (١٢٧٠ م) . والملك العادل زين الدين كتبغا المنصورى (١٢٩٤ م) . والملك الناصر محمد بن قلاون (١٣١٨ م) . واسم هذا الملك منقوش فى أسفل رقبة القبة من الداخل .

وفى زمن الملك الظاهر برقوق جددت دكة المؤذنين (١٣٨٧ م) تلك الدكة التى تراها أمامك إذا ما دخلت المسجد من بابه القبلى .

وتم ، على يد الملك الأشرف برسباى (١٤٣٢ م) بعض الترميم . وأوقف بعض الأملاك ، خصص ريعها لعمارة المسجد . وأنعم الملك الظاهر جقمق (١٤٤٨ م) على ناظر الحرم بألفين وخمسمائة دينار ذهبٍ ومئة وعشرين قنطاراً من الرصاص ، عمر بها السقف .

وفى زمن الملك الأشرف قايتباى (١٤٦٧ م) صنعت الأبواب النحاسية

وكذلك قل عن سلاطين الأتراك . فلم يعتل العرش واحد منهم إلا فكر فى ترميم مسجد الصخرة أو تعمير جانب من جوانبه . ومن هؤلاء السلطان سليمان المعروف بالقانونى (١٥٤٢ م) فقد كسا الجدران من الخارج وكسا قبة

السلسلة بالرخام والقاشانى . وأن معظم النوافذ المصنوعة من الفسيفساء من آثاره وهو الذى عمر الباب الشمالى المعروف بباب الجنة .

ومن سلاطين بنى عثمان الذين عنوا بعمارة الصخرة السلطان محمود (١٨١٧م) والسلطان عبد المجيد (١٨٥٣ م) والسلطان عبد العزيز (١٨٧٤ م) والسلطان عبد الحميد الثانى (١٨٧٦ م) ..

ولقد طرأ على القبة وعلى جدران المسجد ، مع تقادم العهد ، خلل بفعل الرياح وتسربت مياه الأمطار إلى الجدران . فاهتم المجلس الإسلامى الأعلى الذى كان يرأسه الحاج أمين الحسينى بالأمر ، ورممه (١٩٣٨ م) ترميما مؤقتاً حال دون وقوع خطر عاجل .

ومسجد الصخرة اليوم (١٩٤٥ م) لا يزال محتفظاً ببهائه القديم إلا أنه فى حاجة إلى تعمير شامل يتناول جميع أنحائه . إنه واقع فى وسط فناء واسع مرتفع عن أرض الحرم . قبته مستديرة ، قطرها ٢٠,٤٤ متراً . وارتفاعها عن أرض المسجد ١٠٥ أقدام . وهى مؤلفة من طبقتين خشبيتين : واحدة فوقانية وهى مكسوة بصفائح الرصاص وأخرى تحتانية مزخرفة بمجموعة من الفصوص الذهبية الملونة التى لا نظير لها فى معابد الشرق والغرب . غير أن جزءاً من هذه الفصوص قد عفا وجزءاً آخر قد أعيد مع الزمن بطلاء من الجص تكسوه الأصباغ . وما تبقى من الفصوص الأصلية فى حاجة إلى التثبيت . وتحت القبة تقوم الصخرة وطولها من الشمال إلى الجنوب ١٧,٧٠ متراً، وعرضها من الشرق إلى الغرب ١٣,٥٠ متراً . وارتفاعها عن الأرض يتراوح بين المتر والمترين وحولها درابزين من الخشب المنقوش والمدهون ، وحول هذا الدرابزين مصلى للنساء يفصل بينه وبين مصلى الرجال قضب حديدية مشبكة هى التى قلنا إنها من صنع الصليبيين .

وأما الصخرة نفسها فإنها مقدسة فى نظر المسلمين ، وما ذكروها مرة إلا وقالوا عنها إنها الصخرة المشرفة ، ومصدر شرفها أن النبى محمداً عليه الصلاة

والسلام عرج منها إلى السماء ليلة الإسراء . وقيل إن إبراهيم عليه السلام قدم على هذه الصخرة ولده إسماعيل ضحية . وإن سليمان بنى عليها هيكله .

وتحت الصخرة مغارة ينزل إليها بإحدى عشرة درجة ، يسمونها مغارة الأنبياء

وفى رقبة القبة ست عشرة نافذة من الزجاج المذهب . والقبة نفسها تقوم على اثنى عشر عموداً من الرخام ، وأربع أساطين (سوارى) فى غاية من الإحكام والإتقان . وهى مكسوة بالرخام الأبيض المعرق .

وأما البناء الذى حول الصخرة فإنه بناء فخم مثمن الأركان . وهو مكون من تثمينتين : إحداهما خارجية ، وهى التى تتكون منها جدران المسجد . طول كل ضلع من أضلاعها الثمانية ٢٠,٩٥ متراً . وارتفاعه ٩,٥٠ أمتار . هذا عدا الحائط العلوى (أى الدورة) فارتفاعه ٢,٦٠ متران . وفى كل ضلع من أضلاع هذه التثمينة سبع نوافذ . خمس ينفذ منها النور ، واثنتان مسدودتان . إلا الأضلاع التى فيها أبواب المسجد الأربعة فإن فى كل ضلع أربع نوافذ ، ينفذ النور منها . وهناك فى كل من الأضلاع الأربعة الأخرى شباك كبير ، يفتح ويغلق عند اللزوم . وقصارى القول إن فى جدران المسجد ستاً وخمسين نافذة ، أربعون ينفذ النور منها .

وأما التثمينة الداخلية وهى بين جدران المسجد والأعمدة الحاملة للقبة ؛ فإنها مرفوعة على ثمانى أسطوانات ملبسة بالرخام ، وستة عشر عموداً مختلفة الألوان . وبين التثمينتين رواق الصلاة . وكذلك قل عن الرواق الكائن بين التثمينة الداخلية والدائرة الحاملة للقبة .

وتحمل هذه الأعمدة مع جدار المسجد سقفاً مزخرفاً بأنواع الدهان ، تدعمه قناطر مرصعة بالفصوص الذهبية ، ويتصل طرفه بكرسى القبة . وجدران المسجد كلها من الداخل مكسوة بالرخام ، وأما من الخارج فإن القسم الأسفل منها فقط مكسو بالرخام ، والقسم الأعلى بالقاشانى البديع . غير أن

القاشانى الذى كان يكسو الضلع الغربى سقط بفعل العواصف والأمطار وتأثير الزمن .

ولمسجد الصخرة أربعة أبواب مزدوجة ، مصنوعة من الخشب ، ومكسوة بصفائح الرصاص .

والفناء الذى يقوم عليه المسجد واسع ومربع الشكل وهو مفروش بالبلاط الأبيض من أيام الملك المنصور قلاون . إنه أعلى من أرض الحرم ويصعد إليه ، من الجهات الأربع ، بأدراج يقوم على كل منها قنطرة يسندها أعمدة من رخام .

وإلى الشرق من مسجد الصخرة ، وعلى بعد بضعة أمتار منه إلى الشرق تقوم (قبة السلسلة) . إنها من صنع عبد الملك بن مروان، وقد بناها نموذجاً يسير عليه البناءون ، واتخذها بعدئذ بيتا للمال . وزخرفت بالقاشانى فى عهد السلطان سليمان القانونى .

وهناك ، فى فناء الصخرة ، قباب أخرى منها : (قبة المعراج) غربى المسجد إلى الشمال . بناها الاسفهلار عز الدين عثمان بن على بن عبد الله الزنجيلى متولى القدس (١٢٠٧ م) و (محراب النبى) بين مسجد الصخرة وقبة المعراج . أنشأه الأمير محمد بك صاحب لواء غزة والقدس (١٥٣٨ م) . و (قبة يوسف) على بعد مئة متر من مسجد الصخرة إلى الجنوب . بناها الأمير الاسفهلار سيف الدين على بن أحمد فى عهد صلاح الدين (١١٩١ م) . و (القبة النحوية) إلى الجنوب من صحن الصخرة عند الدرج المؤدى إلى باب السلسلة، بناها والى القدس الأمير حسام الدين أبو سعد قمباز بأمر من الملك المعظم عيسى (١٢٠٧ م) . و (قبة الشيخ الخليلى) على بعد بضعة أمتار من قبة المعراج إلى الشمال الغربى . و (قبة الخضر) فى الطرف الأخير لصحن الصخرة من الشمال الغربى ، وهى قبة صغيرة مرفوعة على ستة أعمدة رفيعة من الرخام .

وفى فناء الصخرة ست عشرة غرفة أنشئت خلال القرن الثانى عشر للهجرة من أجل سدنة المسجد ورجاله من أئمة وخطباء ومؤذنين ومدرسين ، ومن أجل الجند الذين تقيمهم السلطة بقصد الحراسة .

وهناك ، فى أرض الحرم ، قباب ومنشآت أخرى ، نذكر منها :

(قبة سليمان) واقعة إلى الجنوب الغربى من الباب المعروف بالدوادارية من أبواب الحرم الشمالية . إنها قبة مثمنة تقوم على أربعة وعشرين عموداً من الرخام، قيل إنها من منشآت بنى أمية . أقيمت على أنقاض بناء قديم من آثار سليمان .

و (قبة موسى) تجاه باب السلسلة وعلى بعد بضعة أمتار منه إلى الشرق أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب (١٢٤٩ م) . وكانت على عهده تدعى قبة الشجرة .

المسجد الأقصى :

بعد أن أتم عبد الملك بن مروان بناء مسجد الصخرة بنى ، إلى الجنوب منه وعلى بعد بضع مئات من الأمتار ، المسجد الأقصى . وقد تم ذلك سنة ٧٤ هـ — ٦٩٣ م وهذا ما قاله معظم المؤرخين . وهناك من يقول إن الذى بنى المسجد هو الوليد بن عبد الملك ، وليس عبد الملك نفسه . ويستدل هؤلاء على صحة قولهم بما جاء فى الرسائل التى كتبها (قرة بن شريك) عامل الأمويين على مصر فى عهد الخليفة الوليد إلى أحد حكام الصعيد (٧٠٥ م) طالباً منه أن يرسل إليه صناعاً ماهرين لمسجد بيت المقدس . والرأى عندى أنه شرع فى البناء فى زمن عبد الملك بن مروان (٦٩٣ هـ) وقد تم فى زمن ابنه الوليد (٧٠٥ م) .

ولقد طرأ على هذا المسجد تغييرات كثيرة بسبب الزلازل والعواصف والأمطار

وكانت أبوابه ، فى زمن الأمويين ، ملبسة بصفائح الذهب والفضة . ولما قدم أبو جعفر المنصور ، وكان شرقى المسجد وغربيه قد وقع بسبب الزلزال (٧٤٧ م) أمر بقلع هذه الصفائح . فقلعت ، وضربت دنانير ، وأنفقت عليه حتى فرغت (٧٧١ م) .

وحدث زلزال آخر سنة (٧٧٤ م). فوقع البناء الذى أقامه المنصور . فأمر المهدى بتعميره . وعمر (٧٨٠ م) . إلا أنهم أنقصوا من طوله يومئذ وزادوا فى عرضه .

وخرب المسجد الذى عمره المهدى إثر زلزال وقع فى(١٠٣٣ م). فعمره الخليفة الفاطمى الظاهر لإعزاز دين الله (١٠٣٤ م) حاذفاً أربعة أروقة من كل جانب ، وإن القبة الحالية والأبواب السبعة التى فى شمال المسجد من صنع الظاهر لإعزاز دين الله . وهناك كتابة بالخط الكوفى وبالفسيفساء المذهبة منقوشة على واجهة القوس التى تحمل القبة من الشمال ، تشير إلى ما فعله الظاهر فى ذلك التاريخ .

وفى زمن الخليفة الفاطمى المستنصر بالله (١٠٦٦ م) جددت واجهة المسجد الشمالية .

ولما احتل الصليبيون القدس (١٠٩٩ م) استغلوا المسجد لصالحهم ، فجعلوا قسما منه كنيسة ، واتخذوا قسما آخر مسكناً لفرسان الهيكل ، واستعملوا القسم الباقى مستودعاً لذخائرهم ؛ مضيفين إلى البناء القديم بعض القناطر المعقودة . وكانوا يسمونه Palatium Tempelum Solomones

وعندما استرد صلاح الدين القدس من الصليبيين (١١٨٧ م) أمر بإصلاح المسجد الأقصى ؛ فجدد محرابه ، وكسا قبته بالفسيفساء ، وأزال كل أثر فيه للصليبيين . وهناك فوق المحراب كتابة نقشت بالفسيفساء المذهبة تشير إلى ما فعله صلاح الدين .

وأتى صلاح الدين من حلب بالمنبر الخشبي الجميل الذى صنعه نور الدين محمود بن زنكى .

ولقد عنى ملوك بنى أيوب ، بعد موت صلاح الدين ، بالمسجد الأقصى . فكانوا يكنسونه بأيديهم ، ويغسلونه بماء الورد . وكان أشدهم اهتماماً الملك المعظم عيسى . فإنه هو الذى أنشأ (١٢١٧ م) الرواق الذى يكون الواجهة الشمالية لهذا المسجد . وهذا الرواق مؤلف من سبعة أقواس معقودة . يقابل كل واحد منها باباً من أبواب المسجد السبعة . وعلى واجهة الرواق الأوسط بلاطة من الرخام ، نقشت عليها كلمات تشير إلى ما فعله هذا الملك .

ولم يكن المماليك أقل اهتماماً بالمسجد الأقصى من الأيوبيين . فقد حدثنا التاريخ أن الذى عمر سقف هذا المسجد من الناحية القبلية مما يلى الغرب عند جامع الأنبياء هو الملك المنصور سيف الدين قلاون (١٢٨٧ م) وأن القبة نفسها جددت فى زمن ولده الملك الناصر محمد قلاون (١٣٢٧ م) وكذلك قل عن الرخام والشبابيك المصنوعة من الفسيفساء فى صدر المسجد ، ومنها الشباكان اللذان عن يمين المحراب وشماله ، والأبواب ، والسور القبلى عند محراب داود . فإن هذه الأشياء من صنع الملك الناصر محمد بن قلاون . وهناك كتابات كثيرة فى المسجد تشير إلى ذلك . منها الكتابة التى تجدها فى القبة نفسها من الداخل والمكتوبة بأحرف كبيرة تعرف بالثلث ، وفوق الشباك الكائن شرقى المحراب ، وفى الواجهة الأمامية فوق الأروقة .

ومن المماليك الذين عنوا بعمارة المسجد الأقصى السلطان شعبان بن الملك الناصر محمد قلاون ، وأخوه السلطان حسن (١٣٧٦ م) والملك الأشرف إينال (١٤٦٠ م) . والملك الأشرف قايتباى (١٤٧٩ م) . وهناك كتابة تشير إلى ما فعله قايتباى ، نقشت على واجهة المسجد الشمالية فوق الرواق الأوسط إلى اليمين .

وكذلك قل عن سلاطين بنى عثمان . فإنه لم يعتل العرش منهم سلطان إلا وفكر فى ترميم المسجد الأقصى ، أو تعمير جانب من جوانبه . وإنا لذاكرون منهم السلطان سليمان القانونى (١٥٦١ م) . فالسلطان محمود الثانى (١٨١٧ م) واسمه منقوش على قبة الأقصى من الداخل ، وعلى بلاطة تراها إلى يسارك وأنت داخل المسجد من بابه الكبير .

والسلطان عبد العزيز (١٨٧٤ م) . فإليه يرجع الفضل فى عدد كبير من الشبابيك المصنوعة من الفسيفساء . وأما السلطان عبد الحميد الثانى (١٨٧٦ م) فإنه هو الذى بعث بالشطر الأكبر من السجاد العجمى ، ذلك السجاد الذى نراه فى مسجدى الصخرة والأقصى .

ولقد طرأ على المسجد الأقصى ، مع تقادم الزمن ، وهن اكتشف سنة ١٩٢٢ للميلاد . ولم يكن لدى المسلمين من المال ما يكفى لتعميره . وذلك قد حدا بالمجلس الإسلامى الأعلى لإيفاد الوفود إلى الأقطار العربية والإسلامية . وبالمال الذى جمع يومئذ وقدره مئة ألف دينار تم تعمير جانب كبير من المسجد (١٩٢٧ م) وكان أخطر تعمير جرى يومئذ ، استبدال الأعمدة القديمة البالية التى تقوم عليها القبة بأعمدة جديدة (عددها ثمانية) . وأقيمت هذه على أساسات متينة من الخراسانة المسلحة . ولقد تم هذا العمل بإشراف المهندس التركى الشهير الأستاذ كمال الدين .

وما كاد هذا التعمير يتم حتى حدث زلزال (١٩٢٧ م) فتضرر المسجد بسببه . ولكن القبة سلمت من الأذى بفضل التعمير الذى كان قد تم قبل برهة وجيزة .

وحدثت بعد عشرة أعوام (١٩٣٧) هزة أرضية وإن كانت خفيفة ، إلا أنها أظهرت ما كان كامناً من الخراب . فتولى المجلس الإسلامى الأعلى برئاسة الحاج أمين الحسينى عمارة المسجد من واردات الأوقاف العامة . وتتلخص

التعميرات التى أجريت يومئذ (١٩٤٣) فى أنهم هدموا الرواق الشرقى ، وكان قد تصدع تصدعاً خطيراً ، وأعادوا بناءه من جديد . وبنوا سقفه من الأسمنت المسلح بالحديد . وهدموا أيضاً الرواق الأوسط ، وأعادوا بناءه ، واستبدلوا الجملون الخشبى الذى كان يستره بآخر من الحديد الصلب ، وبنوا تحته سقفاً خشبياً بشكل أفقى : أنفق على تذهيبه وزخرفته عشرة آلاف جنيه ، تبرعت بها الحكومة المصرية . وأعادوا الرصاص القديم فوق السطح بعد أن أعادوا سبكه ، واستبدلوا الأعمدة الحجرية القديمة بأعمدة من الرخام أتوا بها من إيطاليا . كما استبدلوا الأوتار الخشبية التى كانت تربط العقود بعضها ببعض بأخرى حديدية مصفحة بالخشب المدهون .

وأما الرواق الغربى فقد أبقوه على حاله بسبب نفاد المال .

والمسجد الأقصى اليوم (١٩٤٥) لا يزال محتفظاً ببهائه القديم . طوله ٨٠ متراً وعرضه ٥٥ متراً . وهو قائم على ٥٣ عموداً من الرخام و ٤٩ سارية مربعة الشكل ومبنية بالحجارة . وفى الصدر قبة خشبية مستورة من الخارج بصفائح الرصاص ، ومزينة من الداخل بالجبص النافر المزخرف بالفصوص الذهبية الملونة . وفى الصدر أيضاً محراب كبير وإلى يمين المحراب منبر جميل هو الذى عمله نور الدين ، وأتى به صلاح الدين . وهو مصنوع من الخشب المرصع بالعاج والآبنوس . ويقابل المنبر (دكة المؤذنين)، وهى قائمة على أعمدة من رخام .

وفى داخل المسجد وعند زاويته القبلية إلى الشرق جامع مستطيل الشكل متصل به ، يسمونه (جامع عمر) . وإلى الشمال من هذا الجامع إيوان كبير يسمونه (مقام عزير) أو (مقام الأربعين) . وإلى الشمال منه إيوان صغير وجميل ، وفيه (محراب زكريا) .

وللمسجد أحد عشر باباً : سبعة منها إلى الشمال ، وهى كبيرة . وكل

واحد من هذه الأبواب ينتهى إلى كور من أكوار المسجد السبعة . وباب إلى الشرق . وآخر إلى الغرب . وهناك فى الناحية الغربية أيضاً باب يدخل منه النساء فى طريقهن إلى الجامع المسمى باسمهن : (جامع النساء) . وفى الجدار القبلى باب غير نافذ إلا إلى زاوية ، كانت فيما مضى مدرسة .

وأمام المسجد من الناحية الشمالية رواق كبير هو الذى أنشأه الملك المعظم عيسى ، وقد جدد من بعده . وهو مؤلف من سبع قناطر مقصورة . كل قنطرة منها تنتهى إلى باب من أبواب المسجد السبعة .

وتحت بناء المسجد الحالى دهليز واسع وطويل . يتألف من سلسلة عقود ترتكز على أعمدة ضخمة ، وهوما يسمى بالأقصى القديمة .

مآذن الحرم :

وللحرم القدسى ، فى يومنا هذا ، أربع مآذن هى :

(مئذنة باب المغاربة) فى الزاوية الغربية الجنوبية ، ويسمونها المنارة الفخرية. بناها القاضى شرف الدين عبد الرحمن بن الصاحب الوزير فخر الدين الخليلى (١٢٧٨ م) .

(مئذنة باب السلسلة) غربى الحرم وفوق باب الكنيسة بالتمام . بناها الأمير سيف الدين تنكز الناصرى (١٣٢٩ م) .

(مئذنة باب الغوانمة) فى الزاوية الغربية الشمالية . بناها القاضى شرف الدين عبد الرحمن الذى بنى المئذنة الأولى . وكان ذلك بأمر من الملك المنصور حسام الدين لاجين (١٢٩٧ م) . وجددها الأمير تنكز فى عهد الملك الناصر محمد قلاون . ولهذا يسمونها أيضاً منارة قلاون .

(مئذنة باب الأسباط) بين باب الأسباط وباب حطة ، فى الناحية

الشمالية الشرقية من الحرم ، أنشأها ناظر الحرمين الأمين سيف الدين قطلوبغا فى أيام الملك الأشرف شعبان بن حسن بن الملك الناصر محمد قلاون (١٣٦٧ م)

أروقة الحرم :

وفى طرف الحرم من الغرب أروقة محكمة البناء ، أنشئت فى عهد الملك الناصر محمد قلاون (١٣٠٧ م – ١٣٣٦ م) وفى طرفه من الشمال أيضاً أروقة بعضها أنشىء فى زمن الملك الأوحد والبعض الآخر فى زمن الملك الأشرف شعبان (١٣٦٧ م) .

ولقد سد الأتراك هذه الأروقة فى عهدهم ، فاتخذوها مساكن لإيواء المهاجرين والمحتاجين من فقراء المسلمين . إلا أن المجلس الإسلامى الذى تولى الإشراف على الحرم سنة (١٩٢٢م) أزال جدرانها الخارجية وأرجعها إلى ما كانت عليه فى عهد المماليك .

مياه الحرم :

وفى الحرم اليوم سبع وعشرون بئراً ، كلها عامرة ، خلا اثنتين منها . وفيها من الماء ما يكفى لسكان المدينة القديمة كلهم ، وليس المصلين الذين يفدون إلى الحرم فى أوقات الصلوات الخمس فحسب . ومنها ثمانى آبار فى صحن الصخرة وسبع قريبة من المسجد الأقصى ، وست إلى الغرب من ساحة الحرم ، وثلاث فى الشرق ، وواحدة فى الشمال .

وهناك سبل كثيرة ، نذكر منها :

(سبيل شعلان) فى أسفل الدرج المؤدى إلى صحن الصخرة ، وعلى بعد

بضعة أمتار من باب الناظر . أنشأه الملك المعظم عيسى (١٢١٦ م) . وجدده الملك الأشرف برسباى (١٤٢٩ م) . وجدده أيضاً السلطان مراد الرابع (١٦٢٧ م) .

(سبيل علاء الدين البصير) غربى الحرم تجاه باب الناظر ، لا نعرف متى بنى ، وإنما عليه كتابة تقول إن عمارته جددت من لدن نائب السلطان وناظر الحرمين المقر الحسامى قبجا . وكان ذلك فى أيام الملك الأشرف برسباى (١٤٣٥ م) .

(سبيل قايتباى) تجاه باب المتوضأ ، وعلى بعد بضعة أمتار منه إلى الشرق . وهو من أشهر السبل القائمة فى الحرم ، وأكبرها . بناه الملك الأشرف إينال (١٤٥٥ م) . وجدده الملك الأشرف قايتباى (١٤٨٢ م) . ثم جدده السلطان عبد الحميد (١٨٨٢ م) .

(سبيل قاسم باشا) على حافة البركة المعروفة ببركة الرارنج ، ويسمونها ، أيضاً الفاغنج ، على بعد بضعة أمتار من باب السلسلة إلى الشمال الشرقى . أنشأه متولى القدس قاسم باشا فى أيام السلطان سليمان القانونى (١٥٢٧ م) .

وهناك سبل أخرى أنشئت على عهد هذا السلطان (١٥٣٦ م) : واحد تجاه باب السلسلة من الخارج ، والثانى بحارة الواد عند ملتقى طريق باب الناظر بعقبة التكية ، والثالث فى الحارة نفسها قريباً من باب القطانين ، والرابع فى طريق ستنا مريم على بعد بضعة أمتار من باب الأسباط إلى الغرب ، والخامس فى شمال الحرم وعلى بعد بضعة أمتار من الباب العتم .

(سبيل البديرى) بين باب الناظر من الغرب وسبيل شعلان من الشرق بناه قائمقام القدس مصطفى ، فى زمن السلطان محمود الأول (١٧٤٠ م) .

وهناك حوض كبير يعرف بـ (الكأس) يقصده المصلون من أجل الوضوء فى أوقات الصلاة ولا سيما فى يوم الجمعة . واقع بين مسجدى الصخرة والأقصى

بناه الأمير تنكز الناصرى (١٣٢٧ م) . وهو حوض مدور ، مبنى من الرخام . يجرى إليه الماء من قناة تبدأ عند برك المرجيع الثلاثة المعروفة ببرك سليمان . وهى واقعة على بعد عشرة أميال من القدس إلى الجنوب .

وبالإضافة إلى القناة المتقدم ذكرها ، وهى التى كانت إلى عهد قريب تسمى (قناة السبيل) ، وإلى الصهاريج والآبار التى تتجمع فيها مياه الأمطار والتى ذكرناها فى السطور المتقدمة ، فإن الحرم يزود بالماء من (رأس العين) . تلك العين التى ذكرناها فى موضع آخر .

أبواب الحرم :

للحرم فى يومنا هذا عشرة أبواب مفتوحة هى ، من الشمال إلى الغرب : ١ ــ باب الأسباط ٢ ــ باب حطة ٣ ــ باب شرف الأنبياء (ويسمونه الباب العتم أو باب الداودية أو باب الملك فيصل) . ومن الغرب إلى الجنوب : ٤ ــ باب الغوانمة (ويسمونه باب الخليل أو باب الوليد) ٥ ــ باب الناظر (ويسمونه باب علاء الدين البصير أو باب الحبس أو باب ميكائيل) ٦ ــ باب الجديد (ويسمونه باب أرغون) ٧ ــ باب القطانين ٨ ــ باب المتوضأ (ويسمونه باب المطهرة) ٩ ــ باب السلسلة (ويسمونه باب داود) ١٠ ــ المغاربة (ويسمونه باب النبى) .

وهناك أربعة أبواب مغلقة هى : من الغرب ١ ــ باب السكينة (ويسمونه باب السحرة) ومن الشرق : ٢ ــ باب الرحمة ٣ ــ باب التوبة ٤ ــ باب البراق (ويسمونه باب الجنائز) .

الحرم القدسى :

إن جميع الأماكن المتقدم ذكرها ، مسجد الصخرة والأقصى وما بينهما وحولها من منشآت حتى الأسوار ، هى التى ندعوها فى يومنا هذا : (الحرم القدسى) ومساحته بوجه الإجمال ٢٦٠,٦٥٠ متراً مربعاً . وأما بوجه التفصيل فمن الناحية الشرقية ٤٧٤ متراً ، ومن الناحية الغربية ٤٩٠ متراً ، ومن الناحية الشمالية ٣٢١ متراً ، ومن الناحية القبلية ٢٨٣ متراً .

وكان موضع الحرم الحالى فيما مضى يدعى (تل المريا) . ذلك التل الذى ورد ذكره فى سفر التكوين . وكان فيه بيدر (أرنان) اليبوسى : فاشتراه الملك داود ليقيم عليه الهيكل . تملكه اليهود حقبة من الدهر . ثم عاد إلى حظيرة المسلمين . فأسموه (الحرم القدسى) . لأنه مقدس فى نظر المسلمين كافة . إنه هو المسجد الأقصى . . . أولى القبلتين ، وثالث الحرمين الشريفين . . المسجد الذى أسرى إليه بالنبى العربى الكريم ، وفى ذلك نزلت الآية الكريمة :

« سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله ؛ لنريه من آياتنا ، إنه هو السميع البصير » .

هذا ما أردت تدوينه هنا عن الحرم القدسى ، وهو كما ترى موجز للغاية . وفى كتابى الذى جمعت فيه أخبار الحرم بالتفصيل والذى أسميته (تاريخ الحرم القدسى) الشيء الكثير عن تاريخ هذا المكان الإسلامى العظيم ، فليرجع إليه من شاء .

« تم طبع هذا الجزء الأول من الكتاب وقد حدثتك فيه ، أيها القارئ الكريم ، عن (تاريخ القدس) من اليوم الذى بناها فيه اليبوسيون (٣٠٠٠ ق. م.) إلى أواخر عهد الانتداب البريطانى (١٩٤٧ م) . ويليه الجزء الثانى وقد حدثتك فيه عن (النكبة) التى ألمّت بهذه المدينة المقدسة بوجه خاص وبفلسطين بوجه عام من اليوم الذى صدر فيه قرار التقسيم (٢٩ تشرين الثانى — نوفمبر — ١٩٤٧) إلى اليوم الذى يصدر فيه ذلك الجزء . . .

مصادر الكتاب

(ا) الكتب العربية

عدد	اسم الكتاب	المؤلف	ملاحظات
١	فتوح الشام	الواقدى	محمد بن عمر بن واقد . ولد بالمدينة ١٣٠ ه وتوفى ببغداد ٢٠٧ ه
٢	تاريخ ابن واضح	اليعقوبى	أحمد بن واضح . توفى سنة ٢٨٤ ه . وكتابه هذا طبع فى ليدن ١٨٨٣ م
٣	تاريخ الأمم والملوك	الطبرى	الإمام أبو جعفر محمد بن جرير . ولد بآمل (طبرستان) ٢٢٤ ه وتوفى ببغداد ١٣٠ ه
٤	تاريخ ابن البطريق	ابن البطريق	أوتيشيوس الإسكندرى : البطريرك المكنى سعيد بن بطريق . توفى بفسطاط مصر ٣٢٨ ه
٥	أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم	المقدسى	أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن أبى بكر البنا . ولد فى القدس ٣٣٦ ه
٦	مسالك الممالك	الإصطخرى	أبو إسحق إبراهيم بن محمد الفارس ويعرف بالكرخى . ولد فى إصطخر . ونبغ سنة ٣٤٠ ه
٧	التنبيه والأشراف	المسعودى	أبو الحسن على بن الحسين . توفى ببغداد ٣٤٥ ه . اطلعت على نسخته المطبوعة فى القاهرة ١٩٣٨ م

عدد	اسم الكتاب	المؤلف	ملاحظات
٨	سفر نامة	ناصرى خسرو	رحلة قام بها هذا السائح التركى فى القرن الخامس للهجرة (٤٣٧ – ٤٤٤ ﻫ) وقد اطلعت عليها فى مكتبة المتحف الفلسطينى بالقدس .
٩	التاريخ الكبير	ابن عساكر	أبو القاسم على بن الحسن بن هبة الله . توفى بدمشق ٥٧١ ﻫ .
١٠	كتاب الاعتبار	أسامة بن منقذ	أبو المظفر أسامة بن مرشد . . بن منقذ الكنانى . ولد بقلعة شيزر من أعمال حماه ٤٨٨ ﻫ وتوفى بدمشق ٥٨٤ ﻫ .
١١	الفتح القسى فى الفتح القدسى	العماد الأصبهانى	أبو عبد الله محمد بن صفى الدين . . المعروف بعماد الدين الكاتب . ولد بأصبهان ٥١٩ ﻫ وتوفى بدمشق ٥٩٧ ﻫ
١٢	الكامل فى التاريخ	ابن الأثير	أبو الحسن على بن أبى الكرم محمد . . الشيبانى الملقب عز الدين . ولد بجزيرة عمر على الدجلة ٥٥٥ ﻫ وكتابه هذا يعرف بتاريخ الكامل وكامل التواريخ .
١٣	النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية	ابن شداد	أبو المحاسن يوسف بن زافع بن تميم . . الأسدى المعروف بابن شداد بهاء الدين . ولد بالموصل ٥٣٩ ﻫ وتوفى فى حلب ٦٣٢ ﻫ
١٤	معجم البلدان	ياقوت الحموى	ياقوت بن عبد الله الرومى . ولد ببلاد الروم ٥٧٥ ﻫ وتوفى بحلب ٦٢٦ ﻫ . وكتابه هذا طبع فى ليبسيك من أعمال ألمانيا ١٨٦٦ م
١٥	مرآة الزمان	سبط بن الجوزى	أبو المظفر شمس الدين يوسف بن قزاوغلى . ولد ببغداد ٥٧٢ ﻫ وتوفى بدمشق ٦٥٤ ﻫ

عدد	اسم الكتاب	المؤلف	الملاحظات
١٦	كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين	أبو شامة	أبو محمد شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل . . المقدسى . ولد بدمشق ٥٩٦ ﻫ وتوفى بها ٦٦٥ ﻫ . والمقصود بالدولتين : النورية والصلاحية .
١٧	تاريخ مختصر الدول	ابن العبرى	غريغوريوس أبو الفرج بن هارون . ولد بملاطية من أعمال ديار بكر ٦٢٣ ﻫ وكان أسقفاً على طرابلس الشام .
١٨	مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار	العمرى	القاضى شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى . . الكرمانى المعروف بابن فضل الله العمرى . ولد بدمشق ٧٠٠ ﻫ وتوفى بها ٧٥٥ ﻫ . حقق كتابه هذا وطبعه شيخ العروبة أحمد زكى باشا . وقد عثر على بعض أجزائه المبعثرة فى خزانات طوب قبو بالقسطنطينية .
١٩	تاريخ ابن خلدون	ابن خلدون	أبو زيد ولى الدين عبد الرحمن بن محمد . . بن خلدون التونسى . ولد بتونس ٧٣٢ ﻫ وتوفى بالقاهرة ٨٠٨ ﻫ . وكتابه هذا يعرف بـ (العبر وديوان المبتدأ والخبر) .
٢٠	السلوك لمعرفة دول الملوك	المقريزى	تقى الدين أحمد بن على . . بن تميم . . الشهير بالمقريزى . ولد بحارة المقارزة ببعلبك ٧٦٦ ﻫ . وتوفى بالقاهرة ٨٤٥ ﻫ وكان يلقب بعمدة المؤرخين.
٢١	النجوم الزاهرة فى أخبار مصر القاهرة	ابن تغرى بردى	الأمير جمال الدين أبو المحاسن يوسف . ولد بالقاهرة ٨١٣ ﻫ طبعت بعض أجزاء كتابه فى ليدن ١٨٥٥ م والبعض الآخر فى كاليفورنيا ١٩٢٣ م . وجاءت بعدئذ دار الكتب فى القاهرة فطبعت بين ١٩٣١ و ١٩٤٢ تسعة أجزاء منه .

عدد	اسم الكتاب	المؤلف	ملاحظات
٢٢	شذرات الذهب فى أخبار من ذهب	ابن العماد الحنبلى	أبو الفلاح عبد الحى بن أحمد . . ولد بدمشق ١٠٣٢ هـ وتوفى بمكة ١٠٨٩ هـ
٢٣	إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى	السيوطى	الشيخ عبد الرحمن محمد بن أحمد المنهاجى . هبط القدس سنة ٨٧٤ هـ وألف كتابه فيها . واطلعت على نسخته المخطوطة فى زحلة بمكتبة الأستاذ عيسى إسكندر المعلوف عضو المجامع العلمية فى مصر وسورية ولبنان
٢٤	الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل	مجير الدين	أبو اليمن القاضى مجير الدين الحنبلى . ولد بالقدس وتوفى بها ٩٢٧ هـ . وكتابه هذا طبع بالمطبعة الوهبية بمصر ١٢٨٣ هـ .
٢٥	سوانح الأنس برحلتى لوادى القدس	اللقمى	مصطفى أسعد الدمياطى المعروف باللقمى . توفى سنة ١١٧٨ هـ وكتابه هذا مخطوط اطلعت عليه فى مكتبة المرحوم رشيد مكى بجورة عسقلان .
٢٦	بحر الأنساب فى الديار القدسية	السيد على المرتضى	قرأت عنه فى الكتب . ولم أطلع عليه .
٢٧	صبح الأعشى	القلقشندى	الشيخ أبو العباس أحمد القلقشندى . طبع فى المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٣٣١ هـ
٢٨	دولة بنى قلاوون فى مصر	الدكتور سرور	محمد جمال الدين . مدرس التاريخ الإسلامى فى جامعة القاهرة . طبع فى مصر ١٩٤٧ م
٢٩	تاريخ مصر الحديث	جرجى زيدان	ولد ببيروت ١٨٦١ م وتوفى بالقاهرة ١٩١٤ م . منشىء مجلة (الهلال) ١٨٩٢ ومؤلف كتب كثيرة فى العرب والإسلام

عدد	اسم الكتاب	المؤلف	ملاحظات
٣٠	تاريخ سورية	المطران يوسف الدبس	ولد فى بلدة من أعمال طرابلس الشام ١٨٣٣ م . وكان أسقفاً لأبرشية بيروت . وكتابه هذا طبع فى بيروت ١٨٩٣ — ١٩٠٢ م
٣١	خطط الشام	محمد كرد على	رئيس المجمع العلمى العربى بدمشق ومؤسسه . أصله من أكراد السليمانية . ولد بدمشق ١٢٩٣ ﻫ . أنشأ جريدة (المقتبس) . قضى فى تأليف كتابه هذا خمساً وعشرين سنة . وقد طبعه بدمشق ١٣٤٣ ﻫ .
٣٢	مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامى	سيد أمير على	وضعه مؤلفه ، وهو عضو فى مجلس شورى الملك بإنكلترا باللغة الإنجليزية وقدسماه A Short History of The Saracens ونقله إلى العربية رياض رأفت . طبع بالقاهرة سنة ١٩٣٨ م
٣٣	تاريخ البيمارستانات فى الإسلام	الدكتور أحمد عيسى	طبع بدمشق ١٣٥٧ ﻫ — ١٩٣٩ م .
٣٤	البطل الفاتح إبراهيم	داود بركات	طبع فى المطبعة الرحمانية بمصر
٣٥	تاريخ أورشليم	سركيس	إنه خليل بن خطار سركيس . ولد فى عبية من أعمال جبل لبنان ١٨٤٢ م وكتابه هذا طبع فى بيروت سنة ١٨٧٤ م
٣٦	السيرالسليم فى يافا والرملة وأورشليم	الآباء الفرنسيسيون	طبع فى ديرهم بالقدس ١٨٩٠ م
٣٧	تاريخ كنيسة أورشليم الأرثوذكسية	شحادة خورى	ونقولا خورى طبع فى مطبعة (بيت المقدس) سنة ١٩٢٥م

عدد	اسم الكتاب	المؤلف	
٣٨	تاريخ الكنيسة الرسولية الأورشليمية	خليل إبراهيم قزاقيا	
٣٩	تاريخ الكرسي الأورشليمي للأقباط الأرثوذكس	الشماس كامل صالح نخلة	مخطوط اطلعت عليه في دير الأقباط بالقدس (١٩٥٠م)
٤٠	كلام في وصف الأرض المقدسة	باسيل نقولا خترفو	ترجمه عن الروسية حنا عيسى سمارة
٤١	هيكل سليمان	يوسف الحاج	طبع في بيروت سنة ١٩٣٤ م
٤٢	كنيسة القيامة	الخوري ثاوفانس شار	مترجم عن اليونانية . طبع في مطبعة الآباء الفرنسيسيين بالقدس ١٩١٨ م
٤٣	رسائل بيلاطس البنطي	و . ب . كروزير	أستاذ كلية ترينتي في جامعة أوكسفورد . نقلتها إلى العربية جريدة (فلسطين) لصاحبها عيسى العيسى سنة ١٩٤٥ م . وهي الرسائل التي بعث بها بيلاطس من أورشليم إلى صديقه سنيكا في روما .
٤٤	تاريخ القدس	خليل طوطح و بولس شحادة	
٤٥	تاريخ فلسطين	عمر الصالح البرغوثي	
٤٦	النظام الاقتصادي في فلسطين	سعيد حمادة	أستاذ الاقتصاد العملي في جامعة بيروت الأمريكية . طبع سنة ١٩٣٩ م
٤٧	الرحلة الإمبراطورية في الممالك العثمانية	إبراهيم الأسود	صاحب جريدة (لبنان) ومدير معارف الجبل في العهد

عدد	اسم الكتاب	المؤلف	ملاحظات
			العثمانى . طبع كتابه هذا فى بعبدا سنة ١٨٩٨ م .
٤٨	تاريخ الحروب المقدسة	مكسيموس موند	نقله عن الفرنسية مكسيموس مظلوم . . البطريرك الأنطاكى لطائفة الروم الملكيين . ولد بحلب ١٧٧٩ م وتوفى بالإسكندرية ١٨٥٥ م
٤٩	دائرة معارف وجدى	محمد فريد وجدى	طبعت بمطبعة دائرة معارف القرن العشرين بمصر ١٣٤١ ه
٥٠	مجموعة الوثائق السريانية	يوسف أسطفان	مخطوط لم يطبع بعد . جمع فيه مؤلفه المخابرات والوثائق التى عثر عليها فى دير السريان . وقد أطلعنى عليه .
٥١	مجموعة الحروب الصليبية	المجمع الفرنسى	جمع مجمع الآثار والفنون بباريس كل ما كتبه المؤرخون الشرقيون (كأبى الفداء ، وابن الأثير ، وابن جبير وابن ميسر ، والبغدادى ، وابن تغرى بردى ؛ وسبط ابن الجوزى) فنقلها مع ترجمتها إلى اللغة الفرنسية (١٨٧٢ — ١٨٨٤ م) فى مجموعة أسماها : Recueil Des Historiens Des Croisades وقد أطلعنى عليها الأستاذ عبد القادر المغربى عضو المجمع العلمى العربى فى مكتبة الظاهرية بدمشق
٥٢	معجم المطبوعات العربية والمعربة	يوسف إليان سركيس	معجم شامل لأسماء الكتب العربية والمعربة المطبوعة فى الشرق والغرب ، ومؤلفيها ، من اليوم الذى ظهر فيه فن الطباعة إلى نهاية السنة الهجرية ١٣٣٩ ه (١٩١٩ م) . طبع فى مطبعة سركيس بمصر ١٣٤٦ ه (١٩٢٨ م) .
٥٣	الكتاب الأبيض رقم ٣٢٢٩	حكومة فلسطين	

عدد	اسم الكتاب	المؤلف	ملاحظات
٥٤	أسفار العهد القديم	—	
٥٥	القرآن الكريم	—	
٥٦	سجلات المحكمة الشرعية	—	أتاح لى المجلس الإسلامى الأعلى الاطلاع على هذه السجلات المحفوظة فى خزائن المحكمة الشرعية بالقدس . وقد دون القضاة فيها جميع الحوادث التى جرت فى القدس منذ سنة ٩٣٦ للهجرة إلى يومنا هذا

(ب) الكتب الإفرنجية

No.	Name of the Book	Name of the Author	Remarks
1	Jerusalem	Lionel Cust	
2	Underground Jerusalem	Charles Warren	
3	A Palestine Note—book	C.R. Ashbee	Fellow of the Royal Institute of British Architects and Civic Advisor to the City of Jerusalem
4	The Antiquities of the Jews	F. Josephus	
5	Jerusalem the City of Herod and Saladin	W. Besant & H. Palmer	
6	The Dome of the Rock	R.T. Richmond	
7	Stirring Times	J. Finn	British Consul in Jerusalem in the middle of the nineteenth Century
8	The Palestine Campaigns	Col. A.P. Wavell	Third edition. Printed in London (1935) by Love & Brydone Ltd.
9	Annals of Palestine	Monk Neophytos	translated from Greek to English by S.N. Spyridon
10	Pilgrimage of Arculfus in the Holy Land	Arculfus	Translated by Rev. J.R. Macpherson
11	Folklore of the Holy Land	Hanaur	
12	A History of the Ancient Egyptians	Breastead	
13	A Pilgrimage to Palestine	H.E. Fosdick	

No.	Name of the Book	Name of the Author	Remarks
14	Palestine Past & Present	L. Valentine	
15	The Historical Geography of the Holy Land	G.A. Smith	
16	Our Jerusalem	Bertha S. Vester	
17	Guide to Beithlehem	R.W. Hamilton	Director of the Department of Antiquities, Jerusalem
18	Palestine In the Earliest Historical Period	W.F. Albright	J.P.O.S. Vol. XV. p.218
19	The War Graves of the British Empire	His Majesty's Governement	Imperial War Graves Commession, London
20	Encyclopaedia Britannica		
21	Archeological Researches In Palestine	CharlesClermont Gannean	translated into English from French
22	Matériaux Pur Un Corpos Inscriptionum Arabicarum	Max Van Bercham	
23	Recueil des Historiens des Croisades		Publié par les soins de L'académie des Inscriptions & Belles Lettres, PARIS.
24	Ethopi In Palestine	Enrico Cerulli	Translated into English from Latin

محتويات الكتاب

	الصفحة
كلمة المؤلف	٧

الباب الأول

القدس فى عهودها الغابرة

القدس اليبوسية	١١
القدس فى زمن الفراعنة	١٣
القدس وبنو إسرائيل	١٤
القدس وآشور	٢٠
القدس وبابل	٢١
القدس فى عهد الفرس	٢٣
القدس فى عهد اليونان	٢٥
القدس فى عهد الرومان	٢٩
القدس البيزنطية	٣٨

الباب الثانى

الفتح الإسلامى

القدس وعمر بن الخطاب	٤٣
القدس وبنو أمية	٥٠

الصفحة

القدس وبنو العباس ٥٤
القدس وبنو طولون ٥٨
القدس وبنو الإخشيد ٥٩
القدس الفاطمية ٦١
القدس والأتراك السلجوقيون ٦٥
القدس والأرتقيون ٦٦

الباب الثالث

الصليبيون وصلاح الدين

القدس وحملات الصليبيين ٧١
القدس وصلاح الدين ٧٦
القدس وحفدة صلاح الدين ٨٢
القدس فى عهد المماليك ٨٧

الباب الرابع

الفتح العثمانى

القدس فى عهد الأتراك العثمانيين ١٠٣
القدس وإبراهيم باشا ١١١
القدس والأتراك العثمانيون (للمرة الثانية) ١١٧

الباب الخامس

الاحتلال البريطاني

الصفحة

حملة قناة السويس واحتلال القدس ١٣٣
الإدارة العسكرية ١٣٩
الإدارة المدنية والمندوب السامى الأول : السر هربرت صموئيل . ١٤٢
المندوب الثانى : الفيلد مارشال بلومر ١٤٧
المندوب الثالث : السر جون تشانسلور. ١٤٧
المندوب الرابع : السر أرثور واكهوب ١٥٣
المندوب الخامس : السر هارولد ماك مايكل ١٦٠
المندوب السادس : المارشال الفيكونت غورت ١٦٠
المندوب السابع : السر ألن غوردن كاننغهام ١٦١
الضرائب فى عهد الاحتلال البريطانى ١٦١

الباب السادس

أخبار عن القدس فى مختلف العصور

أسماء القدس ١٦٧
أسوار القدس ١٧٠
زلازل القدس ١٧٤
مياه القدس ١٧٦

الباب السابع

القدس كما رأيتها فى أواخر عهد الانتداب

الصفحة

أهميتها التاريخية — موقعها الجغرافى — طقسها — جبالها — مياهها ١٨٥—٢٣٠
وأمطارها — مساحتها — سكانها — مدارسها — مكاتبها — متاحفها —
حدائقها — طرقها — مجاريها — أمراضها ومستشفياتها — تربها ومقابرها —
تجارتها — أوزانها ومقاييسها — صناعاتها — شركاتها — بنوكها
ومصارفها — جمعياتها ونواديها — بريدها — بلديتها — القدس من
الناحية الإدارية — القدس من ناحية الأمن — مستوى المعيشة فيها —
موارد رزقها — السياحة — الموظفون — المهن الحرة — الزراعة — التجارة —
الحجارة — أعمال البناء

الباب الثامن

الأماكن المقدسة ودور العبادة

المقدسات اليهودية ٢٣٣
المقدسات المسيحية ٢٣٩
المقدسات الإسلامية ٢٧٥

للمؤلف

	سنة
علم الإحصاء	١٩١١
ناقة الله	١٩١٦
سر الكون	١٩١٧
سورية الجنوبية	١٩١٩
القضاء بين البدو	١٩٣٣
تاريخ بير السبع وقبائلها	١٩٣٤
تاريخ غزة	١٩٤٣
الموجز فى تاريخ عسقلان	١٩٤٣
رؤياى	١٩٤٣
تاريخ الحرم القدسى	١٩٤٧
نكبة بيت المقدس	١٩٥٠

رقم الإيداع	١٩٩٤ / ٨٦٩٦
الترقيم الدولى	ISBN 977 - 02 - 4721 - 9

١ / ٩٤ / ٧٢
طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)